بول أوستر

بومغارتنر

رواية

ترجمة

سعد البازعي

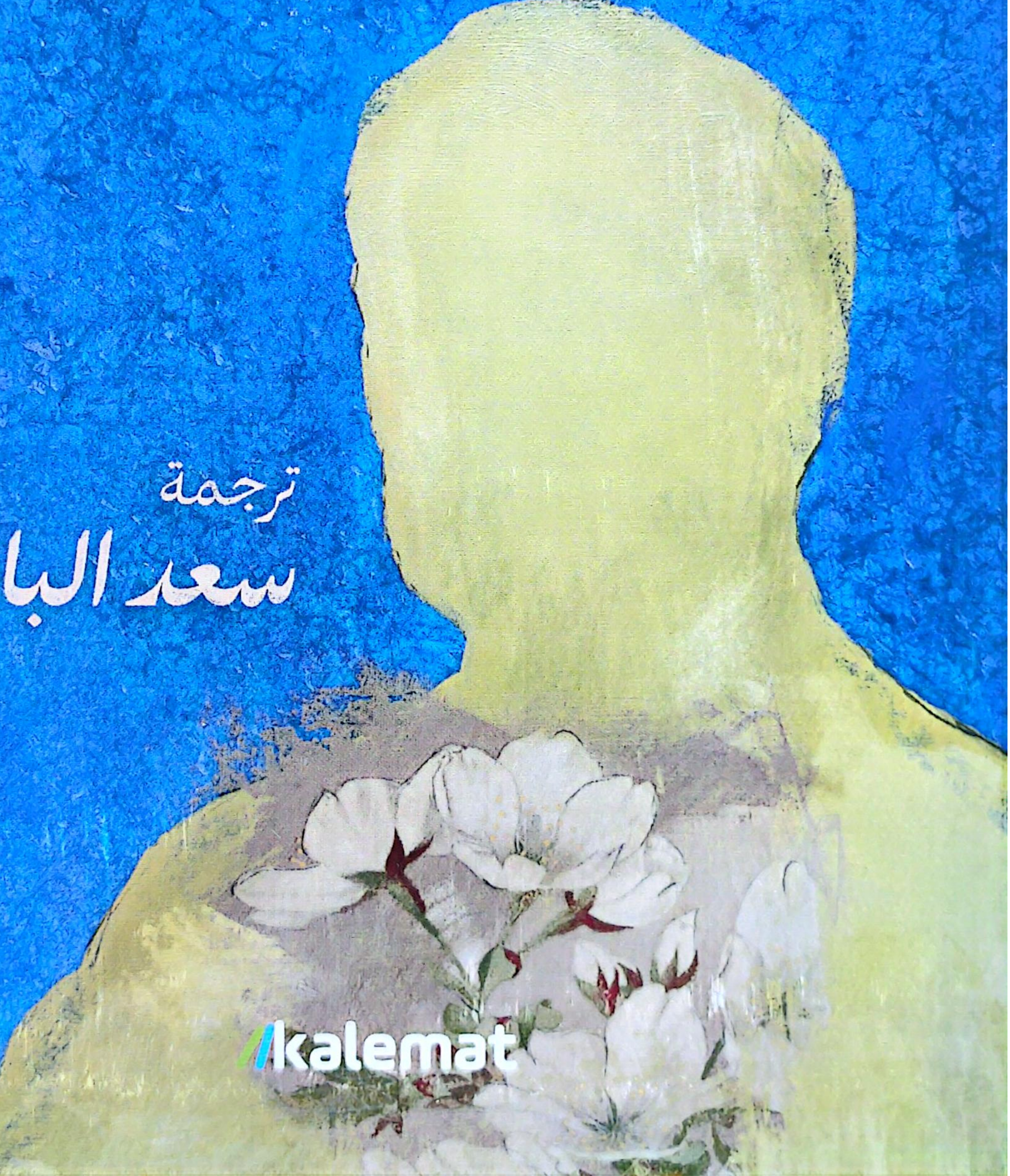

kalemat

بومغارتنر

BAUMGARTNER

بومغارتنر
BAUMGARTNER
بول أوستر
Paul Auster
ترجمة: سعد البازعي
دار كلمات للنشر والتوزيع
البريد الإلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Copyright © 2023 by Paul Auster

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

ردمك: 978-9921-768-92-3

بومغارتنر
BAUMGARTNER

بول أوستر
Paul Auster

ترجمة:
سعد البازعي

2023

kalemat

مقدمة حول الترجمة

كل نص مترجم نص هجين، أي مزيج من النص بلغته الأصلية والنص الذي ترجم إليه بلغة جديدة. فلا يمكن لأي ترجمة في المجالات المعرفية والإبداعية أن تكون إعادة إنتاج للنص الأصلي. بل إن ذلك ينسحب إلى حد كبير على ما يسمى الترجمة الحرفية لأن اللغة المنقول إليها ستختلف حتمًا في دلالات الكلمات وظلال المعاني عما هي عليه في الأصل. الاسم الأجنبي بحد ذاته يتضمن حمولة ثقافية واجتماعية لا يحملها شكله في اللغة المنقول إليها. فأسماء مثل علي وصالح لن تحمل في لغة أخرى ما تحمله لمتحدث العربية وما يرتبط في ذهنه بتلك الأسماء من دلالات غائرة في لحمة الثقافة والتاريخ والمجتمع.

وكذلك هي الحال مع اسم «بومغارتنر» الذي تأتي هذه الرواية المترجمة حاملة له. اختيار الكاتب الاسم ثم ربطه في العملية السردية بجذور محددة مبني على رغبته في نقل معانٍ أو دلالاتٍ محددة لقارئه، والقارئ هنا في المقام الأول قارئ أمريكي ثم قارئ غربي/ أوروبي، ليأتي بعد أولئك قراء أبعد سيجتهدون في التعرف على دلالات الاسم. وما يصدق على بومغارتنر يصدق على أسماء أخرى في رواية بول أوستر التي أقدمها للقارئ في ترجمة حاولت الاقتراب من تلك الأبعاد المختلفة.

تكمن أهمية الترجمة، أو جانب كبير من تلك الأهمية، في ذلك الاختلاف، أي في كونها ميدانًا للالتقاء، في هذه الحالة، على

مستوى السرد الأدبي بين اللغات والثقافات. النص المترجم، لا سيّما النص السردي، مجال خصب للتفاعل بين الأذهان وخلفياتها المعرفية والأدبية، وبين الذائقات المتفاوتة إذ تقف على جماليات قد لا تكون مألوفة. ومن المؤكد أن هذا التفاعل يحدث بقراءة النصوص الأصلية، لكنه يحدث بقراءة الترجمات أيضًا وإن على مستوى مختلف. فالعمل المترجم له مؤلف ومترجم في الوقت نفسه، وقراءته هي قراءة الكيفية التي تفاعل فيها المترجم مع النص الأصلي وسعى لسبر دلالاته وإيحاءاته مع الحفاظ قدر الإمكان على ما في النص من غنى جمالي أو فني. لكن عبارة «قدر الإمكان» مهمة هنا، لأن الترجمة اجتهاد في نهاية المطاف، هي نص على نص، محاولة جادة، في أغلب الأحوال، لإنتاج نص يقارب الأصل في بيئة لغوية مغايرة.

في رواية «بومغارتنر» سيجد القارئ الكثير عن الحياة في المجتمع الأمريكي الذي ينتمي إليه أوستر، لكنه فوق ذلك سيجد رؤية متفحصة من زاوية سردية تتعمق في أدق تفاصيل حياة الفرد في ذلك المجتمع: الطموحات والمعاناة، الخيبات والنجاحات. سيجد قضايا كبرى مثل الشيخوخة والموت، العزلة والسعي لكسرها بعلاقات مختلفة، فضلًا عن قضايا ذات طابع فلسفي وأدبي صرف. فبومغارتنر -الأمريكي ذو الأصل اليهودي- يواجه في الرواية قضية مركزية هي فقده زوجته آنا وسعيه لملء حياته بما تركته من فراغ. كونه أستاذًا جامعيًا ومؤلفًا مرموقًا في مجال الفلسفة يمنحه مكانة اجتماعية لكنها لا تكفي لإثراء حياته بالطمأنينة والمعنى. نقرأ كثيرًا من ذلك بالاستعادة أو بالفلاش

باك، ولكن الكثير أيضًا سرد حاضر يتعمَّد فيه الكاتب استخدام المضارع لنقل صورة حية لما يحدث.

لا أريد أن أفسد على القارئ متعة استكشاف الرواية لكني أشير إلى مسائل أحسبها مهمة مثل عملية الترجمة التي تشكل مفتاحًا للعمل وتمهيدًا لقراءة الرواية من حيث هي صورة للحياة في مجتمع مختلف، مجتمع مفتوح بقيم مغايرة ومشكلات ناتج بعضها عن تلك المغايرة، أي تحول القيم، وفي طليعة تلك المشكلات مشكلة الفردانية وما ينجم عنها من عزلة أحسبها قضية مركزية في الرواية. العلاقات الإثنية، لا سيّما صلة بومغارتنر بجذوره اليهودية، وكذلك الفئات الاجتماعية الأخرى في المجتمع الأمريكي مثل القادمين من أمريكا اللاتينية ومن اليونان وغيرهم من المهاجرين. اسم «بومغارتنر» ألماني وقد يذكر بعض القراء بالفيلسوف الألماني «بومغارتن»، مؤسس علم الجمال، ولكنه مرتبط بصورة أدق من ذلك باليهود الألمان، وللروائية الهندية أنيتا ديساي رواية بعنوان «بومباي بومغارتنر» (Baumgartner’s Bombay) حول يهودي ألماني اسمه بومغارتنر أيضًا يهرب من النازية لاجئًا في الهند. وبول أوستر معني أيضًا بتلك الخلفية، فهو نفسه يهودي الأصل، وحين يرسل بطل الرواية إلى أوكرانيا ليستكشف جذوره، أو حين يستعمل اسمه هو أي «أوستر» لأسرة أم بومغارتنر، أي أخواله، فإنه يعمق الجانب السيري من الرواية.

لكن رواية «بومغارتنر» ليست دراسة إثنية أو اجتماعية. هي عمل أدبي وفني مميز بعنايته بأدبية النص ومطالبته القارئ

باستشعار ذلك الجانب بتضمين النص نصوصًا أخرى كتبتها زوجة بومغارتنر ومنها نص شعري. وأسلوب الرواية يرتفع في بعض المواضع إلى شعرية بديعة شكلت أحد تحديات الترجمة.

لقد سعيت في هذه الترجمة للتغلب على تلك التحديات، ومن تلك غرابة بعض الإحالات والأسماء فوضحت ما رأيته بحاجة إلى ذلك بهوامش، كما وضعت الكلمات والعبارات التي ترد بالإمالة في النص الأصلي في حروف عريضة (Bold) ووضعت أخرى وردت بصيغ تميزها عن بقية النص ضمن مزدوجتين.

أرجو أن أكون بذلك قد قدمت للقارئ العربي رواية جديرة بالتقديم من كاتب أمريكي كبير وليس غريبًا على اللغة العربية، فقد سبق أن ترجمت بعض أعماله وهو جدير بالترجمة.

سعد البازعي

1

يجلس بومغارتنر الآن إلى مكتبه في غرفة في الطابق الثاني يشير إليها أحيانًا على أنها مكان البحث، أو التأمل، مخبؤه. يمسك قلمه بيده بينما هو في منتصف جملة من الفصل الثالث من دراسته للأسماء المستعارة التي استعملها كيركيغارد[1] إذ يخطر بباله أن الكتاب الذي يحتاج إلى الاقتباس منه لكي ينهي الجملة في الطابق الأسفل في غرفة الجلوس، حيث تركه ليلة البارحة قبل صعوده لينام. في طريقه إلى الأسفل لإحضار الكتاب، يخطر بباله أيضًا أنه وعد أخته بالاتصال بها عند العاشرة من هذا الصباح، وبما أنها العاشرة الآن تقريبًا يقرر الذهاب إلى المطبخ لإجراء الاتصال قبل إحضار الكتاب من غرفة الجلوس. لكنه عند دخوله المطبخ تستوقفه رائحة حادة لاذعة. يكتشف أن شيئًا ما يحترق، وأثناء تحركه باتجاه الفرن يلاحظ أن أحد المواقد الأمامية ترك متقدًا وأن شعلة ضئيلة ومستمرة تسير محرقة ما أمامها باتجاه قاع قدر الألومنيوم الصغير الذي كان قد سلق فيه قبل ثلاث ساعات بيضتين سلقًا خفيفًا. يطفئ الموقد، وعندئذٍ، ودون أن يتروى، أي دون أن يكترث بإحضار مقبض أو فوطة، يرفع قدر السلق عن الموقد بعد أن تلف ولكنه ما زال ملتهبًا فيحرق يده. يصرخ بومغارتنر من الألم. وبعد جزء من الثانية يسقط القدر فيقع على الأرض محدثًا رنينًا مفاجئًا ومجلجلًا، ثم يركض،

(1) سورين كيركيغارد: فيلسوف دنماركي (1813-1855) اشتهر بفلسفته التي مهدت للفلسفة الوجودية في العصر الحديث.

وهـو مـا زال يتلـوى مـن الألـم، نحـو المغسـلة، يفتـح المـاء البـارد، يدخل يـده اليمنـى تحـت المـاء ويتركهـا لثـلاث أو أربـع دقائـق بينمـا يغمـر جريـان المـاء الشـديد البـرودة جلـده كلـه.

يجفـف بومغارتنـر يـده متأنيًـا بفوطـة مطبـخ آمـلًا أن يكـون قـد تفـادى أي انتفاخـات محتملـة فـي أصابعـه ومعصمـه، يتوقـف لبرهـة ليفتـح أصابعـه، يربـت علـى يـده بالفوطـة مرتيـن إضافيتيـن، ثـم يسـأل نفسـه مـا الـذي يفعلـه فـي المطبـخ. قبـل أن يتذكـر أنـه كان مـن المفتـرض أن يتصـل بأختـه، يـرن الهاتـف. يرفـع السـماعة ويغمغـم بآلـو حـذرة. يقـول لنفسـه لا بـدّ أنهـا أختـه وقـد تذكـر أخيـرًا لمـاذا هـو فـي المطبـخ، والآن وقـد تجـاوزت السـاعة العاشـرة وبعـد أن فاتـه الاتصـال بهـا، يتوقـع مـن ناعومـي أن تكـون الشـخص المتصـل، أختـه الأصغـر والمشاكسـة التـي سـتبدأ الحديـث دون شـك بتأنيبـه لنسـيانه أن يتصـل بهـا 'مـرة أخـرى كمـا هـي عادتـه'، لكـن بمجـرد بـدء الشـخص الآخـر بالحديـث، يتضـح أنـه ليـس ناعومـي وإنمـا رجـل، رجـل لا يعرفـه بصـوت غيـر مألـوف يتمتـم باعتـذارٍ عـن كونـه قـد تأخـر. تأخـر عـن مـاذا؟ يتسـاءل **بومغارتنـر**. أن أقـرأ عـدادك، يقـول الرجـل. كان يفتـرض بـي أن أكـون عنـدك فـي التاسـعة، تذكـر؟ لا. **بومغارتنـر** لا يتذكـر، لا يسـتطيع أن يتذكـر للحظـة واحـدة أنـه فـي الأيـام أو الأسـابيع الأخيـرة توقـع مـن قـارئ العـداد مـن شـركة الكهربـاء أن يأتـي عنـد التاسـعة، ولـذا فإنـه يقـول للرجـل ألا يقلـق، لأنـه سـيكون فـي المنـزل كل فترتـي الصبـاح وبعـد الظهـر، لكـن موظـف الكهربـاء، الـذي بـدا عليـه أنـه شـاب وغيـر ذي خبـرة وحريـص علـى الإرضـاء، يصـر علـى توضيـح أنـه ليـس لديـه الوقـت ليفسـر الآن

لماذا لم يأت في الوقت المحدد، لكن كان هناك «سبب وجيه» لذلك، سبب «أقوى منه»، وأنه سيحضر بأسرع ما يمكن. جيد، يقول له بومغارتنر، سأراك حينئذٍ. يغلق الخط وينظر إلى يده اليمنى التي بدأت تنبض نتيجة الحرق، لكن حين يتفحص ذراعه وأصابعه، لا يرى أثرًا لانتفاخات أو تقشرًا للجلد، فقط بعض الاحمرار العام. هذا جيد، أستطيع التعايش مع ذلك، ثم وهو يخاطب نفسه بضمير المخاطب، يفكر: أنت أيها الحمار الغبي، اعتبر نفسك محظوظًا.

يخطر بباله أن يتصل بنعومي الآن، في هذه اللحظة، «ليتفادى ما يمكن أن تقول»، لكن بمجرد رفعه السماعة ليدير الرقم يسمع جرس الباب. يخرج من رئة بومغارتنر نفس طويل. يضع السماعة وصوت الرنين في يده ويبدأ بالمشي نحو الباب الخارجي للمنزل، يركل القدر المحترق متبرمًا أثناء خروجه من المطبخ.

يتحسن مزاجه حين يفتح الباب ويرى أنها موظفة «يو بي إس»، مولي، التي تمر به كثيرًا لتكتسب بذلك صفة ... صفة ماذا؟ ليس الصديقة تمامًا، وإنما أكثر من مجرد شخص معروف، بالنظر إلى أنها تأتي إلى الباب مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع على مدى السنوات الخمس الأخيرة، وفي الحقيقة أن بومغارتنر الذي يعيش في عزلة، والذي مضى على وفاة زوجته نحو عقد، يشعر بانجذاب قوي وسري تجاه هذه المرأة القصيرة المكتنزة في منتصف ثلاثينها والتي لا يعرف حتى اسمها الأخير، ذلك أنه إذا كانت مولي سوداء وزوجته ليست كذلك، فإن في عينيها ما يذكّره بزوجته الميتة كلما نظر إليها. لم يتوقف ذلك الشعور

يومًا، لكنه لا يستطيع تحديد ما هو ذلك الشيء بالضبط. ربما كان إحساسًا باليقظة، مع أنه أكثر من ذلك بكثير، أو لعله شيء يمكن وصفه بأنه «يقظة متوهجة»، أو إن لم يكن ذلك، فقد يكون ببساطة القوة في «ذات مضاءة»، حيوية إنسانية تتدفق من الداخل بكل ما فيها من ألق يأتلف في رقصة تجمع الشعور بالفكر – شيء من ذلك ربما، إن كان شيء من هذا له معنى، لكن مهما يكن الاسم الذي تريد منحه لما كانت آنا تملكه، فإن مولي تملكه أيضًا. لذلك السبب اعتاد بومغارتنر أن يطلب كتبًا لا يحتاج إليها ولن يفتحها يومًا وسينتهي به الأمر متبرعًا بها للمكتبة العامة المحلية لسبب وحيد هو قضاء دقيقة أو دقيقتين بصحبة مولي كلما ضغطت الجرس لتوصيل كتاب.

صباح الخير بروفيسور، تقول مولي، وهي تبتسم ابتسامتها المضيئة نحوه كما لو كانت تباركه. كتاب آخر لك.

شكرًا مولي، يقول بومغارتنر مبتسمًا لها وهي تمد له المغلف البني النحيل. كيف أنت اليوم؟

ما زال الوقت مبكرًا للتنبؤ به، لكن حتى الآن المؤشرات الإيجابية في صعود والسلبية في نزول. يصعب الشعور بالاستياء في صباح رائع كهذا الصباح.

إنه أول أيام الربيع – أجمل أيام السنة. لنستمتع به طالما أمكننا ذلك يا مولي. إنك لا تدرين ما سيحدث بعد ذلك.

إن الأمر فعلًا كذلك، تجيبه مولي، وهي تطلق ضحكة قصيرة تعبر عن موافقتها. ثم، قبل أن يفكر برد طريف ولمّاح يطيل الحديث، تلوّح له مودعة لتقود شاحنتها مبتعدة.

تلك من الأشياء التي أحبها بومغارتنر في مولي. إنها تضحك دائمًا حين يطلق أحد تعليقاته العرجاء، حتى أكثرها هشاشة، الأشد تفاهة من بينها.

يعود إلى المطبخ ويوّدع مغلف الكتاب الذي لم يفتح فوق كومة من مغلفات الكتب الأخرى التي لم تفتح أيضًا والمحشورة في زاوية من الغرفة بالقرب من الطاولة. لقد تنامى البرج مؤخرًا إلى ارتفاع بدا عليه أن إضافة واحد أو اثنين من تلك المستطيلات البنية سيؤدي إلى انهيار كل شيء. يضع **بومغارتنر** في ذهنه تذكيرًا بإزالة الكتب من الكراتين في وقت ما نهاية اليوم، ونقل الكتب العارية إلى الأقل امتلاءً بين الكراتين العديدة الجالسة على المطلة الخلفية والتي خصصت مع غيرها من الكتب غير المرغوب فيها للتبرع بها للمكتبة العامة. نعم، نعم، يقول بومغارتنر بينه وبين نفسه، أعرف أنني وعدت بالقيام بذلك عندما كانت مولي هنا آخر مرة، وكذلك في المرة التي سبقتها، لكن هذه المرة أعني ما قلته.

ينظر إلى ساعته ويلاحظ أنها صارت العاشرة والنصف. تأخر الوقت، ربما، لكن ليس بما لا يسمح بالاتصال بنعومي وقطع الطريق عليها قبل أن تبدأ بإغراقي بإهاناتها القذرة. يمسك الهاتف، وما إن يرفعه عن موضعه، يرن الشيطان الأبيض مرة أخرى. ومرة أخرى يفترض أنها أخته، ولكنه يخطئ مرة أخرى.

صوت ضئيل مرتعش يرد على الألوو المغمغمة التي صدرت عنه بسؤال لا يكاد يسمع: السيد بومغارتنر؟ كلمات تصدر عن صوت شاب ومن الواضح أنه يتألم بالقدر الذي غمر بومغارتنر

بالقلق، كما لو أن كل عضو في جسده بدأ يعمل بسرعة مضاعفة. حين سأل من المتحدث، جاءه الصوت 'روزيتا'، فأدرك في الحال أنه لا بد أن شيئًا ما حدث للسيدة فلوريس، المرأة التي كانت أول من جاء لتنظيف البيت بعد دفن آنا وظلت تأتي مرتين أسبوعيًا لتمسح الأرض وتنظف السجاد بالمكنسة الكهربائية وتعنى بغسيل ملابسه إلى جانب العديد من المهام المنزلية التي أبعدته عن العيش في قذارة وفوضى على مدى السنوات التسع والنصف الماضية، السيدة فلوريس الطيبة والملتزمة والصامتة غالبًا، السيدة فلوريس المنعزلة، مع زوجها عامل البناء وثلاثة أطفال، الولدين الكبيرين وروزيتا الأصغر والنحيفة ذات الاثني عشر عامًا بعينيها البنيتين الرائعتين التي تأتي إلى البيت كل سنة في عيد الهلاوين لتأخذ حقيبتها الصغيرة من الهدايا.

ماذا حدث يا روزيتا؟ سأل بومغارتنر. هل حدث شيء لأمك؟

لا، قالت روزيتا، ليس لأمي. لأبي.

بينما ينتظر بومغارتنر بضع لحظات كانت الفتاة تترك دموعها المكبوتة تسيل في نوبة بكاء مخنوقة وقصيرة، ولأن الصغيرة كانت تحاول جاهدة أن تسيطر على نفسها بحيث لا تطلق العنان لمشاعرها تمامًا، نفسها تحول إلى سلسلة من التنهدات المتقطعة والارتجافات. يدرك بومغارتنر أنه لأن السيدة فلوريس ستأتي إلى المنزل بعد ظهر اليوم حسب الجدول، ولأن إجازة الربيع قد بدأت وابنتها ليست في المدرسة، فقد طلبت من روزيتا أن تتصل ببومغارتنر بشأن حالة الطوارئ في حين هي تذهب لتواجه ما حدث لزوجها.

ما إن هدأت التنهدات والارتجافات قليلًا، يطرح بومغارتنر سؤاله التالي. بلملمة الحكاية المتشظية التي روتها البنت عن أمها، التي كانت نفسها قد سمعتها من شخص آخر، يتبين أن السيد فلوريس كان يعيد تصميم مطبخ هذا الصباح، وبينما كان في قبو الزبون يقطع بمنشاره القطعتين إلى أربع، وهي عملية قام بها مئات المرات إن لم يكن آلاف المرات في الماضي، قطع اثنتين من أصابع يده اليمنى.

يرى بومغارتنر الإصبعين تسقطان في كومة من النشارة على الأرض. يرى الدم يجري من أصل اليد العاري والمجرد من الجلد. يسمع صوت فلوريس يصرخ.

يقول أخيرًا: لا تقلقي يا روزيتا. أعرف كم هو مريع هذا، لكن الأطباء يستطيعون إصلاح المشكلة. يستطيعون إعادة أصابع أبيك إلى يديه، وما إنْ تعود مدرستك إلى العمل في الخريف، سيكون في وضع ممتاز مرة أخرى.

صحيح؟

نعم، صحيح. أعدك بذلك.

لأن الفتاة وحدها في البيت ولأنها سجينة وضع من الرعب الخالص المتحجر منذ ذهبت أمها إلى المستشفى، فإن بومغارتنر يواصل الحديث لعشر دقائق أخرى. في لحظة ما عند نهاية الحديث، ينجح في استدرار ما يشبه الضحكة منها، وحين ينهيان الاتصال أخيرًا، تبقى معه تلك الضحكة لأنه متأكد تقريبًا من أنها ستظل إنجازه الوحيد والأهم في ذلك اليوم.

ومع ذلك فإن بومغارتنر يهتز. بينما يسحب كرسيًا ويجلس، مثبتًا عينيه على الدائرة السوداء لبقعة في كوب قهوة قديم يستعرض المشهد في ذهنه. أنجل فلوريس، نجار محترف في الثامنة والأربعين، يقوم بعمل طالما قام به ونجح في أدائه طوال سنوات عدة، فجأة ودون سبب واضح يخطئ وفي لحظة واحدة من عدم الانتباه يجرح نفسه. لماذا؟ ما الذي جعله يفقد قدرته على التركيز ويتجه بتفكيره من العمل الذي يقوم به، وهو عمل بسيط إن كنت تركز عليه وخطِر إن لم تفعل؟ هل استقطب انتباهه أحد العاملين معه حين نزل الدرج في تلك اللحظة؟ هل دخلت فكرة تائهة رأسه مصادفة؟ هل هبطت ذبابة على أنفه؟ هل شعر بألم مفاجئ في معدته؟ هل أكثر من الشرب ليلة أمس أو تخاصم مع زوجته قبل مغادرة المنزل... فجأة، يخطر له أن السيد فلوريس ربما كان يقطع أصابعه في تلك اللحظة بالضبط التي كان فيها هو، بومغارتنر، يحرق يده على القدر. كل من تلكما الحادثتين سبب في التعاسة، حتى إن كانت تعاسة أحدهما أعظم من تعاسة الآخر، ومع ذلك ففي كل حالة –

يرن جرس الباب فيتوقف تدفق أفكار بومغارتنر. اللعنة، يقولها وهو ينهض ببطء عن الكرسي ويتحرك باتجاه مقدمة المنزل. لن يدَعوا أحدًا يفكر هنا.

يفتح بومغارتنر الباب فيجد نفسه وجهًا لوجه أمام قارئ العداد، شخص طويل بشيالات في أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات يلبس القميص الأزرق النظامي لشركة الكهرباء بشعار بي إس إي&جي اللامع على جيبه الأيسر وتحته مباشرة، في

تطريز لامع باللون الأصفر، اسم الرجل داخل القميص: إد. النظرات في عيني إد، بقدر ما يتبين لبومغارتنر، متفائلة وزائغة في آن. يرى ذلك ائتلافًا غريبًا، وحين يرسم إد ابتسامة مترددة على سبيل التحية، فإن الأثر محير أكثر -كما لو أن لدى قارئ العدادات نصف توجس من أن الباب سيغلق في وجهه. لتخفيف قلق الرجل، يدعوه بومغارتنر للدخول.

شكرًا سيد بوم غاردن، يقولها الرجل وهو يتخطى العتبة. ممتن لك.

يقول بومغارتنر وهو مستمتع أكثر مما هو مستاء مما حصل لاسمه من تشويه: لم لا نتخاطب بأسمائنا الأولى؟ أنا أعرف اسمك الأول -إد- فلم لا تزيل مسألة السيد هذه وتسميني سي [Sy]؟

ساي؟

ليست «ساي» [sigh] التي تنفثها مع أنفاسك – فقط سي. س-ي. إنها اختصار لسيمور، الإسم السخيف الذي أعطاني إياه والدي حين ولدت. صحيح أن سي ليس اسمًا استثنائيًا، لكنه على الأقل أفضل من سيمور.

أنت أيضًا، هه؟ يقول قارئ العدادات.

أنا أيضا ماذا؟ يقول بومغارتنر

التصق بك اسم لا تحبه.

ما المشكلة في إد؟

لا شيء. إنه الاسم الأخير الذي يزعجني.

أها؟ وما هو؟

بابادوبولوس.

لا مشكلة في ذلك الاسم. إنه اسم يوناني جميل.

ربما بالنسبة إلى شخص يعيش في اليونان، لكنه يجعل الناس في أمريكا يضحكون. الأطفال الآخرون يضحكون عليّ حين كنت في المدرسة، وحين كنت أرمي الكرة [A-ball](1) قبل أعوام قليلة، كان الجمهور كله يضحك حين يعلن اسمي في مكبرات الصوت. إنها تسبب للإنسان ذلك الذي يسمى عقدة.

إذا كان يزعجك إلى هذا الحد، لم لا تغيره؟

لا أستطيع. سيحزن والدي كثيرًا.

بدأ بومغارتنر يشعر بالملل. إن لم يضع حدًّا لهذه الأمور غير المهمة، فسيبدأ بابادوبولوس بإغراقه بقصة حياة والده كلها أو تذكر سيرته بما فيها من نجاحات وخسائر في فرق الدرجة الثانية، ولذا غيّر سي(2)، وهو اختصار لسيمور، الموضوع فجأة وسأل إد إن كان يود إلقاء نظرة على العداد في القبو. إنه الآن يعرف أن هذا هو اليوم الأول للشاب في عمله وأن العداد في الأسفل هو أول عداد يطالعه بوصفه موظفًا كامل الصلاحيات في شركة الكهرباء والغاز، الأمر الذي يفسر لِمَ لَمْ يحضر في الوقت المحدد –ليس لخطأ ارتكبه هو، وإنما لأن مجموعة من قراء العدادات السابقين عملوا له مقلبًا هذا الصباح– أول أيامه في الوظيفة! – حين أفرغوا خزان الوقود في سيارته وتركوه بما

---

(1) الـ A-Ball مصطلح في لعبة البيسبول الأمريكية لم أجد له مقابلًا عربيًا.

(2) سيمور Seymor هو الاسم الأول لبومغارتنر، ويرد في معظم الرواية بهذا الاختصار (سي).

يكفـي لنصـف ميل، مـا جعـل سـيارة الفـان (Van) تتوقـف فـي طريـق مزدحـم أثنـاء سـاعة الـذروة ليؤدي ذلـك إلـى التأخيـر المحـرج. يقـول إنـه آسـف، آسـف جـدًا لمـا سـببه ذلـك مـن إزعـاج. لـو أنـه تصـرف بطريقـة صحيحـة: بفحـص مؤشـر الوقـود قبـل تحركه للقيـام بجولته، لَجَاءَ فـي الوقـت المناسـب، لكـن أولئك الأغبيـاء مـن أهـل الألاعيـب أرادوا أن يمزحـوا معـه فقـط لأنـه جديـد فـي العمـل، ولكـي يـروا إن كان سـيجد عقابًـا صارمًـا مـن المشـرف بسـبب ذلـك. خطـأ واحـد آخـر مثـل هـذا وسـيوضع تحـت المراقبـة. خطـآن ويكـون مطـرودًا علـى الأرجـح.

بومغارتنـر الآن مهيـأ للصـراخ. مـن أيـن أتـى هـذا الضخـم الـذي لا يتوقـف عـن الحديـث، يسـأل نفسـه، وبـأي وسـيلة يمكـن إيقـاف هـذا الدفـق الـذي لا ينتهـي مـن الكلمـات. ومـع ذلـك، فإنـه علـى الرغـم مـن انزعاجـه لا يسـتطيع أن يخفـي بعـض التعاطـف مـع هـذا الأبلـه الطيـب القلـب، ولـذا فإنـه بـدلًا مـن أن يفتـح رئتيـه ليطلـق صرخـة عاليـة، يصـدر تأوهًـا لا يـكاد يسـمع ويبـدأ بالمشـي باتجـاه البـاب الـذي يؤدي إلـى القبـو.

يقـول: إنـه هنـاك، علـى الجـدار الخلفـي إلـى اليسـار، لكنـه حيـن يديـر مفتـاح الإضـاءة فـي القبـو فإنـه يظـل مظلمًـا. اللعنـة، يقـول بومغارتنـر، وهـو يحـاول السـيطرة علـى نفسـه، بنفـس الطريقـة التـي حاولـت بهـا روزيتـا الصغيـرة ألا تبكـي حيـن تحدثـا مـن قبـل، لا بـدّ أن المصبـاح فـي الأسـفل قـد احتـرق.

ليسـت مشـكلة، يقـول إد. معـي مصبـاح كهربائـي. الاسـتعداد المعتـاد، كمـا تعلـم.

طيب. متأكد من أنك ستجده.

ربما نعم، وربما لا، يقول قارئ العدادات المبتدئ. أرجو ألا تمانع في الذهاب معي إلى الأسفل لتريني أين هو، أليس كذلك؟ هذه المرة فقط، لكي لا أضيع مزيدًا من وقتك.

يخطر ببال بومغارتنر أن إد بابادوبولوس يخاف من الظلام، أو ربما يخاف من ظلام القبو فقط، لا سيّما في المنازل القديمة مثل هذا، حيث شبكات العناكب تتدلى من الأعمدة وحيث الحشرات الضخمة تعدو بامتداد الأرضية ولا يعلم إلا الله عن الأشياء الخفية التي تعيق الممر نحو العداد، ولذا، مع أن بومغارتنر ليس لديه شك أن نعومي ستتصل به ما إن يضع قدمه على العتبة السفلى، فإنه يسمح لنفسه مترددًا أن يسير في المقدمة.

درج القبو متداعٍ ويتأرجح، أحد الأشياء التي طالما وعد بومغارتنر نفسه بإصلاحها دون أن يفعل، حتى بعد مرور أعوام على قطعه وعدًا بذات التصميم الجاد، ذلك أنه لا يخطر الدرج بباله إلا حين يجد نفسه ينزل عليه إلى القبو، وما إن يصعد ويغلق الباب ينسى الموضوع.

الآن وبلا ضوء ينبعث من السقف ويضيء الدرج، وبالاعتماد فقط على مصباح إد الكهربائي في الخلف، يمسك بومغارتنر حذرًا بسياج الدرج الخشبي المتشظي، ولكن ما إن يشد قبضته حوله حتى تلسع راحة يده وأصابعه آلاف الإبر الخفية – كما لو كان يحترق مرة أخرى. يسحب يده بسرعة ولأنه لا يوجد سياج على الجهة اليسرى، فلم يعد ثمة ما يمسك به، لكنه -وهو واثق بأنه يعرف هذا الدرج بعد أن عاش في هذا البيت عدة

أعوام- يغامر بالنزول خطوة أولى إلى القاع، يخطئ خشبة واحدة بفارق نصف إنش، يفقد توازنه في الظلام، ويتدحرج إلى القاع، محطمًا مرفقًا، ومحطمًا المرفق الثاني، ثم شارخًا ركبته اليمنى إذ تصطدم بالإسمنت الصلب.

يصرخ بومغارتنر في ذلك الصباح للمرة الثانية.

تتبدد الصرخة إلى سلسلة من الأنّات الطويلة بعد أن أخذ جسمه المتكوم بالتلوي حول نفسه على الأرض الشديدة الرطوبة. ليست لديه فكرة إنْ كانت أعضاؤه تتحرك، لكنه يدرك مع ذلك أنه لا يزال واعيًا، لأن بعض الأفكار المشتتة تتقافز في رأسه، حتى إن كانت تلك الأفكار قاتمة وغير مفهومة بالنسبة إليه، الأمر الذي يجعلها غير جديرة بأن توصف بالأفكار، كما يَفترض، فيصنفها على أنها شبه أفكار أو لا أفكار، باستثناء ربما أنه على الرغم من الألم الذي يهاجم مرفقيه وركبته اليمنى، ما من ألم في رأسه، ما يعني أن جمجمته نجت من السقطة دون ضربات خطِرة، وهو ما يوحي بأن الحادثة في نهاية الأمر لن تحوله إلى معتوه يسيل لعابه ويقول كلامًا غير مفهوم فيصير مهيأ لمصنع الصمغ. لكن بعد لحظات، حين وقف إد أمامه مسلطًا مصباحه الكهربائي في وجهه، لم يستطع بومغارتنر أن يطلب منه أن يوجه الضوء بعيدًا عنه وبدلًا من ذلك أصدر أنّة وهو يضع يده على عينيه. إن دل ذلك على شيء فقد دل على أن المخ ما زال مضطربًا، إن لم يكن أصيب بتلف دائم، أو أنه تصمغ في تلك اللحظة بسبب الألم الذي نتج عن البحث عن أعضاء أخرى للجسم غير رأسه، مرفقه خاصةً، الذي أحس بأنه يكاد ينفجر

ملتهبًا حين رفع ذراعه لتغطية عينيه بيده، اليد نفسها التي كانت قد احترقت هذا الصباح ولا تزال تؤلمه، ومن المؤكد أن ذلك لأنه وصل المرحلة الأخيرة من سقطته حين مد يديه وهو يصطدم بالأرض الإسمنتية في الأسفل، مع أنه لا يتذكر أنه فعل ذلك.

يا للكارثة، قال إد. هل أنت بخير؟

بعد وقفة طويلة استطاع بومغارتنر أن يدفع ببعض الكلمات من فمه. قال: لا أدري. مع أنه ارتاح لاكتشافه أنه لم يفقد القدرة على الكلام، فإن الألم كان من الشدة بحيث أفقده بهجة الانتصار. على الأقل لم أمت، قال لإد. أفترض أن من الممكن قول ذلك.

هذا مؤكد، لا جدال في ذلك. لكن قل يا سي، أين هو الألم؟

بينما يعدد بومغارتنر مواطن الألم يؤدي إد دور مدرب رياضة محترف، يتلمس بعناية التلف المحتمل في كل عضلة ووتر وعظم، وبعد تقصي الأماكن، يسأل بومغارتنر إن كان من الممكن رفعه والصعود به إلى أعلى الدرج.

لنحاول، يقول بومغارتنر. سيتضح سريعًا إن كنت أستطيع أم لا.

وهكذا يرفعه إد بابادوبولس -ذلك الغريب الذي دخل منزل بومغارتنر منذ ما لا يزيد على عشر دقائق- عن الأرض بيده اليمنى بينما يحمل المصباح الكهربائي باليسرى، وبينما تحيط ذراعه اليمنى بقوة بأضلع بومغارتنر وجذعه، يبدأ العملية المنهكة، عملية الصعود به بطريقة ما إلى أعلى الدرج الضيق والمتهالك. بين كل مواضع الألم يكتشف بومغارتنر أن الركبة تؤلم أكثر من غيرها، تؤلم إلى حد أن مجرد الوقوف عليها يتسبب

في ألم يدفع للعواء، تلك الأصوات التي تشبه ما بين أربعين وشقًا تختصم بأصواتها الحادة. ومع ذلك فإن بومغارتنر نتيجة شعوره بالامتنان لعناية إد وذراعه القوية مصمم على أن يفعل كل ما يستطيع دون شكوى، أن يتحمل العواء والصراخ بصمت رواقي صامد. لذلك حتى حين انطلق إد في رواية إصابة ركبته هو قبل أربعة أعوام، حين أصيب بتمزق في الغضروف المفصلي أدى إلى وضعه على الرف طوال الموسم ودمر في نهاية الأمر وظيفته راميَ كرة. كان بومغارتنر يستمع دون صوت ما عدا أنّة صغيرة بين الحين والآخر، فلم يتكلم أو يصرخ حين مضى إد في شرح كيف أنه ما إن عاد من إصابته كانت قذفاته قد فقدت حدتها والتفافاته فرقعتها، وهكذا كان، كما يقول، «مع السلامة يا تشارلي، كانت فرصة سعيدة»، حتى أثناء ذلك، ظل بومغارتنر، وهو محاصر ما بين حكاية الرامي الكثيرة الالتفافات حول الأحلام المحطمة وأكواب القهوة التي لم تُشرب، الحكاية التي استمرت طوال الدقائق الأربع التي استغرقها لصعود الدرج، غير حانق على إد، بل كان ملتصقًا بكلماته من حيث هي إلهاء عن الألم، إلهاء كئيب ولكنه مطلوب.

بمجرد وصولهما إلى أعلى الدرج، يواصل بومغارتنر اتكاءه على إد بينما هو يعرج في طريقه إلى غرفة الجلوس حيث يجلسه حاميه بهدوء على الأريكة ثم يدفع بوسادتين مزركشتين تسندان رأسه. يجب أن نضع ثلجًا على تلك الركبة، يقول الشاب، وقبل أن يتمكن بومغارتنر من إخباره أن آلة الثلج في الثلاجة مكسورة. لا تقلق، يقول بومغارتنر، سأتحسن. يختفي إد من الغرفة. يستمع

بومغارتنر إلى الفريزر وهو يُفتح ثم يغلق. وما هي إلا ثوان حتى يظهر إد وهو مرتبك وكدِر. لا يوجد ثلج، يقولها بذات النغمة التي تصدر عن طفل اكتشف للتو أن سانتا كلوز غير موجود، أو باحث مرهق يكتشف أنه لا يوجد إله، أو رجل يُحتضر ويكتشف للتو أن الغد لن يأتي.

لست متأكدًا من ذلك، يقول قارئ العداد. تبدو في وضع سيئ يا سي. شعرك منكوش، وبنطلونك ملطخ ومليء بالبقع. ربما نحتاج إلى أخذك إلى المستشفى لصور الأشعة. فقط للتأكد من أن لا شيء مكسور.

إنسَ الموضوع، يقول بومغارتنر. لا مستشفيات ولا أشعة. كل ما أحتاج إليه هو قليل من الراحة فقط لأستجمع قواي. سأنهض بعد وقت قصير.

حسنًا، افعل ما بدا لك، يقول إد وهو يمعن في النظر إلى مريضه بينما تدور في رأسه عجلات صغيرة. دعني على الأقل أحضر لك كأسًا من الماء، طيب؟

شكرًا لك. كأس من الماء يبدو رائعًا.

بعد دقيقة ونصف يشرب بومغارتنر الماء، يجلس إد فجأة على الأرض وينحني إلى درجة أن وجهه يكاد يلامس بومغارتنر.

أخبرني يا سي، يسأل إد، أي عام هو؟

يتوقف بومغارتنر لبرهة في منتصف الرشفة، يبلغ الماء المتجمع في فمه ويقول: أي سؤال هذا؟

فقط للتسلية يا سي. أي عام هو؟

حسنًا لنر. لو حذفنا 1906 و1687، مع عام 1777 و1944، سنكون في العام 2018. ما رأيك؟ قريب بما يكفي؟

يبتسم إد ويقول: في قلب الحقيقة.

اقتنعت؟

سؤالان أو ثلاثة – فقط للتسلية.

يتنهد بومغارتنر تنهيدة عميقة وغاضبة، ثم يحتار إنْ كان عليه أن يلكم إد على أنفه أم يواصل التسلية من باب اللطف. يغمض عينيه وهو متوازن على تقاطع طرق بين العجوز النكِد ذي النزوات والحكيم المتجاوز لهذا العالم، فيقول أخيرًا: حسنًا يا دكتور. السؤال التالي:

أين نحن؟

أين؟ نحن هنا بالطبع، حيث كنا دائمًا – كل منا سجين في مكانه أو مكانها منذ لحظة ولادتنا حتى لحظة موتنا.

صحيح تمامًا، لكني كنت أفكر في المدينة التي نحن فيها. المكان والخارطة التي نحن الاثنان فيها الآن.

حسنًا، في تلك الحالة، نحن في برنستون، أليس كذلك؟ برنستون، نيو جيرسي بالتحديد. مكان جميل ولكنه شاحب في رأيي، لكن ذلك مجرد رأي. ماذا ترى؟

لا أعرف. لم آت إلى هنا من قبل. يبدو لي أنه مكان جميل، لكني لا أعيش هنا مثلك، ولذا لا أستطيع في الحقيقة الحكم.

يريد بومغارتنر أن يستمر في ممازحة إد أثناء طرح بقية الأسئلة، لكنه لا يستطيع ذلك. لطيبة الرجل تأثير قوي يكتسح أي هاجس للسخرية منه، وهكذا بمجرد انتهاء السؤال والجواب

واقتناع قارئ العداد أن مريضه خالٍ من الجروح أو ما يشير إلى أن حياته في خطر، يخبره بومغارتنر أنه استغرق وقتًا كافيًا وأن عليه أن يواصل جولته مع زيادة السرعة لأن هناك المزيد من العدادات التي يجب أن تقرأ اليوم، وهو ما يذكّر إد فجأة أنه مع الفوضى التي نتجت عن سقوط بومغارتنر من الدرج نسي أن يقرأ العداد، وهكذا يخطف مصباحه الكهربائي ويجري خارج الغرفة لإكمال مهمته الأولى بوصفه موظفًا رسميًا لشركة بي إس إي و جي.

بينما كان بومغارتنر يستمع إلى خبطات الحذاءين النازلين عبر درج القبو، كان تفكيره يتجه إلى التداخل العجيب للظروف التي وضعته على ظهره بمرفقين نابضين بالألم وركبة منتفخة موجعة، والتي ستجعله يعرج أثناء مشيه لعدة أسابيع قادمة، إن لم يكن حتى نهاية الصيف أو ربما حتى نهاية العمر. لا حيلة أمام كل ذلك، يقول لنفسه، ثم تتجه أفكاره إلى السيد فلوريس المسكين وتلك العملية المرعبة التي رأى فيها إصبعين من أصابعه تقطع. يقول لنفسه: كما سيكون مرعبًا أن يرى نفسه يفعل ذلك بجسده، لا أن يرى أصابعه تتساقط من يده وإنما أن يعرف أنه هو المسؤول عن تشويه نفسه. حسب ما سمع، يمكن للأطباء أن يخيطوا بصورة روتينية الأصابع المقطوعة هذه الأيام وجعلها تعمل مرة أخرى، لكنه لا يعرف أي شخص عاش شخصيًا مر بعمليات الإعادة تلك ولذا يتمنى ألا يكون قد كذب على روزيتا حين أكد لها أن أباها يمكن أن يستعيد كل شيء مرة أخرى، ذلك أنه يجب على المرء الا يكذب على الأطفال، أبدًا، وفي أي ظروف، حتى وإن كان من الممكن أحيانًا تجاوز ذلك فيما يتعلق بالبالغين.

لقد نسي الآن مقالته حول كيركيغارد تمامًا وكذلك الكتاب الذي كان يخطط للصعود به إلى الطابق الأعلى لكي يصقل الجمل التي كتبها. كما أنه نسي الاتصال بأخته، بل وحقيقة أنه كانت له أخت يومًا، ذلك أن الكثير قد حدث منذ كانت تلك الأمور مهمة، فطرأت قضايا تهمه بالقدر الذي جعل غيرها يبدو كما لو كان جزءًا من حياة إنسان آخر. كانت خطته الوحيدة في الوقت الحالي هي الحصول على قسط من الراحة وانتظار عودة إد من الأسفل بعد قراءة العداد، فعندئذٍ سيشكره لأفضاله الكثيرة ويتركه يذهب في طريقه. إنه يغمض عينيه، وخلال الدقيقة أو الدقيقتين التاليتين تستمر أفكاره بالسير على غير هدى متنقلة من هذا الشيء إلى ذاك، لكن سرعان ما تختفي الأشياء وتحل محل الأفكار سلسلة من الصور الحالمة التي يتركز معظمها على آنا حين كانت شابة، وبين الصورة والأخرى يراها تبتسم له وتعبس بوجهه وتدور عبر غرفة ما وتجلس على كرسي في مكان ما وتقف على أصابع رجليها وتمد ذراعيها باتجاه السقف.

حين يستيقظ يوحي له الضوء المتسرب إلى الغرفة أن وقتًا قد مضى. يفترض بومغارتنر أنه لم يمضِ أكثر من اثنتي عشرة أو خمس عشرة دقيقة، ولكنه حين ينظر إلى ساعته يجد العقارب تقول له إنها الواحدة إلا عشر دقائق، ما يعني أنه قد غفا مدة تقارب خمسًا وأربعين دقيقة أو ساعة. يلقي نظرة سريعة على طاولة القهوة إلى يمينه مباشرة ويرى ملاحظة مكتوبة باليد مفرودة على كومة من الكتب. لو أراد قراءتها عليه أن يمد ذراعه اليمنى لخطف الورقة بأطراف أصابعه، الأمر الذي يستدعي

اختبار حالة مرفقه، لكن أي شاب شجاع سيتمكن من فعل ذلك، وها هو بومغارتنر يفعلها، ومع أن مرفقه المتورم ما زال يؤلمه، فإن الألم ليس سيئًا إلى درجة أن يستدعي أكثر من زحرة عالية.

عزيزي سي، كنتَ نائمًا حين صعدت إلى الطابق العلوي. لم أرد إزعاجك ولذا خرجت. حين أنتهي من عملي سأذهب إلى المتجر وأحضر لك كيسًا من الثلج. سيساعد ركبتك ويخفف الانتفاخ. وسأحضر أيضًا مصباحًا خفيفًا لقبوك. توقع مجيئي ما بين السادسة والسادسة والنصف. المخلص إد بابادوبولس.

استثنائي، يقول بومغارتنر بينه وبين نفسه. رجل غريب تمامًا يترك مهامه ليفعل كل ذلك. في عالم مليء بالسخفاء والهمجيين الأنانيين، يأتي هذا البريء الطيب القلب مثل ملاك رحمة، وأجل سيكون الثلج مفيدًا بالتأكيد، بما أن الركبة لا تزال هشة بصورة كبيرة والجلد المحيط بالرضفة منتفخًا الآن، وهي مثقلة بالدم وبالخلايا المعطوبة أو بذلك الذي، مهما يكن اسمه، يتجمع تحت الجلد حين يبدأ جزء من الجسد بالانتفاخ.

يذكر بومغارتنر نفسه بأن يتصل بالمشرف (إد) في الشركة التي يعمل بها ويمطره بالثناء على المميزات العظيمة التي يتمتع بها العضو الجديد في فريق العمل.

الهاتف الوحيد موجود في الطابق الأرضي وحين يخطر ببال بومغارتنر الذهاب إلى المطبخ يدرك أنه جائع، جائع إلى درجة أنه يقرر أنه إن استطاع المشي تلك المسافة، فإنه لن يجري ذلك الاتصال بشركة بي إس و جي فحسب وإنما سيعد لنفسه غداءً أيضًا.

التحرك من الأريكة أسهل مما تخيل، لكن يتضح أن الوقوف عذاب، وهكذا هو تحريك ساقه اليمنى إلى الأمام، لا سيّما حين يثبّت قدمه اليمنى على الأرض. الزحير يساعد قليلًا، ولكنه لا يكفي. وبينما يبدو الوثب على القدم اليسرى حلًا مثاليًا، فإنه يظل خائفًا أنه سيفقد توازنه ويسقط، مع أنه كان يُنظر إليه يومًا على أنه رياضي جيد، أحد أفضل من في المدرسة حين كان يافعًا، لكن زمنًا طويلًا قد مضى على ذلك، عمر بأكمله حين تقف وتتأمل كم هي السنوات التي مضت منذ ذلك الحين، ويدرك بومغارتنر أنه سيكون من الحماقة الشديدة القيام بتلك المخاطرة، مع أنه استطاع من قبل أن يمسك قدمه اليسرى بيده اليمنى ويقفز على رجله اليسرى برجله اليمنى دون أن تفلت قدمه اليسرى من يده اليمنى. كان ذلك عملًا يبعث الرهبة بين أصدقائه ويجعل البنات يحبسن أنفاسهن، ذلك لأنه الوحيد الذي يستطيع القيام بتلك الحركة الجنونية الغريبة، لكن ذلك ماضٍ والحاضر مختلف، يقول لنفسه، والآن ليس لديه خيار سوى أن يعرج ويزحر في تحركه إلى المطبخ بخطوات بطيئة وحذرة آملًا ألا ينهار قبل وصوله إلى هناك.

يكاد ينهار فعلًا، لكنه يصمد، لا يكاد يصل لكنه يفعل، وما إنْ يعبر خط النهاية فإنه مستنزف بما بذل من جهد إلى حد أنه يرمي بنفسه على أحد الكراسي الموزعة حول الطاولة. ولا حاجة إلى القول إن المطبخ هو الأقرب إلى الباب الذي دخل منه، لكنه أيضًا الوحيد الذي يمكن للمرء أن يطل عبر شباكه على الفناء الخلفي برمّته وبالالتفات قليلًا باتجاه آخر أن يرى الغرفة

كلها أيضًا. يدرك بومغارتنر، وهو يتنفس بصعوبة بعد أن استهلك تمامًا، أن وقتًا طويلًا سيمضي قبل أن يتمكن من الوقوف مرة أخرى ويرحل من الكرسي إلى الدولاب ثم إلى الثلاجة والفرن والمغسلة والهاتف المعلق على الحائط، والآن لا يفعل سوى الجلوس في ضباب من الألم والإجهاد، لا يأبه بما ينظر إليه أو حتى إن كان يرى شيئًا على الإطلاق. ما يحدث الآن هو أنه جالس على الكرسي بطريقة تجعل رأسه مستديرًا باتجاه الغرفة. وبينما تهدأ أنفاسه مستعيدة إيقاعها الأقرب إلى الطبيعي يبدأ بالنظر حوله في الغرفة؛ وهناك أخيرًا القدر المحترق على الأرض. كانت تلك هي البداية، يقول لنفسه، الحادثة السيئة الأولى في ذلك اليوم التي قادت إلى غيرها من الأحداث السيئة التي لا نهاية لها في ذلك اليوم. لكن، بينما يواصل النظر إلى قدر الألمنيوم المسودّ في الجانب الآخر من الغرفة، تتجرف أفكاره بعيدًا عن مشاهد السقوط الغبية هذا الصباح إلى الماضي، الماضي البعيد الذي يرفرف على الحواف الخارجية من الذاكرة، وشيئًا فشيئًا يعود إليه كل شيء، عالم «حينئذٍ» المفقود، وها هو ذا هناك في جسده، جسد الحادية والعشرين المكتمل للتو، تلميذ مدقع الفقر في السنة الأولى من دراسته العليا في الجهة الأكثر ارتفاعًا من الجانب الغربي من مانهاتن، يخطو بقوة نحو الضوء في أواخر ظهيرة من سبتمبر يبحث عن بعض الأشياء من أجل الشقة الأولى التي يقيم فيها وحده لأول مرة، منطلقًا إلى محلات «غودويل» (للبضائع المستعملة) على شارع أمستردام لشراء ما يملأ دولابًا من أدوات المطبخ المستعملة الرخيصة لمطبخه

البالـغ الصغـر، وذلـك المـكان الشـاحب الكثيـر الـركام بجدرانـه الصفـراء وانعكاسـات الضـوء الخافت عليها حيث لمـح آنـا لأول مرة، الفتـاة ذات العينيـن المشـعتين بالـذكاء والمحيطتيـن بمـا حولهمـا، بأعوامهـا التـي لا تزيـد علـى الثمانيـة عشـر، التي كانـت طالبـة فـي ذلـك الحـي أيضًـا. لـم يتبـادلا كلمـة واحـدة، ليس أكثـر مـن لمحتيـن خاطفتيـن باتجـاه بعضهمـا بعضًـا، يتفحـص كل منهمـا الآخـر، يختبـر الإيجابيـات والسـلبيات لمـا يمكـن أن يحـدث أو لا يحـدث لـو أن شـيئًا بـدأ بالحـدوث، ابتسـامة صغيـرة منهـا، ابتسـامة صغيـرة منـه، كان ذلـك كل شـيء، ثـم مضـت إلـى مـا بعـد الظهيـرة فـي سـبتمبر، بينمـا وقـف «السيد جبـان» هنـاك ببلاهتـه المعتـادة منـذ ذلـك الحيـن لينتهـي بشـراء هـذا قـدر الألومنيـوم الرخيـص الـذي كلفـه كل العشـر سـنتات وبقـي معـه كل هـذه الأعـوام حتـى تلـف أخيـرًا هـذا الصبـاح.

مضـت ثمانيـة أشـهر قبـل أن يلتقيهـا مـرة أخـرى، لكنـه تذكرهـا بطبيعـة الحـال، ولأسـباب لا تـزال غامضـة بالنسـبة إليـه تذكرتـه هـي أيضًـا، فكانـت البدايـة، بـدأت شـيئًا فشـيئًا إلـى أن تزوجـا بعـد خمسـة أعـوام لتبـدأ حياتـه الحقيقيـة، حياتـه الواحـدة والوحيـدة التـي استمرت إلـى أن ركضـت نحـو الأمـواج المتكسـرة علـى الشـاطئ فـي كيـب كـود[1] قبـل تسـعة فصـول صيفيـة لتواجـه الموجـة الوحشـية الهائلـة التـي كسـرت ظهرهـا وقتلتهـا. منـذ تلـك الظهيـرة، منـذ تلـك الظهيـرة – **لا**، يقـول بومغارتنـر لنفسـه، عليـك ألا تذهـب إلـى هنـاك مـرة أخـرى، أنـت أيهـا الكيـس المليء بالقـذارة، ابلعهـا وأدر عينيـك

(1) كيب كود Cape Cod شبه جزيرة في ولاية ماساشوستس في الشمال الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية.

بعيدًا عن القِدر، أيها السخيف، وإلا خنقتك حتى الموت بيدي الاثنتين.

وهكذا يوجه بومغارتنر نظره باتجاه القدر على الأرض ويتطلع بعيدًا باتجاه الفناء الخلفي الذي ليس أكثر من قطعة أرض من الأعشاب غير المعتنى بها مع شجرة قرانيا وحيدة، لم تزهر بعد لكنها بدأت تطلع بعض البراعم، وانظر يا للعجب، يقول لنفسه، ها هو ذا طائر أبو الحناء قد هبط على العشب ليستكشف المكان دون شك ويتصيد بعض الدود، وهناك، انظر، ها قد وجد واحدة، إنه يسحبها بمنقاره وبعد ذلك «ضربة» ويرميها على العشب ويتحرك حوله لثوانٍ بحثًا عن أشياء أخرى، ثم فجأة يقفز على الدودة مرة أخرى ويهزها بمنقاره، يقتطع جزءًا منها ثم ضربة ويرميها على الأرض مرة أخرى، يقفز قفزات قليلة أخرى حوله ثم يخفض رأسه مرة أخيرة، يخطف الدودة، ويبتلعها بجرعة واحدة.

يبقي بومغارتنر عينيه مثبتتين على أبي الحناء بينما يمضي العصفور في عمله يمسك بالدود ويبتلعه، ذلك أن هناك كثيرًا من تلك المخلوقات الصغيرة المطمورة تحت سطح الفناء الخلفي، أكثر بكثير مما تخيل، وتدريجيًا يتساءل بومغارتنر -وهو يرى أبا الحناء يسحبها من الأرض- عن مذاق الدود وعن الإحساس بدودة تتلوى، دودة حية، في الفم ثم ابتلاعها.

2

يعمل بومغارتنر على فكرة جديدة. لقد حل يونيو وبانتهائه من كتابه الصغير عن كيركيغارد وركبته الجريحة وقد غادرها الألم تقريبًا، فإنه يغوص في متاهة العلاقة المعقدة بين العقل والجسد التي تسمى **متلازمة الأطراف الوهمية**. إنه يشك أن الفكرة غرست في ذهنه في أبريل الماضي عندما أخبرته روزيتا عن حادثة أبيها مع المنشار الأزاز، فحتى لو لم تعرف ما يكفي لإخباره بأي تفاصيل، فقد ملأ بومغارتنر الفراغات بنفسه، متخيلًا المشهد الدموي بتكرار على مدى الساعات العديدة التالية بحيث شعر كما لو أنه شاهد بعينيه الشفرة وهي تقطع جلد النجار. وكان من الرحمة بالسيد فلوريس أن إصبعيه المقطوعتين ثبتتا بيده في ذلك الصباح نفسه، ولكن كما علم بومغارتنر بعد ذلك، في حالة القطع النهائي يستمر كل شخص تقريبًا ممن فقدوا ذراعًا أو ساقًا يشعرون أن ذلك العضو ما زال مربوطًا بجسده أو جسدها لعدة سنوات بعد ذلك، وأن ذلك يكون مصحوبًا بألم شديد، بحكة، وبتشنجات لا إرادية، وأيضًا بإحساس بأن العضو قد ضمر أو أنه ملوي في وضع بالغ الألم. لقد أمضى بومغارتنر وقتًا يحرث الكتابات الطبية حول الموضوع باجتهاده المعتاد. درس أعمال متشل وساكز وميلزاك وبونز وهِل وما نتشيكانت وراماتشاندران وكولنز وبارين، وعددٍ كبيرٍ آخر، مع أنه يعرف أن اهتمامه الحقيقي ليس في الجوانب البيولوجية أو العصبية للمتلازمة بقدر ما هو في قدرتها على أن تكون مجازًا للألم والفقد البشريين.

إنه المجاز الذي ظل بومغارتنر يبحث عنه منذ وفاة آنا السريعة وغير المتوقعة قبل عشرة أعوام، يبحث عن الموازي الأكثر إقناعًا وتأثيرًا لوصف ما حدث له منذ ذلك الظهر الحار والشديد الرياح في أغسطس ٢٠٠٨ حين رأت الآلهة أن من المناسب سرقة زوجته منه وهي في قمة حيويتها وشبابها لتنتزع أعضاءه من جسده هكذا، أعضاؤه الأربعة: الذراعان والساقان معًا في الوقت نفسه، وإذا كان رأسه وقلبه لم يمسا من تلك الهجمة، فإن ذلك لأن تلك الآلهة الساخرة وغريبة الأطوار منحته الحق الملتبس بالمضي في الحياة دونها. إنه كتلة بشرية صماء الآن، نصف رجل فقد النصف الذي اكتمل به. صحيح أن الأعضاء المفقودة ما زالت موجودة ولا تزال تؤلم، تؤلم إلى درجة أنه أحيانًا يشعر أن جسده على وشك أن يشتعل ويحرقه رأسًا.

طوال الأشهر الستة الأولى عاش في حالة اضطراب عميق بحيث إنه كان أحيانًا يصحو في الصباح وقد نسي أن آنا ميتة. كانت دائمًا تصحو قبل أربعين دقيقة أو ساعة من تمكنه من فتح عينيه، ولذا اعتاد أن يترك السرير وليس فيه أحد ثم يمشي كالنائم إلى مطبخ خالٍ لإعداد إبريق من القهوة لنفسه، مع سماع صوت آلتها الكاتبة غالبًا وهي تطقطق بصوت خافت في الغرفة الصغيرة على الطرف الآخر من الطابق الأرضي أو سماع خطواتها تتحرك في غرف الطابق الأعلى أو ألا يكون هناك أي صوت مطلقًا؛ ما يعني فقط أنها كانت تقرأ كتابًا أو تتطلع من النافذة أو مشغولة بنشاط صامت في مكان آخر من البيت. يفسر ذلك لماذا كانت تلك الفجوات الغريبة في الذاكرة تحدث فقط

في الصباح، قبل أن يكون قد استعاد وعيه الكامل وبدأ يمارس نشاطه تحت هيمنة عادات قديمة تشكلت على مدى حياة كاملة من الحياة المشتركة مع آنا، كما حدث في الصباح بعد عشرة أيام من مراسم الجنازة عندما جلس على أحد كراسي المطبخ ومعه كوب قهوة يتصاعد بخاره لتتجول عيناه وتقعان على كومة مجلات مفتوحة ومراكمة على الطاولة دون ترتيب. كانت إحدى الصفحات بارزة وعليها رأى ما بدا أنه عنوان في **نيويورك ريفيو أوف بوكز** يقول: «حقيقة الطقس». وكان عنوان الكتاب الذي تتناوله المراجعة «مياه العالم»، واسم المؤلفة ساره دراي.

«مياه العالم» تأليف ساره دراي

كان الربط بين هذه غير متوقع أبدًا وبالغ الفجاجة في بنائه الصبياني إلى درجة أن بومغارتنر أطلق ضحكة مدهوشة وقصيرة، ضرب بيده على الطاولة ووقف.

خذي يا آنا الكثير من هذا، قالها وهو يمشي باتجاه غرفة الجلوس. ستبللين بنطالك من الضحك.

قدّر أنها موجودة حتمًا في غرفة الجلوس لأن الآلة الكاتبة كانت صامتة ولم تكن تأتي أصوات من أرضية الطابق الأعلى. لذا كانت متكورة في صوفا ومعها كتاب، متسلحة بقلم رصاص بيدها اليمنى للتأشير على مقاطع اجتذبتها، وإن لم تكن تستعمل قلم الرصاص في تلك اللحظة فقد وضعته دون شك في فمها وكانت شاردة الذهن وهي تمضغ الطوق المعدني المحيط بالممحاة الوردية القصيرة. كانت كل تلك الصور تمر في ذهنه وهو يمشي نحوها في غمرة نسيان - ثم دخل غرفة الجلوس الخالية وتذكر.

عادت كل أفكاره حالًا إلى الجنازة وها هو هناك مع الآخرين كلهم قبل عشرة أيام، يقف إلى جوار قبر مفتوح بينما كان الهواء يهب بقوة تؤذن بالعاصفة المدارية التي كانت تزحف على الساحل برياح متصاعدة، تيارات هواء من القوة بحيث طارت بقبعة أخته عن رأسها وحملتها إلى الجو، شيء أسود يلتف ويمضي متعرجًا عبر السماء مثل طائر مجنون إلى أن هبطت أخيرًا على الأغصان العليا من إحدى الأشجار.

قال الذي يواسي الحزن: إنك مُتخدر. لم تستوعب ما حدث لك.

قال بومغارتنر لنفسه: كل ما حدث لم يحدث لي وإنما لآنا. إنها ميتة بسببه، ولأنني شاهدت جسدها الميت على الشاطئ، ولأنني حملت ذلك الجسد الميت في ذراعيّ، فقد استوعبت ما حدث لها. ما لا أستطيع استيعابه هو أنها أصرت على العودة إلى الماء مرة أخيرة، مع أن الريح قد نشطت والماء يضطرب، مع أمواج تتعالى متدفقة وصاخبة في تكسرها، لكن عندما قلت لها إن الوقت تأخر وعلينا أن نعود إلى البيت، ضحكت ثم قفزت على الموج المتكسر. تلك كانت آنا، شخص يفعل ما يريد ولا يقبل الاعتراض، شخص ذو نزوات ومعنويات عالية، فضلًا عن كونها سباحة ماهرة.

قال مواسي الأحزان، أنت تلوم نفسك. ذلك ما يبدو أنك تقوله لي.

لا، لا ألوم نفسي. كان من غير المجدي أن أصر. لم تكن إنسانًا يمكنك توجيهه أو إعطاؤه الأوامر. كانت ناضجة، ليست

طفلة، وقرارها بوصفها امرأة ناضجة هي العودة إلى الماء، ولم أكن بصدد إيقافها. لم يكن لي الحق في ذلك.

إن لم يكن اللوم فهو الشعور بالأسف، بل الندم.

لا، ولا مرة أخرى. أرى من تعابير وجهك أنك تعتقد أنني أقاومك، ولكنني لا أفعل. الأمر هو فقط أننا بحاجة إلى توضيح ما نريد قبل أن نغوص ونبدأ الحديث. نعم كان يمكن أن تكون على قيد الحياة لو أنها لم تعد إلى الماء، لكننا لم نكن لنستمر أكثر من ثلاثين عامًا معًا لو أنني فعلت أشياء مثل إيقافها عن الذهاب إلى الماء حين أرادت ذلك. الحياة خطرة، يا ماريون، ويمكن لأي شيء أن يحدث لنا في أية لحظة. تعرف ذلك، وأعرف ذلك، وكل شخص يعرف ذلك - وإن لم يعرفوا فإنهم لم يكونوا منتبهين، وإن لم تنتبه فإنك لست حيًّا بصورة كاملة.

بم تشعر الآن، في هذه اللحظة؟

تعيس، بائس. متناثر وقطعي بالآلاف.

بتعبير آخر، منفصل عن العالم، لست أنت.

هكذا أفترض. لكن إلى الحد الذي يمكنني من فهم ما أمر به في هذه اللحظة، يمكنني أن أقول بصدق إنني لا أشعر بالأسف، ولست غارقًا في التأسي على نفسي أو أتوسل إلى السماء: لماذا أنا؟ لماذا ليس أنا؟ الناس تموت. يموتون صغارًا، يموتون مسنين، يموتون عند الثامنة والخمسين. أفتقدها، هذا كل ما في الأمر. إنها الإنسان الوحيد في العالم الذي أحببت، والآن عليّ أن أجد طريقي للمضي في الحياة من دونها.

في تلك الليلة قبل عشر سنوات، بعد جلسته الأولى والأخيرة مع ماريون مستشار الحزن، ذهب بومغارتنر إلى مكتب آنا الصغير في الطابق الأرضي وأمضى عدة ساعات يطالع أوراقها ومخطوطاتها. كان الدولاب محشورًا من الأرض حتى الذقن بنسخ أولية ونسخ للمراجعة من ترجماتها المنشورة، لا تقل عن خمسة عشر أو ستة عشر كتابًا على مدى الخمسة والعشرين عامًا الماضية، معظمها من الفرنسية والإسبانية إلى جانب اثنتين من البرتغالية أيضًا. نفس العدد تقريبًا من الروايات ومجموعات القصائد، كلها كان قد قرأها مرتين أو ثلاثًا وعرفها عن قرب، ولذا فقد أغلق الدولاب وانتقل إلى خزانة الملفات في إحدى زوايا الغرفة، أربعة أدراج عميقة وواسعة ضمت كتاباتها الشخصية في مراحل مختلفة من الاكتمال حزمة منتفخة من القصائد تعود إلى المدرسة الثانوية وتستمر حتى ما قبل غرقها بثلاثة أسابيع، نسخة مطبوعة ومصححة باليد لروايتين ألغيتا، عددًا من القصص القصيرة، اثنتي عشرة مراجعة، وصندوقًا متوسط الحجم من الكتابات (سير ذاتية) تجلس وحدها أسفل الدرج. التقط بومغارتنر الصندوق، حمله إلى مكتبها، جلس على كرسيها ورفع الغطاء. النص الذي فوق الركام كان متماسكًا بمشبك ورقي صدئ، ما يعني أنه قديم، نص كتب منذ سنوات وسنوات، ربما في الأيام الأولى للزواج، أو ربما قبل ذلك. أمسكه بيديه وبدأ يقرأ.

فرانكي بويل

في مرحلة الطفولة المبكرة، في السنوات التي يُحتقر فيها طفل الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة، كانت البيسبول رياضتي وكنت أجري مع الأولاد، وهي مكانة كان علي أن أكافح للوصول إليها بأن أضرب مارفن هاولز حتى أدمي أنفه، هاولز الذي كان زعيم المجموعة، وما إن كسبت احترام العصابة وسمح لي بالمشاركة في ألعاب فترة ما بعد الدروس وفي السباقات، أثبت أنني بمهارة أي منهم وأفضل من معظمهم، ذلك أنه في الأيام الماضية حين كان للبنت الصغيرة مجد محاكاة الأولاد، كان يمكنني أن أجري أسرع من أي منهم ووجدت مركزيَ في منتصف الملعب لكل الفرق التي لعبت معها. إضافة إلى سرعة ساقيّ وقدمي، كانت ذراعي أكثر من قادرة، ذلك أنني كنت بنتًا لا ترمي مثل البنت وإنما مثل الولد، ومع أنني افتقرت إلى العضلات التي تمكنني من الضرب بقوة تذكر، فقد كنت أرسل الرمية المفردة تلو الأخرى وأحيانًا أضاعف الفجوة، رميات من الكثرة بحيث أنني من النادر ألا أكون في القاعدة، الأمر الذي ثبّت دوري بوصفي لاعبة متقدمة ومحرضة رئيسة على تحقيق نقطة بعد جولات نصفية متتالية وناجحة. ثم بلغنا التاسعة كلنا وأرسل لي سادة الجهل أول صفعة خشنة على وجهي. كنا قد كبرنا بحيث انضممنا إلى الدوري الصغير، محاولتنا الأولى في البيسبول المنظم بعد سنوات من اللعب في الحدائق العامة والأفنية الخلفية، عالم مضيء جديد من الملاعب المنظمة، وملابس الفرق، والمدربين،

والحكام، ومنصات الجمهور، شكل مصغر مما هو حقيقي، لكن حسب قواعد ذلك الزمن، القواعد البدائية التي استمرت أطول مما ينبغي فلم يفدني إلغاؤها. كان الدوري الصغير للأولاد فقط، لذلك منعت لاعبة الوسط السريعة القادرة على إرسال الكرة في أي اتجاه من الدخول إلى ذلك العالم السحري، وانتهى مسار حياتها في اللعبة الأمريكية العظيمة.

مزحة ثقيلة، كما كنا نقول حينئذٍ، لكني تلقيت خيبة الأمل بألم وبقيت مستاءة مدة أطول مما ينبغي، تتغير أحوالي سلبًا وإيجابًا لمدة عام، أجد العزاء الروحي فقط في صالة الرياضة المشتركة التي استمرت حتى نهاية الدراسة الابتدائية، أي حتى بلغنا الحادية عشرة والثانية عشرة، حيث لعبتا الكرة الناعمة وكرة المراوغة اللتان أثبت نفسي فيهما في وجه لاعبين مكرسين بأعضائهم التناسلية الرخوة وبزاتهم البيضاء الرائعة التي تحمل شعار الدوري الصغير، الأولاد المحظوظين الذين وقفوا ضدي حينئذٍ وبرزوا لكي يثبتوا أنني كنت لا أساوي شيئًا، أنثى تافهة، وكيف كان الشعور بديعًا أن أعبر خط ضرباتهم في المركز الأيسر من الملعب وأحرمهم من إصابة أهدافهم المؤكدة، متبِعة ذلك بالمتعة الأكبر حين رأيتهم يلقون بأيديهم في غضب مصدوم وأنا أرمي الكرة بهدوء إلى الميدان، أو حين يكون الطقس ممطرًا وفي الشتاء فنلعب في الداخل، كم يكون الشعور مريحًا إذ أحطم وجوههم بواحدة من قذفاتي الكاسحة، الأمر الذي وصل في إحدى المرات إلى درجة إدماء أنف مارفن هاولز نفسه الذي سبق أن أدميت أنفه في ما مضى. والأفضل من كل ذلك، لأنه

الأكثـر مـردودًا مـن كل شـيء، كانـت سـباقات التحـدي بعـد انقضـاء الـدروس، الأوقـات التـي تحديتهـم فيهـا أن يلحقـوا بـي فـي انطلاقـة الستين ياردة، سباقات فردية فـي الملعب بعد جرس الثالثة، بنت ضـد ولـد بينمـا يشـاهد ذلـك حشـد مـن الأولاد. طـوال السـنتين الأوليين، لـم أخسـر مـرة واحـدة، وقـد وصلـت بـي الثقـة نتيجـة تلـك الانتصـارات إلـى التوصـل إلـى النتيجـة الخاطئـة وهـي أن السـرعة أبديـة، لكـن السـنة الثالثـة جـاءت وجـاء معهـا ولـد اسـمه فرانكـي بويل، شـاب محتـرم نحيل ومشـع بأخـلاق عاليـة، الذكر الوحيد فـي الفصـل الـذي لـم يقـف ضـدي وظـل صديقـي، ومـع أننـي تفوقـت عليه مرتيـن مـن قبـل فـي سـباقات مشـابهة، فقـد تعـرض فرانكـي لقفـزة فـي النمـو أثنـاء الصيـف، إلـى الحـد الـذي جعـل الولـد الـذي كان أقصـر منـي بقليل يصيـر مع بداية السـنة السادسـة الابتدائيـة أطـول منـي بثلاثـة إلـى أربعـة إنشـات حيـن أتطـاول إلـى أقصـى حـد. وهـا نحـن أولاء فـي الملعـب فـي مسـاء مضـيء مـن سـبتمبر بعـد يوميـن مـن بـدء الدراسـة، وبحضـور مجموعـة الأولاد المعتـادة الذيـن وقفـوا لتشـجيع مـن أعجبـوا بـه، وفـي هـذه المـرة خسـرت، خسـرت خسـارة واضحـة حيـن تجاوزنـي فرانكـي بويـل فـي الخطـوة السـابعة أو الثامنة ثـم زاد تقدمـه حتـى النهاية، كان متقدمًا إلـى حـد أننـا حيـن انتهينا لا بـدّ أننـي جئـت بعـده بمسـافة مضاعفـة. ابتهـج الجمهـور كثيـرًا، كمـا أتذكـر، وتلـت ذلـك سلسـلة مـن الأغانـي التهكميـة -«كانـت، كانـت» إحداهـا، و«العاهـرة تـأكل التـراب» واحـدة أخـرى- لكـن فرانكـي بويـل كان مـن كـرم الخلـق والإحسـاس اللامتناهـي بالآخـر بحيـث أنـه لـم يسـتغل صيحـات التأييـد مـن الأولاد الآخريـن وإنمـا أحاطنـي بذراعـه

(أول ولد يفعل ذلك على الإطلاق) واصطحبني بعيدًا عن أرض المدرسة، موضحًا بهدوء أنه لم يكن سباقًا عادلًا لأنه كان أكبر وأقوى بكثير مما كنت، فقد صار من الوزن الثقيل بينما كنت خفيفة الوزن، ومن الذي سمع بخفيف وزن يطيح أرضًا بثقيل وزن، لكن لو قسنا الأمر بباوند مقابل باوند، كما قال، فإنني أكون الأفضل في الجري على مستوى المدرسة، الفتاة الأفضل في الجري في كل نيو جيرسي، ولو أردت التدرب للألعاب الأولمبية حين أكون في السن المناسبة للانضمام إلى الفريق الأمريكي، فسيكون مدربي ويجعلني على مستوى من السرعة بحيث أفوز بالميدالية الذهبية حسب الرقم القياسي العالمي. ربما كان ذلك أجمل ما قيل لي، لكني عرفت حين ضُربت، فهمت أن هزيمتي في فناء المدرسة ذلك اليوم كانت مؤشرًا على هزائم ستتلو في الشهر التالي. بدلًا من أن أتسكع وأضيع الوقت في التفكير بقواي المتناقصة، انسحبت بهدوء من تحديات السباق بين البنات والأولاد وبحثت عن مناشط ترضي حبي للحركة، تلك التي بدا أن جسدي المتأجج والذي لا يهدأ يتطلبها بجرعات كبيرة، فنقلت قدراتي الداخلية ومضيت إلى حفلات نهاية الأسبوع، حيث رقصت حتى طاب رأسي مثل متوحش مجنون إلى أن بقيت آخر شخص واقف على أرضية الرقص، أو بدلًا من ذلك قفزت في البحيرات أو المسابح والمحيطات وسبحت في ما أتذكره الآن بشغف على أنه عزلة مشبوبة العاطفة، لا أفكر في شيء على وجه الدقة عدا الضربة التالية والتي تليها بينما كان ذهني يخلو وأسقط في نشوة فصلتني عن نفسي وجعلتني متماهية مع الماء. وحيدة

وبلا وزن، أنزلق في بدلة سباحتي ذات القطعة الواحدة في حين كان صدري المسطح يتكور مع المؤشرات الأولى لتغييرات قادمة، لست هنا ولا هناك ولا في أي مكان آخر في العالم العجيب الذي يدور حولي.

أما فرانكي بويل فقد وقعت فيه بقوة منذ اللحظة التي أحاط فيها كتفي بيده وقادني بعيدًا عن المدرسة. كانت اليد هي التي فعلت كل شيء، نفضة الكهرباء التي سرت في جسدي حين مس جسده جسدي، إحساس أطاله ضغط ذراعه المستمر على ظهري بينما كانت يده ممسكة بكتفي بقوة وقال كل تلك الأشياء المهدئة والغريبة ليشجعني ويعينني على مقاومة إنزالي عن عرش انطلاقة الستين ياردة، ويحيلني أثناء ذلك إلى ملكة المسافات كلها. لم أقع في حبه فقط في تلك الظهيرة، وإنما استمررت في حبه طوال السنة السادسة، مع أن والديه المتشددين رفضا السماح له بالذهاب إلى أي من حفلات نهاية الأسبوع، الأمر الذي حد من فرص اختلائنا لكي نحقق القبل الحارة والعناق الحميم الذي تمنى كلانا ولم نستطع الاستمتاع بها سوى ثلاث أو أربع مرات لأننا كنا محاطين دائمًا بالأطفال الآخرين. بعد إنهاء المدرسة الابتدائية نهاية العام، تفرقنا في إجازة الصيف وحين عاد كل شيء في الخريف انتقلت إلى مدرسة إعدادية عامة مع معظم زملاء صفي، لكن فرانكي لم يكن معنا. أرسله والداه إلى مدرسة كاثوليكية، ولكي يزداد الأمر سوءًا، كانت المدرسة تقع وراء عدة

بلدات في مقاطعة «ساوث أورنج»، مدرسة سيدة أحزاننا[1]، الذي كان أسوأ اسم اخترعه أحد لمدرسة، مع أنه كان وصفًا مناسبًا للحزن الذي شعرت به حين اتصل فرانكي وأعلمني بالخبر. تحدثنا على الهاتف مرات قليلة بعد ذلك في ذلك السبتمبر، وكانت أحاديث مرتبكة لم يكن لدينا الكثير ليقوله بعضنا لبعض فيها أكثر من التأسي على ما آل إليه العالم من كآبة ويأس، لكن بالنظر إلى أننا لم نكن أكثر من أطفال عندئذٍ، ولأن أيًا منا لم يعد جزءًا من حياة الآخر اليومية، توقفت الاتصالات الهاتفية في النهاية.

لم نعد نتواصل لعدة سنوات بعد ذلك، لكن في منتصف السنة من دراستنا الإعدادية كان هناك مرة أخرى، يقف خارج محطة وقود والده على أطراف البلدة، حيث كان قد بدأ العمل مؤخرًا في صباحات السبت وظهريات الأحد، وقد بلغ السابعة عشرة الآن، طويلًا وعريض المنكبين وبذات الوجه الوسيم الذي حمله دائمًا. بدأت صداقتنا مرة أخرى كما لو أن الأعوام الأربعة والنصف من الانقطاع مرت في أربع عشرة ثانية، الأمر الذي يبدو غريبًا لكنه لم يكن غريبًا إطلاقًا. صحيح أنني كنت حتى ذلك الحين قد قبلت عديدًا من الأولاد وفقدت عذريتي لواحد منهم، وصحيح أيضًا أن فرانكي كان من اللطف في ذلك الصباح أن أراني صورة لصديقته التي قرر بصورة نهائية أن يتزوجها يومًا، مشعرًا إياي بتلك الطريقة اللطيفة والمحترمة أنه لم يعد متاحًا،

---

(1) سيدة أحزاننا Our Lady of Sorrows وصف مسيحي لمريم العذراء والاسم شائع في البلاد المسيحية.

لكن السيد بويل الشاب كان هو ذات الشخص المشع الذي كان دائمًا، ونقطة ضعفي تجاهه كانت على ضعفها كما كانت في أيام وزني الرياضي الخفيف، لذا كنت أتغزل به كلما مررت في نهايات الأسبوع فيرد الغزل بمثله، مطلقًا علي «الحمراء» (إشارة إلى لون شعري المائل إلى الحمرة) بينما كنت أسميه «فلاش» (كما في اسم فوردهام فلاش، الاسم المختصر للاعب البيسبول فرانكي فرش). لقد كان ذلك المزاح الذي لا يخلو من سخف بين أصدقاء الطفولة، والذي كان ممتعًا على الرغم من ذلك، لأننا لم نكن بعد أطفالًا بالمعنى الدقيق بل نكبر بسرعة.

لم تكن مهام بويل في محطة بويل للوقود وإصلاح السيارات مرهقة كثيرًا، فقد اقتصرت في الغالب على مسح زجاج السيارات الأمامي، وتعبئة خزانات السيارات بالوقود عالي الأوكتين والعادي، وقياس معدل الزيت وضغط الإطارات. لم أحول زياراتي له إلى عادة في ذلك الربيع الذي تلا عودتنا للتواصل، ربما مرة كل أسبوعين أو ثلاثة، لكني كنت دائمًا أحرص على أن أكون أمامه قبل انتهاء فترته بقليل، وذلك لكي نتجول في سيارة أمي بعض الوقت ونتحدث حين لا يكون لدينا أيام العمل شيء لنفعله بعد انتهاء الدوام. من الصعب تذكر تمامًا ما الذي قاله بعضنا لبعض، لكني أتذكر شذرات من الأحاديث حول أشياء مثل ألبير كامو والبيتلز في مقابل فرقة ستونز وحرب الأيام الستة في إسرائيل، ومع أن فرانكي يتحدر من أسرة متشددة في محافظتها حيث الأب محارب سابق كان في معركة أنزيو وداعم قوي لحرب فيتنام، فإن فرانكي كان ضد الحرب، الأمر الذي ساعد على إيجاد رابط آخر بيننا.

لقد كانت فترة الطفولة سيئة، لا سيّما إن كنت يافعًا يقترب من الثامنة عشرة في نهاية المرحلة الثانوية، وبالذات في تلك المرحلة، في النصف الثاني من عام 1967 والنصف الأول من 1968، حين كان كل شيء على الجبهة الداخلية يتشظى إلى قطع ولجان التجنيد تعمل بكل طاقتها ممتصة الآلاف من الأولاد المراهقين ترسلهم ليحاربوا في أدغال بعيدة دونما سبب يستطيعون استيعابه. كانت تلك سنتنا النهائية، منا من يبذل كل جهده في مدرسة لفنغستون الثانوية والآخر في مدرسة سيتون هول التحضيرية، ولمضاعفة الحيرة التي شعر بها فرانكي في الأشهر الأولى من 68، مع إعلان جونسون أنه لن يرشح نفسه لمدة ثانية وإرداء مارتن لوثر كنغ قتيلًا بإطلاق نار في ممفس[1] فتشتعل عشرات المدن في مختلف أنحاء البلاد، رأت صديقته ميري ألن الفلانية[2]، التي عرفها على مدى الأعوام الثلاثة الماضية رأت أن من المناسب الانفصال عنه في شهر مايو واصفة فرانكي بأنه ثقيل دم وغامض، أبعد ما يكون عن الولد الذي أحبته ذات يوم. وفوق ذلك كله كانت هناك المعارك بينه وبين والده الذي بدأ يصفه بالجبان والشيوعي لمعارضته الحرب وأنه لن يعطيه شيئًا من المال لمواصلة تعليمه الجامعي حتى لو على جثته إن هو لم ينهض وينضم إلى التجنيد. حدث في خضم كل تلك الفوضى أننا، فرانكي وأنا، التصق كل منا بالآخر وعشنا

(1) ممفس Memphis مدينة في ولاية تينيسي الأمريكية.

(2) "الفلانية" ترد في نهاية الاسم للإشارة إلى أن آنا لا تعرف اسم عائلة الفتاة. Mary Allen Something

تلك الاندفاعة القصيرة في الأسابيع التي توسطت ما بين مقتل بوبي كينيدي ونهاية المرحلة الثانوية،

كانت بالضبط أربع حفلات حميمية في المقعد الخلفي لسيارة أمي البيوِك التي أوقفناها في عمق أحراش «محمية ساوث ماونتن» حيث لا يستطيع حتى البوم أن يرانا، ومع سعادتي بين ذراعي فرانكي فقد كنت أدرك أنني لن أسير معه في طريق طويل، أن الظروف ستفصلنا أسرع مما يمكن توقعه، الأمر الذي زاد من إلحاحنا على الالتصاق بعضنا ببعض الآن والتمسك بالحياة الغالية.

لكن فرانكي بدأ يترنح ويفقد توازنه قبل مضي وقت طويل. قبلته ثلاث أو أربع جامعات إحداها «رتغرز»، جامعة الولاية، حيث تكاليف الدراسة منخفضة بصورة معقولة، فحتى لو أن والده صدق في وعيده ورفض أن يدعمه، فإن فرانكي سيتمكن من الاستمرار بقرض طلابي أو منحة دراسية أو وظيفة في مقر الجامعة أو مجموع هذه كلها، الأمر الذي سيسمح له بالانتظام بوصفه طالبًا في طريقه للتخرج وعلى مستوى جيد، وهو ما سيجعله بدوره مؤهلًا لتأجيل التجنيد في الجيش لأربع سنوات قادمة. كان ذلك هو القرار المنطقي الوحيد الذي يمكن لشاب معارض للحرب أن يتخذه في ذلك الوقت، وكان طوال فترة الربيع يتحدث عن ذلك كما لو أنه ما يخطط لفعله، لكن مع مرور الوقت اتضح أنه لم يكن كذلك.

لم يفسر يومًا التغيير الذي تبناه، أو أنه لم يستطع، أو لم يرد، أو لم يفهم هو نفسه ذلك القرار تمامًا، لكن بعد أن فكرت فيه

طويلًا وبعمق في السنوات التي تلت، يبدو لي أن فرانكي كان في حالة غضب من أبيه الذي لم يتوقف عن التهجم عليه على مدى العامين السابقين واصفًا إياه بالمخنث الضعيف وابن أمه الجبان والكاره لأمريكا، الوصف الذي تجاوز كونه مجرد رأي سياسي صيغ بفجاجة وإنما تهجم صريح على رجولة فرانكي، ولأنه شاب معتز بنفسه نشأ يحتقر والده لقسوته الغبية مع أنه في الوقت نفسه أكثر أدبًا وتهذيبًا من أن ينقلب على أبيه ويقول له اخرس، فقد أخرسه بأن اختار الانضمام إلى الجيش، الانضمام الذي كان ينوي فعله في اليوم الذي يتخرج فيه في المدرسة الثانوية. لا شك أن فرانك الأب سُرّ لقرار ابنه، ولكن الحقيقة الباردة هي أن فرانكي لم يفعل ذلك ليرضي أبيه وإنما نكاية به، ليبصق عليه، وإن كان هو نفسه لا يدري سوى القليل عما كان يفعل.

لكم بكيت ولكم توسلت إليه، ولكم استمررت في الأيام التالية، لكن كل حركاتي المسرحية غير المنضبطة لم تفلح، ولم يفلح أي شيء قلته. كان فرانكي متصالحًا مع نفسه بطريقة غريبة، وحتى اللحظة التي دخل فيها إلى مركز التجنيد وأدى القسم، كان يسبح في مزاج منبسط ومنتشٍ، كما لو أن البيانو الذي كان يحمله على ظهره لمدة عامين اختفى بطريقة غامضة وصار بإمكانه أن يتحرك بحرية مرة أخرى، لا تثقل كاهله الشكوك ولا يزعجه التردد والاستياء الذي جاء نتيجة حمله ذلك العبء الثقيل.

قال: «إن الأمر ليس سيئًا حين ينظر المرء في الأمر مليًا. سأمنح العم سام سنتين من حياتي وفي المقابل أحصل على

أربعة أعوام من الدراسة الجامعية على فاتورة الـ جي آي[1]، الأمر الذي يعني أنني سأكون مسؤولًا عن نفسي ولن أستجدي أبي ليعطيني تكاليف الدراسة». قلت له: كل شيء تمام، ولكن ماذا سيحدث حين يلقون بك في الأدغال وتبدأ فرقة من الرجال الخفيين في إطلاق الرصاص عليك؟ «لن أقلق»، قالها وهو يبتسم ابتسامة عريضة. «إذا كنت استطعت أن أسبق آنا بلوم الرائعة حين كنت في الحادية عشرة فسأكون سريعًا بما يكفي لتجاوز تلك الرصاصات الآن».

لم يصل فرانكي بول إلى الأدغال في فيتنام. بعد انضمامه بخمسة أسابيع تعرض لحادثة أثناء التدريبات الأساسية في فورت دكس تضمنت خللًا أدى إلى انفجار قاذفة صواريخ في يديه. مزق الانفجار جسده وحوله إلى كومة من الأجزاء المتطايرة في كل الاتجاهات قبل نزولها على الأرض. حين وصل فريق الإسعاف ليبحثوا عن الأجزاء المتطايرة، مشطوا المنطقة لأكثر من ساعتين ثم وجدوا أجزاء من أصابع يدين وقدمين، من الذراعين والساقين، من اليدين والقدمين، مع كثير من قطع الجلد المحروق التي لم يمكن تحديدها والعظام المكسورة، ولكن مع بداية انحدار الشمس في المغيب وحلول الظلام، كان عليهم التوقف عن البحث. على الرغم من محاولاتهم، لم يكن قد تبقى من فرانكي بويل في اليوم الذي دفنوه فيه ما يجعل وزن محتويات تابوته تزيد على واحد وستين باوندًا.

(1) ال GI أو الجي آي إشارة شائعة في الولايات المتحدة الأمريكية لجنود الجيش الأمريكي.

عرف بومغارتنر عن ذلك. كانت آنا قد تحدثت عن فرانكي في فترة مبكرة تعود إلى حديث بينهما عام 1969، لتعود بذلك إلى الرعب المتمثل بنهايته المروعة التي اخترقتها مثل سيف، كما قالت، وخلفت «نزيفًا دائمًا في روحها». كما أخبرته أنها حين علمت بما حدث في فورت دكس جلست في سكن السنة الأولى الطلابي في كلية بارنارد و«انتحبت من أعماقها» لعشر ساعات متواصلة، نحيبًا لم تعرفه من قبل ولن تعرفه مرة أخرى، لأن الانتحاب بتلك الشدة وطوال تلك المدة يكاد يقضي عليك، والجسد لم تهيأ بنيته لتحمل تشنجات بذلك الحجم أكثر من مرة في العمر. لم تشر إلى ذلك الحادث في نصها، ولذا فإن النص نفسه لم يحمل شيئًا كان بحد ذاته جديدًا بالنسبة إليه، ولكن مع ذلك، وأهم منه، حركه النص بعمق ليرى تلك الذكريات العائدة إلى مرحلة الصبا ترقص عبر صفحات مخطوطتها الصفراء، ذلك أنه ما إنْ بدأ يقرأ كلماتها، شعر كما لو أنه يسمع صوت آنا يصعد من الورقة وأنها تتحدث إليه فعلًا مرة أخرى، مع أنها ميتة الآن، ماتت ورحلت، ولن تقول له كلمة واحدة طوال حياته.

أدار بومغارتنر الكرسي إلى اليسار وبدأ ينظر إلى الآلة الكاتبة العتيقة التي امتلكتها آنا. كانت الآلة جاثمة على لوح خشبي مائل يطل من أسفل ثقب مستطيل بسعة إنش واحد، أثر ضخم صنع من خشب الماهوغني الداكن يعود إلى ثلاثينيات أو أربعينيات القرن التاسع عشر كانت قد اشترته بستين دولارًا في محل لبيع الأثاث المستعمل على شارع كولومبس قبل أسبوع من تركهم نيويورك وانتقالهم إلى البيت الواقع على شارع بو Poe

في برنستون. كان والداها قد أهدياها الآلة الكاتبة في عيد ميلادها الخامس عشر -7 مايو 1965- واستمرت في استعمال الآلة من نوع سمث كورونا ذات اللون الرمادي/ الشاحب والمائل للخضرة حتى النهاية، إذا استثنينا وقفة حاولت فيها التحول نحو كمبيوتر ثم اكتشفت أنها لا تحبه، في المقام الأول لأن ملمس لوح الحروف كان رقيقًا أكثر من اللازم بحيث سبب ألمًا لأصابعها، كما قالت، بينما أدى الضرب على مفاتيح الآلة الأكثر مقاومة في آلتها المحمولة إلى تقوية يديها، لذا تخلصت من «الماك» بتمريره إلى ابنٍ لأكبر بنات عمها عمره ستة عشر عامًا وعادت إلى متع اللمس متمثلة في لف الورق في السمث كورونا وملء غرفتها بموسيقى نقار الخشب العالية. وكان الصوت ينساب عبر الحيطان ويصعد عبر السقوف، متدرجًا ببطء إلى كل أجزاء البيت، وحيثما كان بومغارتنر من تلك الأجزاء فقد أحب الاستماع إلى تلك الفرقعات الخافتة سواء أكان يتجول داخل غرف الطابق الأول أو خارجها أو يجلس إلى مكتبه في الطابق الأعلى منكبًا على بدعته الكتابية، التي في حالته صارت كمبيوترًا لأنه لم يكن بدًا من أن تكون كذلك، بما أنه كان يعمل في جامعة وأن قسمه صار رقميًا مثل بقية أقسام الجامعة ومكاتبها. أما آنا فلأنها كانت مترجمة مستقلة وكاتبة لا تعمل لجهة ما، فقد كانت مديرة نفسها وكان يمكنها إدارة عملها بالكيفية والمكان الذي يعجبها، ما يعني الاتصال بالرسائل أو الهاتف أو الفاكس بدلًا من الإيميل والاستمرار في أداء عملها بمساعدة رفيقتها المستهلكة وغير القابلة للتلف. قال بومغارتنر لنفسه: شكرًا لله لإتاحة تلك

السوناتات الصباحية حين كان يصحو على أصابع آنا وهي تطرق المفاتيح، أي لسماع صوت عقل آنا يغني عبر أصابعها التي تطرق المفاتيح، وبعد شهر من عيشه وحيدًا في البيت الخالي، بدأ يفتقد تلك الأصوات إلى حد أنه كان يدخل غرفتها ويجلس خلف الآلة الصامتة ويطبع شيئًا –أي شيء– فقط ليسمع الصوت مرة أخرى.

هكذا مضت الأشهر الستة الأولى، شق في الزمن سيشير إليه بومغارتنر لاحقًا بأنه **التلاشي، أو الرجل المجنون بالحزن**. على مدى نصف سنة كان تقريبًا غير قادر على معرفة نفسه، كائن غير ذلك الذي عرفه وسكن فيه منذ الصبا، وفي تلك الفترة الوسيطة من الصلات الضائعة والنزعات الجنونية، عبر الأيام متذبذبًا بإشغال نفسه بمشاريع كثيرة غريبة وغير ناضجة. لم يقتصر ذلك على طباعة كلام لا معنى له على آلة آنا الطباعية وإنما تبديد مساءين كاملين على طي وإعادة طي الأشياء في أدراج مكتبها -بناطيل دانتيل، بناطيل قطن، سوتيانات، قمصان، جوارب، بانتي هوز، سراويل رياضية قصيرة، سراويل تنس، ملابس سباحة، فانيلات نصف كم – وتنسيقها في صفوف منتظمة قبل وضع كل مجموعة متراصة منها في الأدراج مرة أخرى، أو شراء علاقات خشبية ثمينة واستعمالها بدلًا من المعدنية والبلاستكية ثم إعادة تعليق فساتين آنا وتنانيرها وقمصانها وجواربها القطنية وجاكيتاتها ذات القبعة، والجاكيتات وبناطيل الجينز الشفافة بسحابات لتخزين فانيلاتها على الرف العلوي، أو صب كوب من القهوة لها كل صباح حين يجلس إلى طاولة المطبخ ليشرب كوب

قهوته الذي اعتاد أن يرفعه تحية لها قبل الرشفة الأولى، أو كتابة العشرات من الرسائل المليئة بالوله الحميمي إليها وإرسالها بالبريد مع بذل الجهد اللامعقول المتمثل بتغليفها وكتابة العنوان ثم إلصاق الطوابع ووضعها في صندوق بريد، يتبع ذلك متعة تلقيها بعد يوم أو يومين وتخيل المتعة التي كانت آنا ستجدها لو كانت هناك حين تتلقاها بنفسها.

لربما لم يكن من المفيد له أنه كان في إجازة علمية طوال فصل الخريف من تلك السنة، لكن الفجوة كانت طور الإعداد لبعض الوقت وكان هو وآنا قد رتبا لقضاء أربعة أشهر في باريس دون تدريس، باريس المدينة التي كانا قد عاشا فيها من قبل وظلا يتمنيان أن يعيشا فيها مرة أخرى وإن كان ذلك لأشهر قليلة فقط. كانا قد استأجرا شقة واشتريا تذاكر مرجعة وخططا للإقلاع في العشرين من أغسطس، بعد يومين من عودتهما من زيارة لأصدقاء قدامى امتدت أسبوعًا في شبه جزيرة الكيب بولاية ماساشوستس. لكن بدلًا من الطيران عبر الأطلسي مع آنا في العشرين من الشهر، وجد بومغارتنر نفسه يراقب آلة تنزل تابوتها في الأرض بينما كانت رياح هوجاء تصدم وجهه ويلف صديقه جم فريمان ذراعه اليمنى حول جسده لكي يحمي نفسه من السقوط – خطوة احتياطية لم تكن لها علاقة بالرياح ولكن لأن ساقي بومغارتنر كانتا على وشك الانهيار، ولو فعلتا لكان هناك احتمال قوي لأن يسقط هو نفسه في القبر.

لم تكن هناك مهام تدريسية إذًا، ولذا لم تكن هناك مسؤوليات، ولا اقتحامات على وقته، ولا حاجة ملحة إلى أن يتزحزح من

بيته. فيما يتعلق بالجامعة، كان غائبًا بصورة رسمية، ومع أنه ظل في مكانه دون أن يغادر المدينة أثناء الإجازة، فقد كان بإمكانه بسهولة أن يكون في باريس، أو في بارما، أو في باتاغونيا، دون أن يعني ذلك شيئًا للجامعة. غاب أم لم يغب، ظلت قدماه ملتصقتين بأرضية المنزل، يعيش في فضاء داخلي قلق حوله إلى شخص لديه من الوقت أكثر مما هو معتاد، ولأن بومغارتنر لم يكن في وضع يسمح له بمواصلة العمل على كتبه حول ثورو[1] أو البدء بعمل على أي شيء آخر، كان ذلك الوقت مفرط الطول والفراغ، أيامًا تتعاقب ملأها في الغالب بطي وإعادة طي ملابس داخلية وبإغراق البريد الأمريكي بتيار لا يتوقف من الرسائل الإيروتيكية الحارة إلى امرأة لن يرى جسدها أو يمسه مرة أخرى.

ومع ذلك فإن الساعات لم تضع كلها بمشاغل لا معنى لها، وحين مضى في دراسة المخطوطات التي لم تنشر من قصائد آنا المئتين والست عشرة التي كتبتها في فترة تقارب الأربعين عامًا، فقد أدرك أن العمل كان يتجاوز في جودته المستوى الذي يؤهله لأن ينشر على الملأ. ربما ليس كله، ولكن الثمانين أو المئة الأفضل من القصائد يمكن أن تشكل كتابًا مميزًا، ولذا فقد جند بومغارتنر نفسه للعمل على تنظيم مجموعة قصائد آنا، وهو الشيء الملموس الذي أنجزه أثناء تلك الشهور الضائعة التي لا شكل لها، بما أن الكتاب قد نشرته في نهاية الأمر دار نشر صغيرة ولكنها محترمة ومن النوع الطليعي اسمها «ردوينغ برس» كان لها

(1) هنري ديفد ثورو Thoreau الكاتب الأمريكي الذي عاش في القرن التاسع عشر ويعد من أهم الكتاب الأمريكيين.

موزع قادر على بيع الطبعة الأولى في ثمانية عشر شهرًا ليقذف بقوة بعد ذلك بطبعة ثانية ثم ثالثة تتلوها بعد أربع سنوات. كانت الأرقام صغيرة بطبيعة الحال، لكن لأن الشعر لم يكن كوكبًا وإنما نيزك مصغر يجول في الفضاءات السماوية للأدب الأمريكي، فقد وجدت آنا مكانها الصغير الخاص بها في القبة المضيئة.

شعر بأنه كان يمكنها أن تكون هناك منذ فترة طويلة، لكن لسبب مجهول وغير مصرح به، لم يسبق لها أن بذلت أي جهد لنشر قصائدها. كان ذلك هو الشيء الذي لم يحر له جوابًا بصفة خاصة، ذلك أن آنا كانت شخصًا يذود عن نفسه وكانت تحارب من أجل ما تؤمن به، وتعرف جيدًا أن قصائدها جيدة. صحيح أن الشك واليأس كانا يعتادانها أحيانًا لكن أي كاتب أو فنان لم يعش في تلك المنطقة الرجراجة ما بين الثقة واحتقار الذات؟ الدليل هو في أنها طالما أرته قصائدها، ليس لأنه كان دائمًا يسألها عنها وإنما لأنها هي أرادت ذلك، إما بقراءتها بصوت عالٍ أو بإعطائه قصاصات تتألف من ستة أو سبعة نصوص، وكان المرة تلو الأخرى يعلق على عملها الجديد بالقول إنه حان الوقت لكي تنهض وتبدأ في النشر، لترد بهزة كتف تعبر عن الشك مضيفة «معك حق» أو «في يوم ما» أو «سنرى»، حسب مزاجها. وبناء على تلك التعليقات المقتضبة كان متأكدًا، أو شبه متأكد، من أنها لم تكن لتعترض على ما كان يفعله، بما أن «يومًا ما» قد وصل، والشاعرة التي تجيش إلى حد الفوران والتي عاش معها ما يقارب ثلثي عمره جديرة بأن يقرأها شخص ما أو عدة أشخاص غير كيس العظام الشائخة التي كانت زوجها.

أقدم القصائد التي قرر بومغارتنر ضمها كتبت في سبتمبر 1971، بعد أربعة أشهر من احتفال آنا بعيد ميلادها الحادي والعشرين وشهر من عودتها من الدراسة في باريس (وما بينهما صيفان في مدريد). صار عنوان ذلك العمل الأول عنوان كتاب بأكمله (ليكسيكون) «معجم: قصائد مختارة 1971-2008». لم تكن بأية حال أفضل القصائد، لكن بومغارتنر أحب مزاجية القصيدة وغرابتها، ضجيج الحيوية التي استطاعت بطريقة ما أن تكشف عن ذات آنا وروح عملها في آن. فوق ذلك كانت ذكريات شبابه قد تشربت هذه القصيدة، فهي لم تكتب فقط في ذات اللحظة التي كان فيها قد غرق في حبها، بل كانت أول قصيدة لها تقرؤها له بصوت عالٍ – وكانت عارية، جالسة بعد معاشرة رائعة على المفارش العارية المجعدة في بيته القديم المستأجر على شارع الثامن والخمسين غربًا.

معجم
كانت الزهرة من الصغر بحيث
لم يكن لها اسم
لذا سميت اكتشافي
«اللسين»
لكني أحسنت الظن بها فيما بعد
وسميت تلك النقطة الصغيرة
من الأحمر المشع المتقد

«كيف أنت يا سيدة دوليتل
وأين كنت تختبئين مؤخرًا؟»
بقدر ما كانت النقطة الحمراء زهرة
لم تجبني
ولذا لن أعرف
إن كانت أعجبت بالاسم الذي منحتها
أم لا. مضيت.
وحين عدت في الصباح التالي
لأرى إن كانت الزهرة قد نمَت أثناء الليل
كانت النقطة الحمراء قد اختفت.

إلى أين الآن يا سيدة دوليتل
وإن كنت لن تعودي أبدًا
هل من أحد يتفضل بإخباري
لماذا يبتسم لي ذلك الرجل الشيطاني الصغير عبر الشارع
بشيء أحمر لا يكاد يرى في فتحة قميصه
ويشع مثل كبريت مشتعل في الظلام.

يتعجب بومغارتنر بعد عشر سنوات من قلة ما شعر به من تغيير منذ تلك الأشهر الأولى التي اقترب فيها من الجنون. كان يتظاهر بعكس ذلك بطبيعة الحال، وبمجرد تمكنه من النهوض عن الأرض، والوقوف على قدميه، والمشي مرة أخرى، بدا له أنه شق طريقه عائدًا إلى عالم الأحياء. واصل التدريس. وبعد

شهر، بدأ يخطو تدريجيًا نحو عمله مرة أخرى، ثم الغوص فيه مرة أخرى، ليقود ذلك إلى كتاب ثم كتابين والآن كتاب ثالث – كتب أكثر مما أنتج في عقد سابق من حياته. تعمقت الصداقات القديمة، ولدت صداقات جديدة، وبعد سنة من هدوء العزوبية، اتسمت بفترات كئيبة من ممارسة العادة السرية تخيل أثناءها أنه في السرير مع آنا مرة أخرى، بدأ يطارد النساء لأول مرة منذ حوالي أربعين عامًا. مؤشرات حياة، أو علامات ظاهرة من الحياة شجعت أصدقاءه على الاعتقاد أن بومغارتنر وجد طريقة للمضي من دون آنا. حتى بومغارتنر نفسه يميل في الغالب إلى ذلك الاعتقاد، ولكن ذلك فقط لأن الأعضاء الصناعية التي ربطها بجسده الذي بلا أرجل ولا أذرع صارت مألوفة بالنسبة إليه حتى إنه لم يعد يلاحظ أنها موجودة. لكن تلك الأربطة المصنوعة من التيتانيوم ميتة لا تشعر بشيء على الرغم من فاعليتها وكل ما توفره للمصاب من عون.

تحطم كل شيء بالنسبة إليه في يوم احتراق القدر والسقوط من الدرج. حتى تلك اللحظة لم يكن قد أدرك عمق انفصاله فيما يتعلق بكل شيء له صلة بآنا، كيف أنه كان كل ذلك الوقت يدفعها بعيدًا عنه ويتمسك بها في الوقت نفسه، يطهر البيت من كل آثارها ويحتفظ بمكتبها مع ذلك دون مساس، موزعًا أكداس الملابس التي أعاد تخزينها وعلقها بعناية فائقة أثناء فترة الانهيار التي تلت موتها ومستبدلًا السرير، والفرن، والثلاجة، والطاولة والكراسي التي في المطبخ، وأثاث غرفة الجلوس، والملايات، والوسائد، والفوط، والآنية الفضية، والصحون، والزبديات،

والأكواب الصغيرة والكبيرة، وكؤوس الشرب، والأباريق، وآلة صنع القهوة، وآلاف الأشياء الصغيرة والكبيرة الأخرى في كل غرفة من غرف الطابق الأعلى والأسفل ما عدا واحدة، ومع ذلك، ومع أنه قلما ذهب إلى تلك الغرفة بعد ذلك، فإنها ما تزال في البيت معه، تختبئ في مكان ما قريب، أحيانًا قريب جدًا، لكن دائمًا وراء حدود بصره، ثم خرجت عليه فجأة في عصر ذلك اليوم الكئيب من أبريل بينما كان يجلس إلى طاولة المطبخ ينظر إلى غلاية البيض المسودة على الأرض، الشيء الوحيد الذي لم يكترث للتخلص منه، وبدلًا من أن يرحب بفرصة تتيح له التطواف بعيدًا مع آنا، ركلها بعيدًا، نافيًا إياها بوحشية وحماسة لا واعية إلى حد أنه صُدم بما فعل. ثم جاء مشهد العصفور أبي الحناء وهو يلتهم الدود في باحة المنزل، ثم جاء الانكسار، ذلك أنه فقط في تلك اللحظة، بعد تسع سنوات وثمانية أشهر من الصراع للعيش ما بين حالتين عقليتين متناقضتين ومدمر بعضهما لبعض، أدرك إلى أي حد أساء التعامل مع الوضع برمّته. أن تعيش هو أن تحس بالألم، وأن تعيش في خوف من الألم هو أن ترفض العيش.

بعد مضي شهرين نجده مدفونًا في مقالته حول متلازمة العضو الشبح التي اعتاد أن يطلق عليها متلازمة الشخص الشبح مع اتضاح التوافق المجازي له بصورة متزايدة. لا يدري إلى أين سيمضي بذلك في هذه اللحظة، ولديه شك في أنه سينهي المقالة أصلًا، لكنها في هذه اللحظة تلبي احتياجًا، وهو ما يمثل دافعًا كافيًا له للاستمرار بأبحاثه في خرائط المخ، وموصلات الإحساس، ودوائر الأعصاب، في محاولة لترجمة الألم العقلي

والروحي إلى لغة للجسد. يتذكر الأمهات والآباء إذ يحزنون على أطفالهم المتوفين، الأطفال الذين يحزنون على والديهم المتوفين، النساء اللاتي يحزن على أزواجهن المتوفين، الرجال الذين يحزنون على زوجاتهم المتوفيات وكيف يشبه ألمهم النتائج الناجمة عن البتر، الحزن على رجل أو ذراع مفقودة كانت يومًا جزءًا من جسد حي، والإنسان المفقود كيف كان مربوطًا بإنسان حي آخر، وإذا كنت أنت الحي، ستكتشف أن العضو المبتور، العضو الشبح منك، يمكن أن يظل مصدرًا لألم عميق ومغاير. يمكن لبعض العلاج أن يخفف الأعراض، لكن ليس ثمة علاج نهائي.

إنه منتصف الليل تقريبًا. مضت ساعة منذ تمدد بومغارتنر على السرير مهيأ للنوم لكنه لا يستطيع ذلك يتأمل في الظلام مقالته وإلى أين سيمضي في كتابته صباح الغد. لكن أفكاره تبدأ بالتفكك واحدة إثر الأخرى وتتفتت إلى أجزاء أصغر فأصغر، في حين ترتخي عضلات رقبته وكتفيه وتذوب في عضلات ذراعيه وساقيه وظهره. إنه نائم قبل أن يدرك ذلك. يتخيل أنه على حافة النوم ولذا لم يفقد الصلة بمحيطه. يدرك أن السرير الذي يستلقي عليه سريره وأن السرير في غرفته، والغرفة في بيته، البيت ذاته الذي عاش فيه مع آنا خمسة وعشرين عامًا ويعيش فيه الآن وحده. لقد توفيت في 16 أغسطس 2008، واليوم 20 من يونيو 2018، أو إن كان منتصف الليل قد حل فهو الحادي والعشرين من الشهر. يسمع بومغارتنر صوتًا في مكان ما من البيت، على الأرجح في واحدة من الغرف السفلية، أزيزًا خافتًا يستمر عدة ثوانٍ ثم يتوقف لثانية ليبدأ مرة أخرى عدة ثوانٍ،

ثم يتوقف لثانية، نبض متعاقب من الصوت يتبعه صمت يتبعه صوت، متتالية من الأصوات الأطول ولحظات الصمت الأقصر التي تمضي في تكرار يصل إلى عشر أو اثنتي عشرة مرة ثم يتوقف. هنا يكون بومغارتنر قد أشعل الإضاءة المجاورة للسرير، ترك السرير وغطى جسده العاري بروب الحمام. الأصوات غريبة بما يكفي لتستدعي التحقق، وحتى إذا كانت قد توقفت الآن فإن بومغارتنر يواصل السير إلى الطابق الأول مشعلًا الإضاءة في الصالة، ثم يهبط الدرج، مشعلًا الإضاءة في القاعة السفلى ثم في غرفة الجلوس حيث يتبين له أن المكان خالٍ من أي سبب للانزعاج، ثم ضوء المطبخ حيث كل شيء كما تركه تمامًا حين صعد إلى الطابق الأعلى عند العاشرة، حتى الإبريق المزركش والمملوء بالماء في المغسلة، الإبريق الذي تركه ينقع طوال الليل قبل معالجته مرة أخرى في الصباح.

أخيرًا هناك مكتب آنا التي خشي بومغارتنر أن تكون عرضة لاقتحام أو لألوان أخرى من السوء بسبب الباب الزجاجي الذي يفتح مباشرة على الفناء الخلفي. مهما قلّت المرات التي يذهب فيها إلى تلك الغرفة بنفسه هذه الأيام، فإن السيدة فلوريس تمضي إليها مدة ثلاثين أو أربعين دقيقة كل ثلاثاء لكنسها ومسحها ونفض الغبار عنها، متبعة بدقة تعليمات بومغارتنر للحفاظ على المكان نظيفًا وفي أعلى مستويات الترتيب. حين يضيء بومغارتنر نور السقف يشعر بالارتياح أن الباب المطل على الفناء الخلفي مغلق وأن الزجاج لم يكسر. أكثر من ذلك يبدو كل شيء داخل الغرفة في مكانه الصحيح. لكن بومغارتنر، نتيجة

تيقظه الآن وتراجع شعوره بالتعب، يفضل البقاء حيث هو بدلًا من العودة إلى الطابق الأعلى والزحف إلى السرير - فقط للتأكد من أن كل شيء في مكانه.

لا تزال آلة آنا الكاتبة رابضة على لوح الخشب الماهوغني الناتئ عن المكتب. أقلام رصاصها وأقلامها الأخرى لا تزال متراصة في كوب متحف نيويورك للفن الجالس على بعد إنشات شمال النشافة الخضراء. الشيئان اللذان كانت تستعملهما للإمساك بالورق ما زالا على النشافة نفسها، أحدهما في الزاوية العلوية اليسرى والآخر في الزاوية اليمنى: كتلة من الكونكريت غير المتناسق المجتزأ من جدار برلين الذي أعطاها إياه صديق ألماني عام 1989؛ شظية خشنة من الحفريات التي تعود إلى أكثر من مليون سنة كانت قد ركلتها مصادفة من الأرض أثناء رحلة عبر إقليم أرديش في الجنوب الأوسط من فرنسا. ثم هناك هاتفها الأحمر الذي لا يزال جالسًا في مكانه إلى الجنوب الشرقي من النشافة، مع أن الخدمة قد انفصلت عن ذلك الخط الخاص وأن الهاتف لن يرن مرة أخرى.

ما تزال الخزانة مركومة بصناديق ترجماتها، ولا تزال مخطوطاتها في الأدراج التي تصطف آخر الحائط إلى يمين المكتب. إلى جانب أدراج الملفات رف خشبي، ثلاثة أرفف على ارتفاع خمسة أقدام تعلوه كتب متراصة تكاد تسقط، يوازي الارتفاع أسفل بطن بومغارتنر الذي يتجاوز طوله الستة أقدام، بينما يصل إلى وسط آنا ذات الخمسة أقدام وثمانية من عشرة. إلى جانب رف الكتب في الزاوية القريبة من الحائط

جهازُ الفاكس الذي لم يفصل، يغفو بصمت أعلى طاولة الطباعة بجناحيه مطويين، يتدلى كل واحد منهما موازيًا لساقيه. وفوق هذه الأشياء الثلاثة، على الأرض، كانت الأجزاء العليا من الحائط مغطاة وبكثافة بأشياء مؤطرة وأخرى غير مؤطرة، لم يُعبث بشيء منها أو يُحرك، عشرات اللوحات والرسومات الصغيرة من عمل أصدقاء مختلفين، بورتريهات وصور لنماذج محبوبة تحتذى (من بينهم إيميلي ديكنسون وإيما غولدمان). وكانت هناك ترجمة آنا التي فازت بجائزة الترجمة من نادي القلم الدولي (PEN) لترجمتها مختارات من قصائد فيرناندو بيسوا، مشهد ثابت من فلم بلوند كريزي لجوان بلونديل وهي تلكم جيمس كاغني على فكه، ورقة مربعة ومؤطرة من كراسة رسم كتبت عليها كلمات من عبارة وردت في آخر لجوان بلونديل عنوانه «ديمز» تقول: «لدي سبعون سنتًا والملابس التي أقف فيها - لكن ما تزال هناك حياة في الفتاة الكبيرة»، والغلاف الأصلي لكتاب بومغارتنر المنشور الأول الذات المتجسدة (1976)، إلى جانب سلسلة من الصور الملتقطة في أكشاك التصوير للاثنين متعانقين ويقبلان بعضهما بجنون في إحدى لقاءات العشق الأولى بينهما.

يبتسم بومغارتنر لمرأى الأولاد المتعطشين للجنس في تلك الصور المحببة، باللونين الأبيض والأسود، ثم في نشوة مسرحية يحني رأسه وفاءً لوطن الشباب الذي ولى. يشعر بالسعادة أن لا شيء قد أحدث ضررًا، أن الجدار والغرفة وكل الغرف الأخرى لا تزال كما كانت عندما صعد إلى سريره لينام. ومن ناحية أخرى، إن لم يكن أحد قد دخل البيت، فما تفسير تلك الأصوات الغامضة

التي دفعته لترك سريره والنزول إلى غرفة الطابق السفلي؟ هل من الممكن أن الأصوات كانت تأتي من البيت المجاور؟ هل من المحتمل أن الأمر لم يزد على تخيلاته هو؟ لقد كان في نهاية المطاف يتحرك في المنطقة الحدودية بين اليقظة والنوم، وفي تلك الحالة من التأرجح بين النوم واليقظة حين يكون الذهن سيركًا ذا ثلاث حلبات لصور غريبة من الهلوسة، ربما يكون قد سمع الصوت نتيجة الهلوسة. يرى أن ذلك ليس محتملًا إذا أخذ في الاعتبار أن الأصوات التي سمعها مركبة، لكن ليس فيما يتجاوز منطقة الاحتمال.

يجلس بومغارتنر في الكرسي الذي خلف المكتب. وفي اللحظة التي يضع نفسه في وضع مريح، يرن الهاتف. الهاتف الأحمر. الهاتف المفصول الذي لا يمكن له أن يرن ها هو ذا يرن ويواصل الرنين.

مع شعوره بالرعب والفضول يدرك بومغارتنر أن الأصوات القادمة من الهاتف الذي يرن هي نفس الأصوات التي سمعها حين كان مستلقيًا في السرير في الطابق الأعلى، نفس السلسلة التي تراوح بين وقفات طويلة وأخرى قصيرة من الصوت والصمت، ضعيفة ومرتبكة في الطابق الثاني ولكنها عالية وواضحة في الطابق الأول، وإن كان ذلك هو الحاصل فإن الشخص المشاغب أو الوكيل الخفي الذي اتصل في البداية هو من يتصل الآن.

يرفع بومغارتنر السماعة ويغامر بآلو حائرة ومترددة — آلو مرفقة بعلامة استفهام. يتلو ذلك صمت يقول لنفسه أثناءه أنه يحلم بالتأكيد، مع أنه صاحٍ ومن غير الممكن أنه يحلم، ثم إنها

آنـا تحدثـه، تحدثـه بـذات الصـوت الرنـان الـذي تملـك حيـن كانـت حيـة، تخاطبـه بـ «حبيبـي» و«رجلـي الحبيـب»، موضحـة لـه أن المـوت ليس كمـا توقعـه أحـد، أنهمـا، هـو وهـي، وكل الماديين كانـوا مخطئين حيـن افترضـوا أنـه لا حيـاة بعـد المـوت بـل إن الحيـوات الأخرويـة لـدى المسـيحيين واليهـود والمسـلمين والهنـدوس والبوذييـن، أنهـم جميعًـا قـد أخطـؤوا فـي فهمهـا. ليـس هنـاك عقوبـات أو مكافـآت مقدسـة، ليـس ثمـة صـور يُنفـخ أو نيـران جحيـم، لا عرائش مـن النعيـم السـماوي ولـن يعـود إنسـان إلـى الأرض فـي صـورة فراشـة أو تمسـاح أو متجسـدًا بصـورة مارليـن مونـرو أخـرى. مـا يحـدث بعـد المـوت أنـك تدخـل فـي «التيـه العظيـم»، فضـاء أسـود لا يُـرى فيـه شـيء، فـراغ مـن العـدم الـذي لا صـوت فيـه، نسـيان الفـراغ. ليـس ثمـة اتصـال بميـت آخـر، ولا سـفير مـن الأعلـى أو الأسـفل يأتـي ليخبـرك عمـا سـيحدث لاحقًـا. لذلـك ليـس لديهـا أي فكـرة إلـى أي مـدى سـتظل فـي وضعهـا الحالـي، إن كان لكلمـة «حالـي» أي معنـى فـي مـكان كهـذا، وهـو ليـس حتـى بالمـكان وإنمـا هـو لا مـكان، عـدم فـارغ مشـتق مـن عـدم لا نهايـة لـه. إنهـا لا تـرى شـيئًا ولا تسـمع شـيئًا لأنهـا لـم تعـد تملـك جسـدًا أصـلًا، ليـس هنـاك «امتـداد» كمـا اعتـاد الفلاسـفة القدمـاء أن يقولـوا، مـا يعنـي أنهـا لـم تعـد تتعـب أو تجـوع أو تشـعر بـأي ألـم أو سـرور أو أي شـيء مطلقًـا، لربمـا لـم تعـد أكبـر مـن جـزيء نـووي، الجـزء الأكثـر صغـرًا مـن «الماهيـة» الكونيـة. فليسـمها «مـاذا» -إن شـاء- أو روحًـا، أو انبثاقًـا للمحيـط الهائـل الـذي لا شـكل لـه، أو، ببسـاطة، عنصـرًا وجوديًـا يفكـر، وحيـن تفكـر يحـدث أحيانًـا أنهـا تـرى الأشـياء التـي تتخيلهـا، تراهـا بوضـوح بعيـن

عقلها، إن كانت لديها أشياء مثل العقل أو العين، وهي لا تملكها، ولكنها مع ذلك تستطيع أن تراها بوضوح، وضوح يقارب ما كانت تستطيعه حين كانت حية على الأرض.

يصمت بومغارتنر. يريد أن يتحدث، يريد أن يحكي لها مئة شيء ويسألها مئات الأسئلة، لكن يبدو أنه فقد المقدرة على فتح فمه والتحدث. يقول لنفسه: لا يهم. يمكن للمحادثة أن تنتهي فجأة في أي لحظة، ولماذا الحرص على الحديث ما دام أن كل ما يريده هو الاستماع إلى صوت آنا إلى أن ينتهي الوقت وتختفي في الظلام مرة أخرى؟

تقول إنها غير متأكدة من أي شيء، لكنها تظن أنه هو الذي يمنحها القدرة على الاستمرار في هذه الحياة الأخروية غير المفهومة، هذه الحالة العجيبة من الوعي وعدم الوعي، التي تشعر أنها لا بدّ أن تصل إلى نهاية وستصل إلى تلك النهاية، لكن طالما هو على قيد الحياة وقادر على التفكير فيها، فإن وعيها سيستمر توقظه المرة تلو الأخرى أفكار بومغارتنر بالقدر الذي يمكنها أحيانًا من الدخول في رأسه والاستماع إلى أفكاره ورؤية ما يرى بعينيه. إنها لا تدري كيف يحدث ذلك، ولا هي تدري كيف يمكنها التحدث إليه الآن، لكن الشيء الوحيد الذي تعرفه هو أن الأحياء والأموات متصل بعضهم ببعض، ويمكنهم أن يظلوا متصلين بعد موتها بالعمق الذي كان حين كانت حية، ذلك أنه لو مات أحدهما قبل الآخر يمكن للحي أن يبقي الميت في حالة من التعليق المؤقت ما بين الحياة واللاحياة، لكن حين يموت الحي أيضًا، فإن تلك هي النهاية، حيث ينطفئ وعي الميت إلى

الأبـد. تتوقـف آنـا لبرهـة لتسـترد أنفاسـها، وبعـد أن تتنفـس مـرة أخـرى تسـأل للمـرة الأولـى منـذ أن رفـع السـماعة: هـل يجـد فـي مـا سـمع منطقًـا؟ قبـل أن يجيـب بومغارتنـر تتوقـف أنفـاس آنـا، وتتوقـف كلماتهـا، وينقطـع الاتصـال.

3

بعد أن يحلم بومغارتنر ذلك الحلم يبدأ شيء ما يتغير فيه. يدرك تمامًا أن ذلك الهاتف لم يرن، أنه لم يسمع صوت آنا، أن الأموات لا يستمرون في وضع من **اللاوجود المحسوس**، ومع ذلك فمهما كانت محتويات ذلك الحلم غير حقيقية، فقد عاشها كما لو كانت حقيقية، والأشياء التي عاشها في نومه تلك الليلة لم تغادر أفكاره كما تغادر معظم الأحلام. مرت ستة أيام منذئذٍ. وعلى الرغم من قصر تلك المدة فإن بومغارتنر يشعر كما لو أنه ألقي به في فضاء داخلي جديد وأن ظروف حياته تغيرت. لم يعد محاصرًا في غرفة تحت الأرض لا نوافذ فيها ولكنه في مكان ما فوق الأرض، قد يكون لا يزال عالقًا في غرفة، لكن لهذه الغرفة على الأقل شباكًا له قضبان أعلى الجدار الخارجي، ما يعني أن الضوء يتدفق داخلها أثناء النهار، ولو تمدد على الأرض ووضع رأسه في الزاوية الصحيحة، سيمكنه النظر إلى أعلى ويدرس السحب وهي تطفو في السماء متجاوزة إياه. تلك هي قوة المخيلة، يقول لنفسه. أو ببساطة شديدة هي قوة الأحلام. بنفس الطريقة التي يمكن بها للشخص أن يتحول بفعل الأحداث المتخيلة التي ترويها حكاية، فقد تحول بومغارتنر بفعل الحكاية التي حكاها لنفسه في الحلم. ولو أن الغرفة التي بلا نافذة الآن صارت بها نافذة، فمن يدري لو أنه ذات يوم ليس بعيدًا جدًا اختفت القضبان واستطاع أن يزحف إلى الفضاء المفتوح.

من غير المعقول أن يظن أن أفكاره هي التي تمكن آنا من البقاء في صورة غير متجسدة، صورة أثيرية في العالم الأخروي، أن محافظته على بقائه حيًا على الأرض سمح لها بالاستمرار في التواصل معه من مكانها الدون ذرّي في التيه العظيم، لكن إذا أخذ في الاعتبار أنه كان مؤلف تلك السخافات هو نفسه، فإنه لا يستطيع أن يتجاهلها بسهولة أو يتظاهر أنها لم تمنحه بعض الراحة الروحية، ذلك أن الحقيقة هي أنه لم ينقطع عن التواصل مع آنا منذ اليوم الذي غرقت فيه، وإذا كان الآن قد اصطنع عالمًا بديلًا يمكنها فيه أن تعتقد أنه يفكر فيها، فمن يستطيع القول إن لا حقيقة في ذلك؟ ليست حقيقة علمية، ربما، ليست حقيقة يمكن إثباتها، لكنها حقيقة عاطفية، الحقيقة الأهم في نهاية الأمر - ما يشعر به هذا الرجل، وكيف يشعر تجاه تلك المشاعر. إن س. ت. بومغارتنر، المؤلف المشهور لتسعة كتب والعديد من الأعمال الأقصر حول مسائل فلسفية وجمالية وسياسية، عضو هيئة التدريس المحبوب في برنستون على مدى الأربع والثلاثين عامًا القادمة، الظاهراتي المسن الذي أمضى حياته في العالم المحسوس، المسافر الوحيد الذي يخوض حتى المنتصف في المستنقعات الأنطولوجية الغامضة من الإدراك الإنساني، وجد الدين أخيرًا. أو ما يمكن أن يسمى دينًا في رجل لا ينتمي إلى دين ولا يؤمن بشيء ما عدا الالتزام بطرح أسئلة جيدة حول معنى أن يكون المرء حيًا، حتى إن علم أنه لن يصل أبدًا إلى إجابة.

بعد ستة أيام تختفي قضبان الشباك. قبل أن يدرك كيف يمكنه الصعود وتمرير جسده عبر الفتحة تختفي جدران الغرفة

أيضًا، ويجد نفسه واقفًا في العراء. إنه في مرج في مكان ما وسط الريف، بلا منازل أو أعمدة هاتف أو أي آثار للوجود البشري حوله. يحيط به عشب يغطي قدميه من كل الجهات، والسماء الرمادية فوقه مملوءة بسحب متراكمة تزداد سوادًا. ينذر المطر بالهطول خلال دقائق. يدخل يديه في جيبه ويبدأ السير.

هكذا يعيد بومغارتنر إذًا اكتشاف متع التحرك الحسية التي تبعث النشاط، ذلك الفعل البسيط المتمثل في وضع قدم أمام أخرى والاندفاع عبر الفضاء، بينما جسمه متوازن في الإيقاع المتسق مع نبضات قلبه، مع رئتيه في التمدد والانقباض، وحركة الرجلين من اليسار لليمين ومن اليمين لليسار، وما إن يبدأ بالخطو في الأيام التالية، يشعر بثقة ذاتية تتعاظم وهو يواصل التجوال في المرج الداخلي الممتد أمامه. لا يهم إن كانت خطوته أبطأ مما كانت عليه في الماضي، ولا يهم إن بلله المطر أحيانًا أو سفعته الريح القاسية بحدتها وهي تهب من الشرق، فهو منتصب ومندفع، والآن وقد انسجمت إيقاعات قلبه ورئتيه وساقيه لتحمله قدمًا للرحلة الطويلة، فإن ذلك يعني أن بومغارتنر قد حقق في الوقت نفسه وضوحًا ذهنيًا، وحسًا مستقويًا حيال مستقبله بالقدر الذي يجعله يدرك الآن أن عليه تفعيل ذلك المستقبل - وإلا. إنه في السبعين من عمره وقد انتهى زمن التردد.

أحد الأمور التي تتضح له هي أن التقاعد قد حان. سينسحب من مهام التدريس ويضع نفسه في الوضع المهيب وإن كان بلا معنى، أي أن يكون أستاذًا متقاعدًا متخليًا عن وظيفته في القسم لدماء جديدة من الجيل القادم. سيضع نفسه في نوع من التيه

لكن ليس النفي التام، لأنه سيسمح له بالاحتفاظ بعلاقته بالجامعة بحقوق كاملة في استخدام المكتبة والاستمرار في استخدام بريد برنستون الإلكتروني الخاص به. صداقاته العديدة مع زملائه من الأقسام المختلفة ستستمر كالسابق، وسيستمر في حضور المحاضرات، والمناقشات، والاجتماعات غير الرسمية حين يتحمس لحضورها، لكن كل الجوانب الثقيلة من عمله ستختفي فجأة وسيرتاح منها: لا اجتماعات مزعجة للجان، ولا جدالَ مع الطلاب حول علاماتهم، ولا سخفًا بيروقراطيًا. بتعبير آخر، ستكون حياة مستقلة وغير مقيدة - بدخل شهري من التقاعد مساوٍ تقريبًا إن لم يفق الراتب الذي كان يتقاضاه أثناء الوظيفة. كتاب جديد أخذ في التشكل على مدى الأشهر الأخيرة، مشروع خيالي وغريب لا يشبه أي شيء حاوله في الماضي، خطاب شبه كوميدي، شبه متخيل، حول الذات في علاقتها بالذوات الأخرى عنوانه **أسرار العجلة**، ويريد أن يكرس له كل ما يمكنه من الوقت، فالوقت صار أساسيًا الآن ولا يدري كم تبقى له منه الآن. ليس فقط كم سنة تبقت قبل أن تصل النهاية، وإنما كم سنة تبقت من الحياة النشطة المنتجة قبل أن يبدأ ذهنه أو جسده أو كلاهما بالضعف ويتحول إلى عاجز معاق ومثقل بالألم، لا يستطيع القراءة أو التفكير أو الكتابة، أو أن يتذكر ما قاله له أحد قبل أربع ثوانٍ، أو أن يفقد القدرة على استنهاضه، وهو رعب لا يود أن يتخيله. خمسة أعوام؟ عشرة؟ خمسة عشر عامًا؟ الأيام والأشهر تعبره بسرعة أكبر الآن، ومهما يكن الوقت المتبقي له سيمرق في لمح البصر. كم سيكون بائسًا أن يئن تحت وطأة القيد الأكاديمي،

منكبًا على مكتبه يدون تعليقات على هوامش بحث آخر لطالب آخر. لا، يجب ألا يحدث ذلك، وحين تأتي النهاية، فليته يُمنح على الأقل من الكرامة ما يجعل قلبه يتوقف وهو يدفع بجملة أخيرة، لعلها تكون الكلمات الأخيرة من «تبًا لكم» عالية يوجهها إلى المجانين المتعطشين للسلطة، أولئك الذين يحكمون العالم. أو، ربما أفضل من ذلك، أن يتخلى عن الشبح أثناء مشيه في الشارع متجهًا إلى موعد في منتصف الليل مع المرأة التي يحب.

اسمها جودث، وهذا هو الأمر القادم الذي قرر بومغارتنر أن يوليه اهتمامه حالًا - هذا الأسبوع، هذه اللحظة، الآن. أخيرًا جعل الحلم هذا ممكنًا، بعد عامين من الحميمية المتنامية معها، بعد التخلص المفاجئ من سيطرة آنا عليه، بعد عقد من التعذيب الذاتي الذي حال بينه وبين الوقوع الكلي في أحد الارتباطات التي ائتلفت بينه وبين الأرامل والمطلقات اللاتي دخلن حياته وخرجن منها في السنوات الفاصلة ما بين آنا وجودث. لكن هذه المرة مختلفة. لقد وقع هذه المرة في الحب، وهو مهيأ هذه المرة لمحاولة زواج، إن قبلته طبعًا، وهو أمر لا يمكن الجزم به لكنه يبدو أكثر احتمالًا - كما يأمل.

الآن جودث، لكن فقط لأن الحلم قاده إلى منعطف جديد في علاقته بطيف آنا، ما مكنه من أن يعود إلى غرف الماضي دون خوف من أن يغلّق فيها مرة أخرى. وبما أنه عاد الآن لزيارة تلك الغرف وخرج منها مرة أخرى، فهو مستعد لتكريس قواه بالكامل للوقت الحالي، أي لجودث، ما يعني أيضًا أن الحاضر الذي يفكر فيه بومغارتنر سيصير مستقبلًا بالضرورة – طالما أن الإجابة هي نعم وليست لا.

لأنـه توقـع هـذه اللحظـة، هـذه «الآن»، أمضـى معظـم الأسـابيع الثلاثـة الماضيـة غارقًـا فـي عالـم الـ «عندئـذٍ»، يتأمـل، يتذكـر، ويتجـول بيـن الأربعيـن عامًـا مـا بيـن لمحتـه الأولـى لآنـا حيـن كانـت فتاة فـي الثامنـة عشـرة ولمحتـه الأخيـرة لهـا وهـي امـرأة فـي الثامنـة والخمسـين ميتـة علـى الشـاطئ. الغريـب أنـه لـم يشـعر بالوحـدة. كانـت آنـا إلـى جانبـه، وطـوال الرحلـة كانـا يسـيران معًـا، يتحدثـان معًـا، يسـتمع كل منهمـا إلـى الآخـر ويتحـدث إليـه بينمـا همـا يتمشيان داخـل الغـرف وخارجهـا وفـي الممـرات السـفلية مـن قصـر الذاكـرة، الممـرات المضـاءة إضـاءة خفيفـة، يعـودان إلـى مئـات الأشـياء الكبيـرة والصغيـرة التـي حدثـت لهمـا طـوال تلـك الأربعيـن عامًـا. لا حاجـة إلـى القـول إنهـا لـم تكـن معـه جسـديًا ولكنـه مـن خـلال رسـائلها ومخطوطاتهـا للمـرة الأولـى، منـذ مـدة لا يعلمهـا إلا الله، وجـد صوتهـا مـرة أخـرى وبتأمـل صورهـا التـي لا تحصـى، الصـور التـي التقطهـا لهـا هـو وغيـره طـوال حياتهـا، وجـد جسـدها مـرة أخـرى. ليـس جسـدها الحقيقـي بطبيعـة الحـال ولا صوتهـا الحقيقـي - ولكـن مـا هـو قريـب منـه. إنهـا قـدرات تذكـر مُنحـت لرجـل اسـتمع إلـى صـوت زوجتـه الميتـة وهـي تحدثـه عبـر الأسـلاك المقطوعـة لهاتـف معطـوب.

مـن الصنـدوق الموجـود فـي الـدرج السـفلي مـن دولاب الملفـات: نـص أخيـر لآنـا حـول حياتهـا، كُتـب قبـل أقـل مـن سـنة مـن وفاتهـا لكنـه يعـود إلـى مـاضٍ بعيـد ليـروي قصـة الكيفيـة والدوافـع والظـروف التـي نطـق بومغارتنـر فيهـا سـؤال الـزواج – فـي السـاعات المبكـرة جدًا مـن تلـك الليلـة المشـحونة مـن نوفمبـر 1972 التي كان يمكـن أن تكون نهايـة آنـا لكنهـا لـم تكـن.

احتراق عفوي

كنت قد أحببت سي في الوقت الذي تخرجت فيه في الجامعة. لم يكن هناك أحد آخر كنت معنية به بأي صورة من الصور، أي إن قلبي كله كان بيديه، ولأن سي أحبني بقدر ما أحببته، كان قلبه كله بيدي، الأمر الذي سمح لنا أن ننظر إلى نفسينا على أننا زوجان، ثنائي من الانعزاليين العشاق اللذان تطابقت رؤاهما في كل شيء مهم ولم تكن لديهما نية في الافتراق. على الرغم من هذه الأمور المؤكدة، لم يخطر ببالنا أن نعيش في بيت واحد، ولم يحدث أن أحدنا يومًا نطق بكلمة «زواج». كنا أصغر سنًا من أن نخطط، أكثر تنقلًا من تكون لدينا أفكار واضحة حول المستقبل، وكلما تمكنا من التفكير حول شيء قادم، أشك في أن تلك الأفكار ذهبت إلى أبعد من الأسابيع أو الأشهر القليلة التالية. بالنسبة إلى سي الذي لم يكن قد بلغ بعد الخامسة والعشرين، كان المستقبل يعني الانتهاء من أطروحته حول ميرلو بونتي[1] في منتصف الربيع والحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة يقرر بعدها ماذا سيفعل بعد ذلك. بالنسبة إليّ فقد بلغت للتو الثانية والعشرين، كان المستقبل الاستمرار في أشعاري الصغيرة الغامضة والتأقلم مع متطلبات أول وظيفة لي بدوام كامل التي تقاضيت منها سبعة وثمانين دولارًا وخمسين سنتًا في الأسبوع.

---

(1) فيلسوف فرنسي معاصر كان من فلاسفة الفينومينولوجيا أو الظاهراتية.

كانت «هلر بوكس»[1] مشروعًا جديدًا حينئذٍ، لم تولد بعد في صورة دار نشر أدبية مكتملة. كانت تبحث هنا وهناك عن العناوين الأولى التي تنشرها في الخريف. كانت الميزانية محدودة، محدودة إلى درجة أننا كنا ثلاثة فقط نعمل مع مورِس هلر ذي الثمانية والعشرين عامًا في ذلك الصيف – محرر رئيس، مدير إنتاج، وأنا، الأصغر بين الفريق، أقوم بعمل مزدوج بوصفي محررًا أصغر ومساعدًا شخصيًا لمورِس، الذي وظفني لأن الروايات المترجمة كانت جزءًا أساسيًا من البرنامج وكنت متمكنة من الفرنسية والإسبانية. كانت مرتباتنا جميعًا في القاع، وكنا ننتقل كل صباح إلى مكتب متواضع على شارع ويست برودوي السفلي، على مسافة عشر بلوكات إلى الشمال من موقع بناء مركز التجارة العالمي و تمامًا في منتصف الحي المعروف بتريبيكا، الذي كان عندئذٍ لا يزال بلا اسم. «مثلث تحت القناة». منطقة محايدة من مباني القرن التاسع عشر الصناعية حيث أقام عدد قليل متناثر من الفنانين علّيّات[2] وكل شيء يمضي في الظلام بعد الخامسة، لكن الإيجارات كانت منخفضة هناك في أوائل السبعينيات، الأقل في أي مكان من مانهاتن السفلى وكان على مورِس أن يبلغ بالصرف أقصاه.

بعد خمسة وثلاثين عامًا، يمكنني أن أرى أربعتنا يكدون على مكاتبهم في تلك الغرفة المتوسطة إلى كبيرة في الحجم والمحاطة برفوف كتب معدنية ودواليب على الحيطان الثلاثة،

(1) "كتب هلر" أو Heller Books.
(2) غرف صغيرة في أسطح البنايات.

مع عليّة مجردة قديمة ولا شيء فيها، لها سقف معدني وأرضية خشبية متشظية، لا تكييف ما عدا ثلاثة شبابيك ضخمة ممتدة على طول الحائط المواجه للشارع؛ ما أبقانا قادرين على تلقي كثير من الضوء، وحين كان الحر يزداد في الداخل أثناء الصيف، وهو ما كان يحدث دائمًا، لم يكن هناك ما يمكن فعله ما عدا الالتفات إلى المراوح القاعدية الثلاث ذات القوة الصناعية ثم الانتظار لكي يهب تيارها الذي ينكث الشعر كل 5.2 ثوانٍ. فترة راحة من عرق يوم صعب، لكن أي تشريك شنيع تحدثه تلك المراوح للأجزاء العليا من شعر الفتاة، لذا مشيت نحو محل مصففة الشعر في أول سبت إجازة وأريت المصففة صورة لجين سيبرغ في فلم **بريثلس** [حالة لهاث]، وأخرى لأودري هيبورن في **رومان هوليدي** [عطلة رومانية]، وأخبرتها أن تقسم الفرق بين الاثنين. وهكذا قصرت خصلات شعري، وحين قال لي سي كم كان منظري خطِرًا بتلك القَصة الهزيلة، احتفظت بها وصرت أمشي بشعر قصير منذ ذلك الحين.

بالنظر إلى عنواننا وسط المدينة، كان من المنطقي أن أسكن في مكان يمكن الانتقال منه إلى المكتب مشيًا، وكان الأفضل أن يكون ذلك في ما دون الشارع الرابع عشر، لكن في ذلك الحي كانت حتى أقذر مصائد الفئران تتجاوز إمكانياتي المادية. بعد ثلاثة أسابيع من البحث المضني، كان أفضل ما استطعت الحصول عليه البقاء في «مرتفعات مورننغسايد»، الأماكن التي كنت أرتادها على مدى الأعوام الأربعة الماضية وجزءًا من المدينة جاهدت لكي أتركه، لكن صديقة من كلية بارنارد كانت

ستترك شقتها في شارع كليرمونت فحللت محلها، مشتركة في تلك الحفر الكبيرة والقبيحة مع ثلاث فتيات، اثنتان منهن طالبات دراسات عليا في كولومبيا والأخرى ممثلة صاعدة حزينة وضعيفة الأمل كانت تعمل نادلة في مطعم في برودوي على بعد بلوكات قليلة إلى الجنوب. ما أسعدها. وظيفة تمشي لها على الأقدام من حيث تقيم. في تلك الأثناء كنت أتحرك جيئة وذهابًا على الـ آي آر تي بين شارعي 116 وتشيمبرز خمس مرات في الأسبوع، نحو سبعة أميال في كل اتجاه وما يقارب الساعتين من التنقل يوميًا. كانت الوظيفة تستحق المحاولة، كما شعرت، لكن الشقة كانت مقرفة، مزيلة متهالكة مملوءة بالحشرات في حي متهالك يزحف فيه الساقطون وجيش من المجانين الذين لفظتهم الشوارع حين أغلق مستشفى الأمراض العقلية أبوابه. كان زمنًا قاسيًا كثير المطبات في عاصمة العالم، أي مدينة المتعة. كانت نيويورك تقتلع نفسها حجرًا حجرًا. كانت الحياة العامة تجف وكانت الأعداد تتزايد من أسبوع إلى آخر – مزيد من السرقات، مزيد من جرائم القتل، من التهديد، ومن الاغتصابات. مع ذلك العدد الكبير من المدمنين يلاحقونني في المنطقة التي أقيم فيها، كنت أشد قبضتي بسرعة كلما مشيت بالقرب من تلك الفزاعات المدمنة ذوي الأعين الضيقة، أتساءل إنْ كان دوري قد جاء لأرى إحدى تلك المطاوي مسحوبة باتجاهي بينما يعلن صوت يرتجف أن ترقوتي ستقطع إن لم أعطه هذا الشي أو ذاك الشيء أو كل الأشياء التي أحملها حالًا.

كانت هناك -لحسن الحظ- فرص للهرب، وطوال تلك الأشهر الأولى التي كنت فيها فتاة عاملة وفي مرحلة الدراسات العليا، أمضيت نحو نصف الليالي في لقاء حميم بـ سي. لكن لا، فحتى لو أردنا أن نقيم معًا في تلك الفترة، وهو ما لم نفعل، فلم يكن من الممكن أن يحدث ذلك في مكان كالذي كنت فيه. المكان الذي أقام فيه محبوبي تكون من غرفة واحدة فقط وفي حين افتقرت تلك الغرفة إلى فضاء لشخص واحد وهو مرتاح بقدر معقول، فإن الإقامة الطويلة لشخصين كانت غير مطروحة أصلًا. تخيل الزوجين السعيدين يتشاركان شقة هي استديو مكركب له شباكان قذران يطلان على جدار من الطوب، على حشيّة إسفنجية تعتمد على تسعة أقفاص للحليب ليكون ذلك سرير الزوجية، مكتب واحد وكرسي واحد لشخصين يقضيان معظم وقتهما يكتبان، أحدهما محرر أصغر، ورف مثقل يتسع لستة كتب، مطبخ صغير له مغسلة معدنية سطحية، موقد بعينين بلا فرن، وثلاجة صغيرة محشورة في المكان الذي كان ينبغي للفرن أن يكون فيه، طاولة قزمة للأكل، معها كرسيان بلا ظهر كانا متروكين تحت الطاولة لعدم الاستعمال، دولاب بقضيب أفقي للتعليق وصندوق متقرفص بأدراج تحت المعاطف المتدلية وأطراف القمصان، وأخيرًا حمام يتسع لحوض استحمام تقليدي بأقدام مخلبية ومساحة تكفي لملء الجدران بعدة أبراج إضافية من الكتب. لم تكن لدى سي أي أوهام حول موقعه في الدور الثالث واعترف بسرعة بأن المكان «أسوأ مما يمكن التعبير عنه»، لكني أمضيت هناك بعضًا من أسعد ساعات حياتي، وكلما عدت إلى الوراء، فإن أكثر ما أتذكر

هو نحن الاثنان نتقافز في كل مكان في لحظات حميمية تجمعنا نوبات منتشية من الحب، أو حين أصحو باكرًا للإسراع إلى العمل بينما لا يزال سي نائمًا بالشعر الشعث والعينين الرائعتين، رفيقي، صديق المعاشرة، صاحب النكتة، الرفيق المخلص على الدرب الطويل القادم، ولأنني كرهت أن أتركه دون توديع، فقد اعتدت أن أبخر الجو فوق جسده بنصف دزينة من رشات عطري الزنبقي لكي يبقى جزء مني معه حين يفتح عينيه.

جاءت بعد ذلك ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من نوفمبر، عشية عيد الشكر والذكرى التاسعة لمقتل كينيدي في دالاس. بعد يوم طويل أكثر من المعتاد في العمل، اقترح مورس فكرة تناول العشاء قبل الإجازة مع فريق العمل في مطعم فرنسي في «الفلج»[1]. اتضح أن المناسبة مليئة بالضجيج والانشراح استمرت من ثلاث إلى ثلاث ساعات ونصف، وما إن أنهت الفرقة الصغيرة من المحاربين الأدبيين المبتهجين شرب القطرات الأخيرة من الكونياك، اتجهت إلى محطة القطار الأرضي في ساحة شيريدان وفي محفظتي سبعة دولارات وبعض النقود المعدنية، متسائلة إن كان علي أن أستقل القطار الأرضي المحلي حتى محطة الشارع 116 أو أنتقل إلى القطار السريع عند الشارع 14 ثم أعود إلى القطار المحلي عند الشارع 96 – أفكار امرأة مخمورة قليلًا عند الساعة الحادية عشرة في طريقها إلى البيت بعد خمس عشرة ساعة من العمل المرهق وكثير من الطعام. لا أتذكر أي

(1) The Village حي من أحياء نيويورك.

قطار أو قطارات استقللت، لكني عدت إلى الحي قرابة الثانية عشرة إلا ربعًا. كانت ليلة مظلمة في نوفمبر، يصب فيها البرد صبًا في عظامي، وفي الجو ضباب يغطي مصابيح الشوارع في هالة من الغبش المشع. كان القمر مختبئًا خلف الغيوم، ولم تكن في السماء نجمة واحدة. البدء ببرودوي والشارع 116، ثم المشي في 116 المنحدر نحو النهر، تتبع ذلك انحرافة حادة إلى اليمين عند شارع كليرمونت، ثم قطع البلوكات الستة أمامي. القليل من مشردي منتصف الليل في البلوكين الأولين ثم لا أحد. منطقة مظلمة ما بين تلك النقطة والبيت لم يكن فيها أحد سوى صوت خطوات تنقر على الرصيف وأنا أتخيل الدخول إلى الشقة والانزلاق في الفراش. ما بين شارعي 119 و120 اندفع رجل من الظلام، استدار بالتفافة بطيئة كسولة وتوقف فجأة في منتصف الرصيف يعيق طريقي. كان الظلام والضباب من الكثافة بحيث لم يمكن التعرف على شيء. هل كان قويًا أم هزيلًا، مسنًا أم شابًا، مستحيل أن أعرف، ولا حتى الوجه الذي كان على مسافة إنشات من وجهي، وليس أكثر من التماعة أو اثنتين من بياض عينيه، شخص أقرب إلى الطحالب، لطخة في الليل، لكني تمكنت من شم رائحته، من امتصاص الأنفاس الفاسدة المنبعثة من فمه وعلى وجهي، إلى أنفي، نزولًا إلى بقية جسدي، ثم قال: «كحيه، أو ستذهب هذي السكين إلى أحشائك». سمعت مطواته الزنبركية تنفتح، وحين رأيت ما تيقنت أنه سكين ترتفع في وجهي، بدأ كل شيء يتباطأ في رأسي، وفهمت أو ظننت أنني فهمت أن ذلك التباطؤ يعني أنني أرى موتي وأن تلك كانت اللحظات الأخيرة

في حياتي. تساءلت كم ثانية مرة، ومع تسارع أنفاسي وامتزاج أنفاسي بأنفاسه التي كانت تندفع نحوي، تذكرت فجأة أنني في ذلك الصباح لبست حذاء منبسطًا، وقلت لنفسي: إذا كانت هذه لحظاتي الأخيرة على الأرض، فالأفضل أن أقف وقفة شجاعة ولا أستسلم، وهكذا، بدلًا من فتح محفظتي وإعطائه سبعة الدولارات التي فيها وأنتظر طعنة من سكينه لأن المبلغ كان أقل بكثير، استدرت وركضت، ركضت بكل ما أستطيع، ركضت كما لم أركض منذ تجاوزني فرانكي بويل راكضًا في الصف السادس، ركضت كما كنت سأركض لو أن فرانكي دربني لأسبق الموت، فمضيت بعيدًا، مضاعفة سرعتي في شارع كليرمونت في تلك الليلة الضبابية من نوفمبر، كنت أجري بأقصى سرعة ممكنة للهروب من الرجل ذي السكين، ومع أنني أحسست أن انطلاقتي السريعة فاجأته بحيث لم يستطع اللحاق بي أو كان أضعف من أن يحاول، فقد واصلت الجري لخمس أو ست أو سبع بلوكات ثم، بعد أن توقفت للحظة لألتقط أنفاسي، رأيت سيارة تاكسي مسرعة باتجاهي فمددت ذراعي وها هو السائق يتوقف لي. ركبت وطلبت منه أن يأخذني إلى الشارع الخامس والثمانين ما بين كولومبس وأمستردام. كنت أعرق في معطفي الشتوي ولكنني مع ذلك كنت أرتعد في الوقت نفسه، حارة وباردة في الوقت نفسه، وكنت مفرغة في الداخل، ليس في رأسي فكرة واحدة.

حين اقتربنا من الشارع الخامس والثمانين بدأ القلق يساورني من أن سي قد لا يكون هناك. مع أصدقاء كرة السلة في أحد البارات ربما، أو خرج ليلتقي صديقًا فيلسوفًا، أو يتغزل بنادلة

من الباهتات اللون والمكدسات في المطاعم الليلية على شارع كولومبس ما بين الشارعين الثاني والثمانين والثالث والثمانين، وحين ضغطت جرس شقته كنت مهيأة لعدم الرد. ولم يأت رد. ضغطت مرة أخرى للتأكد فقط، ولكن الرد لم يأت للمرة الثانية. جلست على الأرضية المشققة البلاط في المدخل الصغير، أسندت رأسي إلى الجدار حيث الأجراس وصناديق البريد وأغمضت عيني محاولة التفكير بخطوتي القادمة، لكني كنت ما أزال مفرغة من التفكير في أي شيء. نوبة بكاء جيدة قد تساعد، قلت لنفسي، وبينما كنت أحاول أن أستخرج الدموع بالقوة فتح الباب وها هو سي قد عاد من سهرة تدخين متأخرة. لم يكن قد ذهب لأكثر من عشر دقائق. عدا عن ذلك كان في البيت طوال الليل يعمل على رسالته.

كان منزعجًا بطبيعة الحال ومستاءً كثيرًا، وغاضبًا بصورة أكثر من المعتاد. أخبرته أنني لن أتمكن من العودة إلى هناك. انتهيت من شارعي كليرمونت و122 وسأبدأ البحث عن مكان آخر، ولكن ماذا عساي أفعل في تلك الأثناء؟ أن أبقى معه طبعًا، كانت إجابته، أليس ذلك واضحًا؟ قلت: لكن المكان صغير جدًّا.

قال: «هو كذلك بالتأكيد»، «لكن لوقت قصير فقط، شهر ربما، أو اثنان على الأكثر. في تلك الأثناء، سنبدأ البحث عن مكان أكبر. إن هذا استئجار من مستأجر على أي حال، وعلي ترك المكان بحلول أول فبراير مهما يكن يمكننا الانتقال إلى وسط المدينة، وتستطيعين عندئذٍ المشي إلى العمل وتقولين لـ آي آر تي مع السلامة».

«نقيم معًا، تقصد؟ هل أنت متأكد؟»

«كان يمكن أن تُقتلي الليلة، وحين أفكر في ما كان يمكن أن يفعله ذلك بي، فإنني متأكد تمامًا. أكثر يقينًا من أي وقت مضى، وقد بدأت أتيقن منذ المرة الأولى التي رأتك فيها عيناي. متأكد تمامًا الآن، يا آنا، وليست رغبتي فقط في أن أعيش معك، أريد أن أعيش معك إلى الآبد».

«إلى الأبد؟»

«إلى الأبد».

«هل تطلبني للزواج؟»

«بالضبط. إنني أطلب منك أن تتزوجيني. وكلما أسرعنا في ذلك كان أفضل».

لم أدر ما أقول، لذا لم أقل شيئًا وتركت تلك الفكرة المجنونة وغير المسبوقة معلقة في الهواء بينما يذهب سي إلى الحمام ويفتح حنفيات المغطس. قال لي إن ما احتجت إليه كان تنقيعًا طويلًا في مغطس حار، ولذا دخلت، خلعت ملابسي واستلقيت في الماء مغلقة عيني بينما كان سي يغسلني بلطف بإسفنجة كثيفة ملساء. أتذكر سماع الماء يتدفق حولي في المغطس، لكن ما عدا ذلك لم تكن هناك أصوات في الشقة، ولا أصوات في العالم. ثم، بعد ما بدا أنه ساعات، فتحت عيني وبدأت أضحك، ثم بعد لحظة قلت موافقة.

بعد مرور ستة وأربعين عامًا، بينما يهيئ بومغارتنر نفسه ليطرح سؤال الزواج للمرة الثانية في حياته، يتضح أن المصدر الأكبر لمخاوفه هو أن ترفضه جودث لأنه أكبر منها بكثير. كانت

الفجوة بينه وبين آنا سنتين ونصف السنة فقط. مع جودث يصل الفرق إلى ستة عشر عامًا، وهي في الرابعة والخمسين ما تزال منطلقة بكامل نشاطها، في حين أنه هو لا يستطيع الانطلاق وإنما يتحرك بتعتعة (في أفضل أوقاته) وأحيانًا بتفتفة (في أسوئها). لم يحدث الفرق حتى الآن أي مشكلات خطِرة في قسم الجنس، ولا أي مشاكل في أي قسم آخر يستطيع تذكره، وحسب علمه فليس ثمة شيء في الوقت الحاضر يهدد ارتباط بعضهما ببعض، لكن طلب الزواج سيضيف عنصرًا آخر إلى المعادلة ولن يدفعها بالضرورة إلى التفكير في المستقبل، وحين تأخذ في الاعتبار ما ستكون عليه الحياة بعد عشرة أو عشرين عامًا من الآن، فإن ما تتخيله من النوم مع رجل ثمانيني أو تسعيني يجعلها تهرب إلى التلال. شكرًا لكن لا يا رجلي الغريب الأطوار، أي فكرة عجيبة خطرت ببالك؟ يخشى بومغارتنر الإذلال الذي قد يكون في انتظاره، لكنه في الوقت نفسه يعلم أيضًا أنه إن فشل في استجماع شجاعته لطرح السؤال، فسيحتقر في نفسه الجبن ثم ينحدر ليصير مسنًا غاضبًا، مغفلًا مثل بروفروك[1] يحترق حسرة حتى نهاية العمر.

اسمها الكامل جودث فيوِر، أستاذة لدراسات الفلم في برنستون. جاءت إلى الجامعة أوائل الألفية الثانية قبل كارثة كيب كود بوقت يكفي لتبني صداقة مع آنا التي كانت مهووسة بالأفلام الأمريكية القديمة التي تعود إلى الثلاثينيات والأربعينيات،

(1) بروفروك هو ج. ألفرد بروفروك، شخصية في قصيدة ت. س. إليوت

ووجدت في جودث محاورة مثالية بدا أنها تعرف أكثر عن تلك الأفلام من أي شخص آخر، وبينما كانت جودث ما تزال متزوجة من جوزف فريدركسون -روائي كان واعدًا ثم فشل وصار يكسب عيشه بإنتاج رواية جريمة من الدرجة الثانية ولكنها رائجة- كانت هي وزوجها يوحدان جهودهما مع آنا وبومغارتنر لعشاءات في المطاعم أو لعشاءات أصغر في أحد المنزلين. أُعجب بومغارتنر بجودث منذ البدء، وأقل من ذلك بزوجها، لكن ما كان يهمه في المقام الأول هو أنها ارتاحت إلى آنا كثيرًا، ذلك أنه كان لآنا أصدقاء كثيرون لكن لم يكن لديها أصدقاء قريبون، وبدا أن هذه الصداقة كانت تتنامى لتصير حميمة، لكن آنا ماتت فكانت نهاية ذلك. كانت جودث طيبة معه فوق المعتاد أثناء الأشهر الأولى من انهياره -أحاديث طويلة على الهاتف عدة مرات، زيارات مفاجئة للاطمئنان عليه، الأمر الذي جعله يحبها أكثر مما فعل في البداية- وكان حجم حزنها على آنا مواسيًا له على نحو ما أيضًا. ثم ذهبت في سنة تفرغ علمي وحين عادت كان بومغارتنر قد بدأ غزواته المتفرقة والمتقطعة لأرامل ومطلقات متنوعات في برنستون، ونيوبرونزويك، وبروكلين، ومانهاتن، وفي إحدى المرات في جزيرة شلتر البعيدة، بقعة أرض ما بين الشوكتين الشمالية والجنوبية من شرق لونغ آيلاند. مهام لا فائدة منها على طريق لا يؤدي إلى مكان، لكن تلك المداعبات القصيرة أبقته مشغولًا ولاهيًا، وهو دون شك ما كان يبحث عنه أو قادر عليه في ذلك الوقت. ظل على صلة بجودث، لكن على قدر أقل من الحميمية من ذي قبل وبانقطاعات أطول وأطول ما بين اتصال

واتصال. ثم في 2014 هرب جو فريدركسون إلى نيومكسيكو مع شابة في نصف عمره تعمل في العقار، وكانت جودث في مخاض طلاق استمر لأكثر من عام. تلك كانت بداية اتصالها به مرة أخرى وطلبها نصيحته، مشيرة إلى أن كونه عرف زواجًا طويلًا وسعيدًا لامرأة رائعة مثل آنا (استعملت كلمة رائعة)، فقد شعرت أنه يمكنها أن تعتمد عليه في توجيهها للخروج من العاصفة. ثم وصفته بـ **الحكيم**، كلمة لم يسبق لأحد أن استعملها في وصفه ما عدا آنا، ولأنه كان حكيمًا، كما قالت، فقد وثقت به أكثر من أي شخص آخر. تنحنح بومغارتنر عدة مرات عند سماع هذا الثناء الذي أربكه أيضًا فسأل عن شعور أولادها تجاه ما حدث. قالت جودث: لحسن الحظ أن كليهما كان إلى جانبها، وقد اعترفا، الواحد تلو الآخر بأنهما سعيدان أنها أخيرًا قد تخلصت من **ذلك التافه** (كان إرك في الرابعة والعشرين، شاب تقني يعمل في بولدر، كولورادو) وذلك **الذكوري والأناني القذر** (حسب لبي الذي يبلغ الثانية والعشرين، منتج الأفلام الطموح في جامعة كاليفورنيا بيركلي). ضحك بومغارتنر وقال: أراك وصلت منتصف الطريق نحو هدفك يا جودث. وحين ضحكت جودث أيضًا، بدأت الرقصة الرسمية التي أدت إلى طلب الزواج المنتظر.

بعد تفكير طويل في الموضوع، خلص بومغارتنر إلى أنه من بين الاختلافات الكثيرة، الصغيرة والكبيرة، بين آنا وجودث، فإن هذا هو الأكبر: حقيقة أن جودث أمٌّ وآنا ليست كذلك. لقد أراد هو وآنا أن يكون لهما طفل، ربما أكثر من واحد، لكن حين اقتربا من فعل ذلك بجد بعد ست أو سبع سنوات من زواجهما، لم يحدث

شـيء. بعـد فشـل أعقـب مئـات الليالـي والصباحـات والظهريـات مـن الجنـس الخالـي مـن الموانـع مـن كل زاويـة ووضـع وانثنـاءة أمكنهمـا التوصـل إليهـا، بـدءا باستشـارة الأطبـاء، منفصليـن ومجتمعيـن، مجموعـة أولـى ثـم مجموعـة ثانيـة ثـم أخيـرًا ثالثـة، انتهـوا جميعًـا إلـى أنـه لا هـو ولا آنـا كانـا مـن الناحيـة الوراثيـة مؤهليـن لإنجـاب الأطفـال، حقيقـة طبيـة لا تصـدق لكنهـا مثبتـة طبيًـا ومعناهـا أن الـزواج بالنسـبة إليهمـا سـيكون بـلا إنجـاب بغـض النظـر عـن الشـريك الـذي وجـدا.

كانـت ضربـة قاسـية، الأقسـى بالتأكيـد بيـن مـا تلقيـاه، لكنهـا خيبـة أمـل مشـتركة علـى الأقـل بمـا أنهمـا كانـا متسـاويين فـي المسـؤولية فـي مـا تلقيـا مـن تعامـل قـاسٍ، الأمـر الـذي أزال الاسـتياء أو التجريـم الصامـت وسـمح لهمـا بالمضـي فـي محبـة بعضهمـا لبعـض مثلمـا كانـت الحـال مـن قبـل، إن لـم يكـن بعمـق أكبـر ممـا كانـت عليـه الحـال. تحدثـا عـن التبنـي سـاعة أو سـاعتين ذات صبـاح، لكـن لـم يكـن أي منهمـا شـديد الحماسـة لذلـك. قـررا أنهمـا لـم يريـدا طفـلًا لغريـب، أرادا طفلهمـا أو لا أطفـال، وإذا كانـا قـد قـررا أنـه لـن يكـون هنـاك طفـل بصـورة نهائيـة، فـأي خيـار أمامهمـا غيـر القبـول بالأمـر الواقـع؟ مضـى الزمـن ومـع مـرور السـنين صـارا مثـل أولئـك الأزواج الأبديـي الشـباب، طفليـن يشـيخان ببطء غيـر مثقليـن بمسـؤوليات أو أسـباب قلـق يواجههـا معظـم المتزوجيـن، أسـرة بومغارتنـر وبلـوم المحسـودة غالبًـا، العقيمـان اللـذان بـلا أطفـال واللـذان عاشـا فقـط بعضهمـا لبعـض ولعملهمـا. كان لـدى بومغارتنـر مـا يكفـي، وأكثـر مـن ذلـك، عبـر الأعـوام التـي قضاهـا مـع آنـا، وحتـى الآن، حيـن يخطـر ببالـه

كيف كانت الحياة ستكون لو أنهما أنجبا أطفالًا، وما زال ما لديه كافيًا. ليس أكثر من كافٍ، لكنه كافٍ.

ذلك هو الأمر الأول -الأمومة- لكن هناك أشياء عديدة ومختلفة أخرى أيضًا، ابتداءً بالتقابل الحاد بين نظرتيهما، وهو أمر أقل أهمية بالنسبة إلى بومغارتنر على المدى البعيد ولكنه مهم مع ذلك. آنا بجسدها الناعم الذي يشبه أجساد السباحات، ثدياها الصغيران ووركاها الضيقان، ذراعاها الطويلتان وكتفاها المربعتان بصورة بديعة، شعرها القصير المائل إلى الحمرة وعيناها المشتعلتان بمزيج من الأخضر والرمادي، في مقابل جودث الأرق والأكثر استدارة، الأعرض أوراكًا، الأكثر اتساعًا في الجذع، والأكثر امتلاءً في الصدر، مع عينين بنيتين داكنتين وشعر كثيف أسود، ليس بالجمال المذهل الذي رآه بومغارتنر حيثما نظر إلى آنا، لكن عينيه ما تزالان تريان امرأة مثيرة وعميقة الجاذبية، أبطأ وأكثر تثاقلًا في حركتها من آنا السريعة والوثابة، مع وجه لطيف وترحيبي يجتذبه كلما نظر إليها ويثبته في محيطها، منتشٍ ومنتبه، حيوي إزاءها بكل الوجوه التي كان بها حيويًا إزاء آنا. لم تفعل ذلك به نساء أخريات. فقط آنا وجودث — وهو ما يفسر ربما السبب الذي جعله يقع في حب كلتيهما وأراد الزواج منهما والعيش معهما حتى نهاية حياته، كانت آنا الأولى والآن جودث.

أجساد مختلفة، ولكن أمزجة مختلفة أيضًا. إنها مسألة سمات متأصلة إلى حد ما، إلى جانب الكيفية التي كانت بها أمّاهما تمسكان بهما حين كانتا رضيعتين، فرختين لم يكد ينبت ريشهما، ولكن أيضًا نتيجة للكيفية التي استجابا بها للظروف المتطابقة

تقريبًا لطفولتهما. بالنسبة إلى فقير مثل بومغارتنر، ولد لأسرة مكافحة من الطبقة الوسطى الدنيا، لا يزال جانب منه يفغر فاه أمام الثروة والراحة التي أحاطت بآنا وجودث حين كانتا صغيرتين. د. ليو بلوم، المولود في أسرة فقيرة مثله، شق طريقه عبر كلية الطب وصار مختصًا في الأنف والأذن والحنجرة ليبني ممارسة طبية مزدهرة لينتقل عام 1954 هو وزوجته وطفلته الوحيدة من شقة بغرفتين في الجزء المعروف بمرتفعات كراون في بروكلن إلى بيت كبير متعدد الأدوار في أحياء لفنغستون بنيوجيرسي، مقر إقامة آنا الدائم حتى أنهت الثانوية بعد ذلك بأربعة عشر عامًا. في بريق ذلك المكان المعشب والغني بالأشجار، كانت الصغيرة تغرق بما كان ثروة والدها قادرة على إمطارها به: غرفة واسعة مخصصة لها، رفوف وصناديق تفيض بالألعاب، دروس بيانو، دروس باليه، كثير من الكتب، أحدث الملابس، وجبات صحية وافرة، مخيمات صيفية، حفلات عيد ميلاد بالكعك المزين حسب الموضة، كلب، وكلب آخر بعد أن مات الأول، وباختصار كل ما أرادت سواء أرادته أم لم ترده. في الغالب لم ترده. استمر ذلك حتى بلغت الحادية عشرة أو الثانية عشرة على الأقل وعرفت كيف تفكر في نفسها، في تلك المرحلة تغير موقفها إزاء ظروف حياتها بوصفها طفلة مدللة تنتمي إلى الفئة العليا من الطبقة الوسطى العالية، لتتحول من القبول الأعمى إلى المقاومة العنيدة إلى التمرد المعلن. كانت تعلم أن والديها يحبانها، وأدركت رغمًا عنها أنها بادلتهما الحب، لكنها في الوقت نفسه كرهتهما لانسياقهما وراء الأسطورة الأمريكية أن المال هو معيار كل شيء،

حتى مع أنهما تظاهرا بالانزعاج لما هم عليه ملايين الفقراء من بؤس، أولئك الذين سحقتهم عجلات النظام نفسه الذي سمح لهما بالبروز على أنهما فائزان حسب المتعارف عليه. فليهنأ والداها، فكرت آنا، أما هي فليس لها علاقة بذلك وأرادت ألا تكون جزءًا من العبث في مستقبلها، أما الآن، وهي ما تزال أسيرة قلعة لفنغستون من حيث هي يافعة عاجزة لا حساب لها، فلم يكن هناك الكثير مما يمكنها فعله سوى الكفاح لبناء منطقة مستقلة لنفسها ضمن المملكة التي يحكمها والداها. ولم يكن الدفاع عن تلك المساحة سهلًا، وقد جرت معارك كثيرة على مدى الأعوام التالية من أجله، لكن شيئًا فشيئًا استطاعت أن تدرب والديها على احترام الحدود التي رسمتها، مجادلة بأن الدرجات الجيدة التي حققتها يجب أن تستثنيها من أي لوم، وإن كانت رؤيتها للعالم مختلفة عن رؤيتهما فإن عليهما تقبل ذلك. لقد كانا من شجعها على القراءة في نهاية الأمر، والآن وقد هاجرت إلى بلاد الكتب وصممت على أن تكون شاعرة، فالمفترض فيهما أن يسرّا أنها لم تنحرف كما حدث لعديد من أصدقائها في العام أو العامين السابقين، كما هي الحال مع ديبي وأليس، مثلًا، اللتين تحولتا إلى طفلتين تدخنان الحشيش، أو مورين البدينة التي تفتح ساقيها لأي ولد ينظر إليها، أو أنجيلا التي وقعت في حب لص سيارات ساقط، ألم يكونا محظوظين، كما كانت تقول لوالديها، أنهما أنتجا فتاة طيبة مثلها.

أثناء الأسابيع الأولى من سنتها النهائية في المدرسة الثانوية، بينما أفكارها موجهة بتركيز أكبر على المستقبل، عقدت آنا

اتفاقًا معهما. أرادت الذهاب إلى الجامعة، كما قالت، كانت بحاجة إلى الذهاب إلى الجامعة، ولأنها كانت تعلم أنهما أراداها أن تذهب أيضًا وكانا أكثر من راغبين في تحمل تكاليف ذهابها، فإنها ستقبل بسرور، وتكون شاكرة، ما يدفعانه من مال ستحتاج إليه لتمضية أربعة أعوام. لكن تلك ستكون نهاية المطاف، كما أعلنت، فبعد ذلك ستعتمد على نفسها بوصفها بالغة ومستقلة استقلالًا تامًا، دون دعم من والديها، أو أقاربها، أو أي شخص آخر. كانت ردة فعل أبيها ليو وأمها راشيل تجاه إعلانها أكثر هدوءًا بكثير مما توقعت، لأنهما رأوا دون شك أن ابنتهما العنيدة الحمقاء كانت تتحدث عن شيء لن يحدث قبل خمسة أعوام، والاحتمالات قوية أنها ستتضج عندئذٍ لتغير رأيها. قال أبوها إن ذلك موقف رائع، وكان يخاطبها بأكثر نغمات صوته اتزانًا، ولكن ماذا لو واجهتها مصاعب في حياتها؟ هل تريديننا أن نقف جانبًا لا نفعل شيئًا بينما أنت تتضورين ببطء إلى أن تموتي جوعًا؟ ضحكت آنا. لا، بالتأكيد لا، قالت له، وبوصول الحوار إلى تلك النقطة أخذا منها وعدًا أن تتصل بهما في اللحظة التي تجد نفسها في مأزق. جرت بعد ذلك بعض المماحكات، لكن آنا في النهاية أجبرتهما على أن كلمة «مأزق» تعني «لا تكسر الزجاج إلا في أقصى حالات الطوارئ».

لقد أساءا تقديرها بالتأكيد. مرت السنوات الخمس وصارت الفتاة التي كانت في السابعة عشرة في الثانية والعشرين، وفي اليوم التالي الذي تسلمت فيه شهادتها من كلية بارنارد نزلت عن عرشها من حيث هي أميرة أمريكية بورجوازية وهربت مباشرة

إلى السيرك. لم يهم إن كانت العروض الرئيسة لتلك الخيمة الكبيرة والرثة في المزيلة الواقعة على شارع كليرمونت، وأن مزيلة بومغارتنر الأصغر كانت غرب الشارع الخامس والثمانين، ومقر عملها المتدني الدخل في دار هلر[1] - المهم هو أنها كانت تقف على قدميها وتشق طريقها. كان بومغارتنر يمازحها ذات صباح وهو يمد لاقطًا متخيلًا أمام وجهها: يا آنسة بلوم، معظم الاقتصاديين وعلماء الاجتماع سيفسرون هذه الحياة الشبه بروليتارية الجديدة التي تعيشين على أنها أنموذجًا متطرفًا من الحركة المتسارعة إلى الأسفل. هلا علقت على ذلك؟ فكانت إجابة آنا: شكرًا لك يا سيد بومغارتنر. كل ما أود قوله للأساتذة هو هذا: لم تروا شيئًا بعد يا شباب!

ثم جاءت ليلة الثاني والعشرين من نوفمبر التي بدأت بآنا وهي تتجاوز مواجهتها للموت بسرعة عبر غبش الضباب والخوف وانتهت بقسم منتشٍ للزواج من بومغارتنر في أول لحظة ممكنة. في ظهر اليوم التالي صعدا حافلة عند محطة بورث أوثوريتي واتجها إلى ليفنغستون لحضور عشاء عيد الشكر في منزل والدي آنا. أثناء الدقائق المئة ودقيقة التي استغرقها وصولهم إلى هناك، استطاع بومغارتنر أن يقنع آنا أن المأزق الذي يواجهان يمكن اعتباره «حالة طوارئ في غاية الصعوبة»، لأنهما كانا بحاجة إلى الانتقال إلى مكان أوسع، والحقيقة المزعجة في

---

(1) يشير الكاتب على الأرجح إلى الحياة خارج عالم الثراء الذي عاشت فيه آنا مع والديها، عالم يصفه مجازيًا بالسيرك والرثاثة وما يستدعي ذلك من كفاح للحصول على لقمة العيش.

كونهما غير قادرين على تحمل تكاليف الانتقال، غير قادرين لأن توقيع العقد سيلزمهما أن يتدبرًا إيجار أول شهر، وإيجار آخر شهر، ومبلغًا للتأمين يساوي إيجار شهر – كل ذلك دفعة واحدة. تعاطف مع تصميمها بألا تقبل مبلغًا من والديها، وتفهم الأسباب العديدة وراء قطعها الحبل، لكن ذلك كان اليوم الذي أرادا فيه أن يعلنا للوالدين خططهما للزواج، وضمن البهجة التي كانت ستتلو ذلك، ستبدأ أم آنا في الحديث عن العرس الذي من المؤكد أنه كان يتراقص في ذهنها لسنوات والآن وصل إلى فورة ضخمة وعالية التكلفة، مشهد بائس لا يتحمله أحد منهما، لكن، كما قال بومغارتنر، في كل الحالات ستُصرف آلاف الدولارات عليهما سواء رضيا بذلك أم لم يرضيا، ولذا فإن التصرف المنطقي هو أن تقول لوالديها ألا ينفقا مالهما على شأن عابر ولا معنى وإنما أن يستثمرا المال، أو على الأقل جزءًا منه، في مستقبل ابنتهما وزوجها، ما سيمكنهما من الإقامة في شقة جيدة المستوى في مكان ما وينطلقا في بداية قوية مشتركة. دعي الأمر لي، قال بومغارتنر. بعد عشرين عامًا من التمرين تعلما كل الحيل الملائمة لمناقشتك، لكنهما لم يشتبكا معي، وإن تركتِني أتحدث أعتقد أن فرصتنا ستكون أفضل. سأقترح عرسًا في قاعة المدينة يكونان الشاهدين الوحيدين فيه، وبعد ذلك نذهب نحن الأربعة إلى غداء فخم في مطعم راقٍ وسط المدينة. حين تعترض أمك وتقول لنا كم هي مصدومة، لا منهارة ومحطمة، سأرفع معنوياتها باقتراح أن يقيما حفلة لنا بعد أسبوعين، مناسبة في ظهر يوم أحد في منزلهما، حفلة لن تكلفهما واحد من ألف مما سيكلفه

عرس كبير، ما يسمونه بيتًا مفتوحًا، كما أظن، حيث سيبرزونك في فستان الحفلات الضيق، الأسود والمثير، لجدتيك وخالاتك الخمس وأعمامك الأربعة وأبناء عمومتك الاثني عشر ولعدد لا بأس به من الأصدقاء، وما إنْ أختتم حديثي القصير، سيلتفت أبوك الطيب القلب والعملي إلى والدتك العالية الذكاء وإن كانت غريبة الأطوار إلى حدٍّ ما ويقول: ما يقوله الولد منطقي، يا راشيل، وإذا كان هذا هو العرس الذي يريدانه فهو العرس الذي سيحصلان عليه. ابتسمت آنا ثم ضيقت عينيها لتحدق شزرًا في بومغارتنر كما لو كان غريبًا. قالت: أخبرني، كيف استطعت أن تتحول إلى هذا الشيء المتواطئ المنافق، يا سيد[1]بومغارتنر؟ بدلًا من أن يجيبها قبّل الهير بومغارتنر عروسه القادمة على شفتيها وقال، أمر أخير يا آنا. ممنوع ذكر أي شيء عما حدث لك في شارع كليرمونت ليلة البارحة، اتفقنا؟ اتفقنا، قالت له. لا اليوم، ولا غدًا، ولا كلمة بالمطلق.

كان ذلك هو المبلغ الوحيد الذي تلقياه من والدي آنا، لكن العشرة آلاف دولار، هدية عرسهما، كانت مبلغًا هائلًا في ذلك الوقت مكنهما من التحليق وعدم القلق من أي مصيبة ستقع عليهما. وجدا شقة مريحة من غرفتين ونصف على شارع برو في القرية الغربية، وفي الخريف التالي، حين حصل بومغارتنر على وظيفة أستاذ مساعد في قسم الفلسفة في المدرسة الجديدة، أمكنهما المشي إلى وظيفتيهما. لم يتغير شيء على مدى اثني عشر عامًا

(1) تستعمل لقب المخاطب للرجال بالألمانية "هير" Herr، او سيد.

بعد ذلك. استمرت حياتهما في مأمنهما على شارع برو، مضت آنا تعمل في «هلر بوكس» حيث ترقت من محرر أصغر إلى كبيرة محررين وبدأت تترجم أيضًا، بينما مضى بومغارتنر في التدريس ليترقى من أستاذ مساعد إلى مشارك إلى أستاذ وكتب عدة كتب حول فينومينولوجيا القراءة وسياسيات الخوف، منشئًا كل كلمة في غرفته النصفية في آخر الشقة، حيث تنتهي القاعة الممتدة من الغرفة الصغيرة الأخرى حيث كتبت آنا قصائدها، وحررت كتابها، وترجمت كتبها. زبدة القول هي كالتالي: كان ذلك هو العصر الذهبي المبكر من حياتهما معًا، ولم يكن أي منه ليحدث بالطريقة التي حدث بها لو أن آنا العنيدة والمثالية لم تقدم بعض التنازل لتتحول الحرب التي كانت تخوضها لنفسها إلى حرب من أجلهما معًا وقبلت المال من والديها.

مع جودث تكرر كل شيء لكن بالمقلوب. عائلة يهودية عالية الكعب من ضواحي نيويورك (ويستبورت، كونيتيكت)، أب طموح مجتهد لديه ممارسة في قانون الشركات في مانهاتن، أم قارئة لم تعمل، وطفولة مع أخ وأخت أصغر مملوءة بذات المميزات التي كانت لآنا، لكن على عكس آنا المقاومة اعتنقت جودث الحياة المنعمة التي ولدت بها ولم تسائلها. في مدرستها الثانوية كانت قائدة فريق التشجيع النسائي، وعريفة الفصل في الإعدادية، علامات عليا ومئات الأصدقاء، فتاة رابحة استطاعت أن تتجاوز المسافات وتنتقل إلى جامعة ييل. على الرغم من تشابه خلفياتهما، فلم يكن بينها وبين آنا أي شيء مشترك تقريبًا، لا شيء، وكانت تلك **اللا شيء** تحير بومغارتنر أكثر من أي شيء آخر كلما توقف

متسائلًا كيف وقع على رأسه في حب تلكما المرأتين المختلفتين. آنا الفجة، المباشرة، العفوية، والآن جودث المتوازنة والمرهفة، جودث الرائعة، الواثقة، تلك الشخصية المهمة في عالم الفلم التي عملت في هيئات تحكيم المهرجانات الرئيسة ونشرت أربعة كتب حتى الآن بينما الخامس في الطريق، في حين كرست آنا التي تفيض حيوية ولكن المنسحبة إلى الداخل مواهبها الأدبية الهائلة لترجمة أعمال غيرها وإخفاء قصائدها عن العالم.

قرأت جودث هذه القصائد وتعرف كم هي جيدة، وفي إحدى الليالي قبل تسعة أشهر، ليس بعد مرور فترة طويلة من إدراك بومغارتنر مدى الأهمية التي أتت جودث لتحتلها بالنسبة إليه، شرع في حوار لعوب، شبه ممازح معها بإطلاق نظرية مجنونة حول تنبؤ آنا بعلاقة رومانسية تربطه بامرأة اسمها فيوير في إحدى قصائدها المبكرة، قصيدة كتبت منذ وقت موغل في القدم إلى حد أن جودث كانت أثناءه في الصف الثاني أو الثالث الابتدائي، لكن هكذا هو الوضع الآن، قال لها في تلك الليلة وهما يجلسان جنبًا إلى جنب على الصوفا في غرفة جلوسها، هكذا هو الوضع الآن وهكذا كان، ثم استمر موضحًا أنه في كل مرة يخطر بباله اسم عائلتها، فيوير (Feuer)، الذي يعني «نار» بالألمانية، فإن قصيدة صغيرة لآنا تخطر بباله أيضًا عنوانها «معجم» (Lexicon)، القصيدة التي تتحدث عن زهرة ضئيلة لا اسم لها، نقطة تحترق من الاحمرار وتقفز من الإسفلت لتوقعها في فخ تعويذتها، لو أن اسم آنا هو بلوم Blume -الذي يعني زهرة بالألمانية- فإنه يتخيل أن الزهرة التي تصير لهبًا نتيجة

عملية خيميائية غريبة تعني انتقال الشعلة من آنا إلى جودث، وها هو ذا عند نهاية القصيدة، الهير بومغارتنر نفسه، في هيئة العفريت الصغير يبتسم لآنا عبر الشارع ومعه الزهرة - النار تشتعل في عروة قميصه، يبتسم لأنه سعيد ويريد أن يشكرها على الهدية التي منحته، التي هي أنت، يا عزيزتي جودث، يقول بومغارتنر، يا سيدتي المشعة، أيتها النار المشتعلة، التي تضيء **مثل كبريت أشعل في الظلام.**

كانت طريقته في إخبار جودث أنها تقف الآن بموازاة آنا في ذهنه، وحين أمسكت جودث يده ورفعتها إلى فمها وقبلتها، شعر بومغارتنر أنها فهمت دون شك ما كان يحاول فعله. كان الوقت لا يزال مبكرًا للمخاطرة بإعلان الحب، ولذا لجأ إلى هذه التمرين الالتفافي في التحليل الأدبي المجنون ليكون خطوة أولى باتجاه اللحظة التي يجد فيها أخيرًا الشجاعة لتعرية روحه أمامها. بعد تلك الليلة مضيا كالمعتاد، يرى بعضهما بعضًا مرتين إلى ثلاث مرات في الأسبوع، يطبخان العشاء في بيتها أو بيته يتبع ذلك مشاهدة فلم أو عدم مشاهدة شيء والمضي بدلًا من ذلك في الحديث عن عملهما أو عن أحد أبناء جودث أو عن «المستفيد النهائي» (Ubo)[1] المجنون في البيت الأبيض أو يحكون قصصًا من ماضيهم ثم ينامان معًا حتى الصباح. الروتين نفسه، لكن بومغارتنر أحس أنهما الآن يقترب بعضهما من بعض وأن أي

(1) Ubo اختصار لعبارة Ultimate beneficial owner التي تعني "المستفيد النهائي" وبالنظر إلى تاريخ أحداث الرواية فالمقصود على الأرجح هو الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترمب.

حواجز خفية وقفت بينهما (حذر؟ شكوك ذاتية؟ خوف؟) قد انهارت بالتدريج. ثم حلم بومغارتنر الحلم وذهب مع آنا في مشيتهما الطويلة عبر قصر الذاكرة، وما إن عاد، فإن حذره، شكوكه الذاتية، وخوفه، كل ذلك ذاب بالتدريج. لا يزال يجد أن من الصعب فهم أن «لا شيء مشترك»، لكن بدلًا من تفسيرها على أنها مؤشر آخر على مقاربة خاطئة وغير متسقة للحياة، فإنه يرى الآن أن «لا شيء» قوة إيجابية. جودث ليست آنا، ومتى استطاع إقناعها بالزواج منه، إن استطاع ذلك، فإن الحياة التي يعيش معها لن تكون استمرارًا لحياته مع آنا وإنما شيء جديد ومختلف تمامًا. وكيف يمكن لأي شخص عاش السنين الطويلة التي عاشها أن يطلب أكثر من ذلك؟ فرصة للبدء من جديد. فرصة للمغامرة مرة أخرى وعبور دوامة ما سيأتي طيبًا كان أو سيئًا.

إنه السبت 11 أغسطس 2018. ينهض بومغارتنر عند السابعة مساء ليقطع أربع بلوكات مشيًا من بيته إلى بيت جودث، يحمل معه اثنتي عشرة وردة حمراء يضمها بذراعه اليمنى ويقبض على السيقان الخالية من الشوك بقوة بيده اليسرى بينما هو يتساءل عن المكان واللحظة التي عليه فيها طرح السؤال الليلة. يقول إن التبكير أفضل من التأخير لأن التأجيل سيزيد توتره بينما الدقائق تمر، وإذا كان التبكير أفضل للشروع فلماذا إذًا لا يكون ذلك مباشرة؟ يبدأ المشهد بالارتسام في ذهنه فيتخيل أنه سيتكشف على النحو الآتي: سيمد لها الزهور في اللحظة التي تفتح فيها الباب، ستشكره جودث وهي تبتسم مع قبلة على

الوجنة، ثم يتجه كلاهما إلى المطبخ لفتح لفافة الزهور والبحث عن آنية كبيرة بما يكفي لوضعها فيها، ولأن المطبخ مكان مريح وحميمي فإنه دون شك المكان الأفضل في البيت لطرح الأسئلة الصعبة والتي تغير مسار الحياة، فسيملأ الإناء بالماء في حين تقص جودث الجزء السفلي من السيقان، وبمجرد إخراجه الإناء المليء بالماء من المغسلة سيحملها إليها لوضعها على الطاولة حيث تضع جودث الورود في الإناء وتحركها لبعض الوقت، تعدلها وتعيد تعديلها حتى يكتمل العمل، ثم في تلك اللحظة سيأتيها من الخلف يطوق خصرها بذراعيه وينحني حتى يحتك فمه برقبتها ويقول، بصوته الأكثر نعومة والأكثر حميمية: **كنت أفكر...**

إنها نهاية نهار حار في وسط نيوجيرسي، أرض مستنقعات التوت، البعوض الكثيف، وفصول الصيف الطويلة الرطبة. كما توقع بومغارتنر أن يفعل حين أغلق باب بيته، كان قميصه قد تبلل بالعرق حين وصل إلى طريق جودث. ستمر ساعة أخرى قبل غروب الشمس، لكن السماء بدأت تكشف عن الإشارات الهشة الأولى للغروب والظلام الزاحفين، مع لمسات من الوردي والبرتقالي تزحف على حواف السحب في حين ينقض سرب من طائر السنونو في المدى، عجائب بصرية صغيرة تعوض عن ساعات العرق والجلد اللزج. في هذه اللحظة يمشي بومغارتنر نحو بلوك جودث ولم يتبق أمامه سوى ستة منازل. يشعر بأن رئتيه تنقبضان، معدته تبدأ بالتقلص، ولكن حتى مع انتشار الرعشات على أنحاء جسده، فإنه يضغط على نفسه للإسراع في الخطو، مدركًا أن عليه أن يواصل هذا الأمر حتى نهايته،

حتى وإن أدى إلى مقتله. يلتف إلى اليسار نحو الممشى المواجه لمنزل جودث، يتوقف للحظة ليعيد ترتيب الأزهار في ذراعه، يتوقف للحظة أخرى لتنقية الهواء في رئتيه، وها هو ذا بعد لحظة يضغط الجرس.

لوهلة يمضي كل شيء كما تخيله، ولكن بعد حديث حول الأزهار ثم ترتيبها ومجيئه من الخلف لوضع ذراعيه حولها يغير رأيه حول عبارة **كنت أفكر**... ليسأل بدلاً من ذلك: **هل تكفيك هذه – أو تريدين أكثر؟** جملة غامضة أسيء ترتيبها ولم تفهمها جودث. ماذا يقصد بـ هذا، تسأله، وما الشيء الذي يفترض بها أن تطلب مزيدًا منه؟ قالت: إنه سؤال غريب لأنها سعيدة تمامًا حيث هي وفي هذه اللحظة، واقفة في المطبخ وذراعاه ملتفتان حول جسدها وفمه يتلمس رقبتها، وكيف يمكنها أن تطلب مزيدًا من شيء تحقق منه ما يفيض عن الحاجة؟ يعتذر بومغارتنر لعدم توضيح ما يقصد. يقول لها: إنه لا يتحدث عن هذه اللحظة، التي لا يمكن أن تكون أفضل أو أكثر كمالًا مما هي عليه الآن، ولكن لأنه (يقبل رقبتها) يشعر تمامًا كما تشعر ولأن (يقبل رقبتها مرة أخرى) ما صنعاه على مدى العامين الماضيين معًا هو من العمق ومن التميز بحيث أنه طرح سؤاله الغبي ليعرف إنْ كانت تريد أن تبقى كما هي أو تحدث بعض التغيير(**يمرر يديه على ثدييها بينما يقبل رقبتها مرة اخرى**)، لأنه في حقيقة الأمر، يقول لها، المرتان أو الثلاث في الأسبوع لم تعد تكفي وهو يريد أن يقضيا وقتًا أطول معًا، أطول وقت ممكن، وهو يتساءل عما إذا كانت الفكرة نفسها قد عبرت تفكيرها، وإن لم تكن فهل هي مع الفكرة أو ضدها؟

تقول جودث: آه، فهمت الآن. مئة عصفور صغير يحوم داخل مخه الكبير القوي، ويريد أن يجلسا ويتحدثا، أليس كذلك؟ بعد أن حررت ذراعها اليسرى من قبضته تومئ إلى طاولة المطبخ بينما يترك بومغارتنر ذراعيه تنزلان إلى جانبيه وتمشي جودث إلى الثلاجة بنعليها الصينيين الأنيقين لتحضر زجاجة نبيذ بارد. في هذه الأثناء يسحب بومغارتنر كأسين من الدولاب الواقع فوق الكاونتر ويستخرج فتاحة فلّين من الدرج الواقع تحته مباشرة، وبينما يضع الكأسين على الطاولة تضع جودث الزجاجة بجانبهما. يسحب كل منهما كرسيًّا ويجلسان وجهًا لوجه على طرفي الطاولة لتحل اللحظة الحاسمة فجأة.

يفتح بومغارتنر النبيذ ويصب كأسين. يرفع أحدهما كأسه للآخر ويرشف كل منهما رشفة وبعد أن يضعا الكأسين على الطاولة تبدأ جودث.

تقول إنهما جاءا إلى مكان رائع معًا، وإنها تشعر بسعادة معه تفوق سعادتها مع أي رجل عرفته من قبل. ذلك مؤكد. إنها تحبه، ومع أنه لم يقل ذلك بتلك الكلمات، فإنها تعلم أنه يحبها، ولأنها الآن بدأ يتكون لديها إحساس أكثر رهافة بالكيفية التي يعمل بها ذهنه، فإنها تدرك أن مسألة قضاء وقت أطول معًا هي طريقته للمضي نحو السؤال الأكبر الذي يخطط لطرحه في الدقائق الثلاث أو الأربع التالية.

إنك تفهمينني تمامًا، أليس كذلك؟ يقول بومغارتنر

ليس بالضبط. ما حدث هو أن الفكرة خطرت لي ستمئة مرة على مدى الشهرين الماضيين.

وماذا قررت؟

قررت أنني أشعر بالنشوة كلما فكرت في الأمر. قررت أنني أخاف كلما فكرت في الأمر. قررت أنني أحتاج إلى مزيد من الوقت لأقرر، وفي الوقت الحالي أريد أن نمضي على نفس الدرب الذي نسير عليه ونترك المستقبل يقرر البقية.

بينما كانت كلماتها تستقر داخله، كان بومغارتنر يشعر بالخدور. يشعر أن رأسه غريب، كما لو أن جمجمته تتمدد فجأة وتمتلئ بالفراغ، المزيد والمزيد من الفراغ إلى أن يشعر بالدوار وأنه مشدوه وينجرف بعيدًا، بعيدًا جدًا. يرى نفسه مثل ملاكم، مثل ملاكم في مباراة غير متكافئة، أسقطه خطاف أيسر، لكن بومغارتنر ما يزال في حالة وعي، هو ليس أسفل بينما الحكم يعد، وبينما ينهض ببطء من أرض الحلبة على ساقيه المرتجفتين، يتمكن من قول ما يلي: قبل أن نبدأ بالنوم معًا، كنت أعيش وحدي لثماني سنوات دون أن أشعر بأنني وحيد أكثر مما ينبغي، أخوض في ما أسميه نوعًا محتملًا من العزلة البالغة الألم، لكن في اللحظة التي دخلت فيها حياتي، تحولت حياتي إلى حياة مختلفة، وبت الآن أكره العيش وحدي. بعد قضائنا ليلة معًا في منزلي، تغادرين في الصباح وأجدني حبيس الفراغ في كل تلك الغرف، أتمنى لو كنت معي، وحين نقضي ليلة معًا هنا، أصير الشخص الذي يرحل في الصباح عائدًا إلى ذلك البيت الفارغ المسكون بالأشباح. إن الوحدة قاتلة يا جودث، وقطعة قطعة تأكلك حتى تبتلع جسدك كله. ليس للإنسان حياة دون اتصال بالآخرين، وإذا كنت محظوظة بما يكفي لتكوني متصلة بعمق بشخص آخر،

متصلة بالقدر الذي يجعل الشخص الآخر مهمًا لك بقدر ما أنت مهمة لنفسك، فعندئذٍ تصير الحياة أكثر من ممكنة، تصير طيبة. ما نملكه طيب، لكنه لم يعد طيبًا بما يكفي، ليس بالنسبة إليّ، على أي حال، وما لا أستطيع فهمه هو لماذا تخيفك فكرة الزواج.

إنه يرى التركيز الحاد في عيني جودث، يراقبها وهي تجمع أفكارها ثم تقول، بلطفها المعهود: وضعانا مختلفان تمامًا، يا سي. أنت فقدت آنا بعد زواج طويل وجميل، وحطمك فقدها لسنوات. أنا خرجت من زواج طويل ووحشي مع رجل كرهته، وفرحت حين حزم حقائبه وغادر. حدث ذلك منذ أربعة أعوام فقط، ومنذ ذلك الحين وأنا امرأة حرة، ما زلت مسؤولة عن عملي بالطبع، لكن عدا عن ذلك أنا مديرة نفسي، أتحكم تمامًا في كل قرار أتخذه. ذلك ما يجعلني أتردد على نيويورك بتلك الكثرة، لأنني أريد ذلك. أدعى إلى كل الأشياء، وإذا كان هناك مؤتمر أو عرض سينمائي أو إطلاق وأريد الذهاب إليه، فإني أذهب إليه. أستمتع بالضجيج المحيط، إنه ينعشني، ثم أعود إلى برنستون لأعطي دروسي وأكون معك، الرجل الذي أحب، الرجل الذي أريد المضي في حبه طالما هو يتقبلني، وهو ما آمل أن يستمر إلى الأبد، وكيف لي أن أطلب ما هو أكثر من ذلك؟ إنها الحياة طالما حلمت بها، يا سي، والآن وأنا في غمرتها أعيشها بقدر ما أستطيع.

يستمر الحوار لساعتين ولكنهما بعد مضي عشرين أو ثلاثين دقيقة من الحوار يبدآن بتكرار نفسيهما، يتنقلان جيئة وذهابًا على الأرضية نفسها بتعديلات طفيفة في مقاربتهما للمشكلة،

ذلك أنه على الرغم من موقفيهما المتعارضين مما يجب فعله في الخطوة القادمة. فإن كل واحد يدرك وجهة نظر الآخر ويستطيع حتى أن يتعاطف معها، ولكن بقدر ما يؤيد توق جودث إلى الحرية والاستقلال وتحقيق الذات، فإنه يقول لها إن من غير المعقول أن تظن أن تلك الأشياء ستسلب منها لو عاشا معًا، الأمر الذي يقود إلى الموضوع الحساس، زواجهما الأول، وكيف أنه وآنا كليهما وجدا الحرية وتحقيق الذات بينهما يعيشان معًا في البيت نفسه، في حين أن جودث، كما تقول، وجدت نفسها تختنق بصورة متزايدة بسبب جو المتهور المغرور، ما يفسر لماذا هي مترددة في المغامرة، بينما هو يثب إلى الأعلى والأسفل على لوح القفز متلهفًا للغطس. تقول إنها تحتاج إلى وقت وعليه ألا يضغط عليها لاتخاذ القرار حين لا تكون جاهزة، وهو الصحيح، كما يتبين لبومغارتنر، بل هو أقرب إلى الإنذار، ولذا يتراجع بدلًا من متابعة الحجج التي سار عليها، مغلقًا فمه عندما كان يوشك أن يخبرها أن لا شيء من ذلك له علاقة بآنا أو جو وأن السبب في كون هذه المسألة أكثر إلحاحًا بالنسبة إليه مما هي بالنسبة إليها هو أن لديها من الوقت أكثر مما لديه، وبناء على تفسيرها لكلمة وقت فإن ثمة فرصة قوية أنه سيكون قد مات قبل أن تتخذ قرارها. ومع ذلك فإن هذا الانسحاب الاستراتيجي إلى الصمت يبدأ بتخفيض درجة حرارة الغرفة، وقبل مضي وقت طويل ها هي ذي تمنحه تنازلًا مهمًا. إحدى الصعوبات في ترتيبهما الحالي أن يومين أو ثلاثة ايام غامضة أكثر مما ينبغي. يوما الثلاثاء والخميس كانا ثابتين إلى حد ما على أساس أنهما «اليومان»،

لكن اليوم الثالث ظل مصدر إزعاج المرة تلو الأخرى؛ ما أدى إلى الخلط المقلق في الاتصالات والرسائل للتأكد مما إذا كان مؤكدًا أو غير مؤكد، فإن كان مؤكدًا فهناك خلط آخر لتوضيح ما الزمان والمكان والكيفية، فإن ألغي فإنه ينتهي إلى الشعور بالقرف من نفسه لبذله كل ذلك الجهد الضائع في شيء يتبين أنه ليس أكثر من لاشيئبرغر[1] مليء بالدهون وفاسد. لن أشكك في حاجتك إلى المزيد من الوقت للإجابة عن السؤال الكبير، لكن بالنسبة إلى السؤال الأصغر، يبدو لي أن من الأفضل لنا معًا لو وافقنا على اليوم الثالث، الذي يبدو أنه سيكون يوم سبت، لذا لنجعله يوم سبت، جاء الطوفان أو لم يأت، وإن كان اليوم الذي تريدين الذهاب فيه إلى نيويورك يوم سبت، فسأذهب معك وأحضر أي مؤتمر أو عرض أو افتتاح تخططين للذهاب إليه، ثم نقضي الليل في فندق أنيق ونطلب من خدمة الغرف فطورًا متأخرًا صباح الأحد. هذا ما لم يكن لديك صديق مخبأ في جحر سري على الأفنيو الثاني، فعندئذٍ طبعًا لن أصر.

تغتنم جودث الفرصة لتضحك من تقليد بومغارتنر الضعيف لبطل أحد الأفلام. تقول له: لا تجعل نفسك حكيمًا علي يا سيّد. لدي صديق واحد في حياتي، فهمت؟ والحروف الأولى من اسمه مثل حروفك، فهمت؟ لذا أغلق فخك[2] وقبلني.

هكذا ينتهي الحوار. رفضته جودث، لكنها في الوقت نفسه

(1) "لاشيئبرغر" تحاكي المفردة الإنجليزية المركبة التي يبدو أن الكاتب اخترعها: nothingburger، او ساندويشة الهامبرغر التي ليس فيها سوى الدهون أو الفاسدة.
(2) الفخ trap الذي شعرت انه نصبه لها حين أشار إلى احتمال وجود شخص آخر في حياتها.

منحته كسرة صغيرة يفترض أن تشعره بالامتنان، وهو ما يشعر به، في تقديره، ومع ذلك فبعد القبول بذلك القليل وقد أمّل بالكثير، يدرك أنه أُنزل إلى مستوى المستجدي، يطرق الباب الخلفي للقصر يتسول من الخادمة الملكية التي تغسل الأطباق بعض بقايا الطعام من طبق الملكة.

أثناء مشيه إلى بيته بعد ظهر اليوم التالي، اليوم الذي يسبق بأربعة أيام الذكرى العاشرة لموت آنا، يدرك أنه سيتزوج مرة واحدة في حياته. ستستمر جودث في تأجيله حتى ييأس ويمضي في سبيله أو يبقى كما هو ويقبل بالاستمرار يلعب دوره حسب القواعد التي وضعتها إلى أن يحين اليوم الذي تتركه فيه. إنه مسن بالنسبة إليها، ولن تتزوجه أبدًا، مع أنها تحبه بطريقتها، ربما بقدر حبه لها، لكنه مجرد وقفة في حياته بينما تتعافى من الجراح التي خلفتها أعوامها مع جو، وما إنْ تقف على قدميها ستقع في حب شخص أكثر شبابًا وإثارة منه وسيكون كل شيء في مكانه.

لأن كل هذا سيحدث في غضون الأشهر التسعة القادمة، ولأن جودث لن تترك بومغارتنر لرجل آخر فقط وإنما ستترك نيوجيرسي وتتجه إلى كاليفورنيا لتشغل كرسي في قسم الفلم في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس، فسنتجاوز تفاصيل تلك الأشهر. بدلًا من ذلك سننهي هذا الفصل ببومغارتنر جالسًا إلى مكتبه، قلمه في يده، بعد ساعة من عودته من بيت جودث في 12 أغسطس، 2018. إنه يخربش واحدة أخرى من الحكايات المتخيلة القصيرة التي كتبها عبر السنين، أشياء لا أهمية اعتاد أن يرميها

في درج ولم يهتم بعرضها على أحد، ولا حتى آنا. ومع ذلك فإنه يمضي في كتابتها في لحظات التوتر العالية، وبما أن معنويات بومغارتنر عند مستوى متدنٍ في تلك الظهيرة وهو يندب موت ما أحس أنه آخر فرصة له للحب، فلربما ستعين هذه المسامرة القارئ على فهم الحالة الذهنية لبطلنا في تلك اللحظة بعينها وفي ذلك اليوم بعينه.

حكم بالسجن مدى الحياة

كنت للتو قد تجاوزت السابعة عشرة حين أصدر القاضي في الدائرة الشمالية حكمه عليّ بما سماه «حياة لصناعة الجُمل». كان ذلك منذ أكثر من نصف قرن، ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش وحيدًا في زنزانة في الطابق الثالث من الإصلاحية رقم 7. أعترف بأن الحكم كان قاسيًا، لكن إنصافًا للمسؤولين، لم يغلق باب زنزانتي مطلقًا، وفي ذهني قليل من الشك في قدرتي على الخروج من هنا متى شئت. وليس الأمر أنني لم أجد ما يغري، ولكن لأسباب لم أستوعبها تمامًا، شئت أن أبقى.

سجاني الذي صار عجوزًا الآن، على الأقل بنفس سني إن لم يكن أكبر، لم يسبق أن قال لي كلمة واحدة. لأكثر من خمسين عامًا، كان يأتي بوجبات الطعام ثلاث مرات في اليوم، وكان ثلاث مرات في اليوم على مدى العشرين عامًا الأولى يضحك كلما دخل ورآني منحنيًا على الطاولة أعمل على جملي. وعلى مدى العشرين عامًا التالية كان يضع يده على فمه ويضحك ضحكة

نصف مكبوتة. الآن صار يكتفي بهز رأسه والتأوه.

وكان هناك سجين آخر في الزنزانة على بعد بابين عني، رجال اسمه برونسون أو براونسون، وكنا نتحدث أحيانًا عن الطعام والبطانيات الخفيفة على سررنا، لكن برونسون أو براونسون لم يقل لي شيئًا طوال الأعوام الخمسة أو الستة الماضية، ما يعني ربما أنه ميت. لا شك أنهم حملوه ذات ليلة بينما كنت نائمًا.

من صمت الممر هذه الأيام أشك أنني الوحيد الباقي في جناح الحبس الانفرادي من السجن. يوحي المكان بالوحشة، كما أظن، لكنه ليس سيئًا جدًا. تتطلب الجملة جهدًا كبيرًا، والجهد الكبير يقتضي تركيزًا عظيمًا، وبما أن جملة واحدة يتحتم عليها أن تتبع أخرى لبناء عمل يتألف من جمل، فإن المطلوب هو التركيز الكبير طوال اليوم، ما يعني أن الأيام تمضي بسرعة بالنسبة لي، كما لو أن كل ساعة تسجلها الساعة ليست أطول من دقيقة. بعد خمسين سنة وأكثر من الأيام التي تمضي بسرعة، تبدو حياتي كما لو أنها مضت في غمضة عين. صرت عجوزًا، وطالما استطعت إمساك قلم الرصاص بيدي ورؤية الجملة أمامي، فسأمضي على نفس الروتين الذي أتبعه منذ الصباح الذي وصلت فيه إلى هنا. وإن جاءت اللحظة أخيرًا التي لا أتمكن فيها من الاستمرار، فكل ما علي فعله هو أن أقف وأغادر. وإن بلغ بي العمر أنني لا أستطيع المشي عندئذٍ، فسأطلب من سجاني أن يساعدني. أنا متأكد من أنه سيسعد برؤيتي أغادر.

4

بعد سنة وشهر يجلس بومغارتنر إلى نفس المكتب في نفس الغرفة حائرًا حول إنْ كان عليه أن يحتفظ بالجملة التي كتبها للتو أو حذفها والبدء مرة أخرى. يحذفها، لكن قبل أن يبدأ من جديد يرفع نفسه من الكرسي، يمشي نحو الشباك المفتوح، وينظر أسفل نحو الفناء الخلفي. إنه عصر بديع مشمس منتصف سبتمبر، أحد تلك الأيام اللا مبالية التي تمسك بك من تلابيبك وترفسك خارج البيت، ولذا بدلًا من العودة إلى مكتبه ومعاركة الجملة للمرة الثالثة أو الرابعة، يستسلم بومغارتنر لإغراء الطقس ويترك الغرفة متجهًا إلى الفناء الخلفي، حيث يجلس على أحد كراسي الحديقة متوسطًا ما بين الجلسة الخارجية وشجرة القرانيا. يربّت على الجيب الأيسر من قميصه ويكتشف أنه فارغ. النظارة الشمسية ليست معه. لابدّ أنه تركها في الغرفة أمس، ولكن مع أن الضوء شديد السطوع هذا العصر، فليست لديه رغبة في تسحيب قدميه إلى المنزل للبحث عنها. في يوم كهذا، يقول لنفسه، من الأفضل ترك الشمس تقوم بعملها في إضاءة العالم وأن تحمل كل شيء إلى الداخل بعينين عاريتين وبلا حماية.

يتطلع إلى الأعلى بشبه إغماضة في الهواء بينما يعبر فوقه طائر. يحدث نفسه: يا لها من سحب بيضاء ملصقة على كل تلك الزرقة، الزرقة التي لم تضاهها زرقة سماء رآها منذ أعوام. يفكر: كم هي رائعة. الأرض مشتعلة، العالم يحترق، لكنّ ثمة أيام تبقت مثل هذا اليوم وبإمكانه الاستمتاع به طالما أتيح له ذلك. من يدري إن كان هذا هو اليوم الجميل الأخير الذي سيراه — أو

اليوم الأخير بالمطلق؟ ليس أنه يتوقع أن يسقط ميتًا قبل أن تستيقظ الطيور غدًا صباحًا، لكن الحقائق حقائق، والأرقام لا تكذب. إنه في الواحد والسبعين الآن وفي الأفق عيد ميلاد قادم موعده بعد ستة أسابيع، وبمجرد دخولها في تلك المنطقة من التقلص تنتهي كل الرهانات.

ينظر بومغارتنر إلى الأسفل وفي نيته دراسة العشب عند قدميه، لكن ما إن ترحل عيناه إلى الجنوب حتى تتعثر الرحلة بمنظر الكرش البارز من حيث كان ذات يوم بطنًا مستويًا وبسحاب البنطلون الذي لم يكن مسحوبًا كما ظنه، كان مفتوحًا على الآخر. يصاب بومغارتنر بالذعر. ليس مرة أخرى! يصرخ بينه وبين نفسه. استمر على هذه الطريق أيها الأحمق ولن يطول الوقت قبل أن تنسى اسمك.

في السابق، حين كان ما يزال في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، بدأ يلاحظ أن العديد من أصدقائه وزملائه الأكبر سنًا كانوا ينسون إغلاق سحّاباتهم بعد ذهابهم إلى دورة المياه، أولئك الذين ابيضت شعورهم ممن هم في أواسط السبعينيات وأوائل الثمانينيات الذين يعودون إلى مقاعدهم على طاولة المطعم لا يحسون بالأبواب المفتوحة تحت أحزمتهم. في البداية كان بومغارتنر يستمتع بتلك الأخطاء البسيطة. ثم صار يشعر تجاهها بمزيج من المتعة والحزن. ثم صار حزينًا وغير مستمتع إطلاقًا، لأنه شاهد ما يكفي من تلك ليدرك أن السحاب المفتوح هو بداية النهاية، الخطوة الأولى على طريقك المنحدر عبر التلة إلى قاع العالم. والآن وقد بدأ ذلك يحدث له –أربع مرات على

مدى أسبوعين– فإنه يتساءل عن عدد الأشهر أو السنوات التي تبقت قبل أن يصبح عضوًا كامل العضوية في النادي.

يخطر بباله أنه لا يمكن فعل شيء، لا شيء أبدًا. ففقدان الذاكرة القصير المدى جزء حتمي من التقدم في العمر، وإن لم يكن نسيان سحب السحاب، فسيكون المشي في المنزل بحثًا عن نظارة القراءة بينما أنت تمسكها بيدك، أو النزول إلى الطابق الأسفل للقيام بمهمتين صغيرتين، استعادة كتاب من غرفة الجلوس وصب العصير في كأس بالمطبخ، ثم العودة إلى الطابق الثاني بالكتاب دون العصير، أو العصير دون الكتاب، أو دونهما جميعًا لأن شيئًا ثالثًا شتت انتباهك في الطابق الأرضي وعدت إلى الطابق الأعلى خالي اليدين، نسيت لماذا نزلت إلى الطابق السفلي ابتداءً. ليس الأمر أنه لم يفعل تلك الأشياء حين كان شابًا، أو لم ينس اسم هذه الممثلة أو ذلك الكاتب أو يغيب عنه اسم وزير التجارة، لكن كلما كبر الإنسان ازداد حدوث هذه الأشياء، وحين تتكرر في الحدوث إلى درجة أنك لا تكاد تعرف أين أنت ولا تستطيع متابعة حالتك في الوقت الحاضر، ستكون انتهيت، حيًا لكنك انتهيت. اعتادوا أن يسموه خرف (senility). الكلمة الآن تدهور عقلي (dementia)، لكن مهما يكن، يعرف بومغارتنر أنه حتى إن انتهى به الأمر إلى تلك الحالة، فلا يزال الطريق طويلًا. لا يزال قادرًا على التفكير، ولأنه يستطيع التفكير، فإنه يستطيع الكتابة، ومع أنه يحتاج إلى وقت أطول لإنهاء جمله، فإن النتائج هي نفسها تقريبًا. جيد. جيد أن أسرار العجلة يحقق تقدمًا، وجيد أنه توقف عن العمل في وقت مبكر اليوم وأنه يجلس في

الفناء الخلفي في فترة العصر الرائع، تاركًا أفكاره تنزلق حيث شاءت، ومع كل هذا الدوران حول مسألة الذاكرة القصيرة، يبدأ يفكر بالذاكرة الطويلة أيضًا، ومع تلك الكلمة طويلة تبدأ صور من الماضي البعيد تومض في زاوية قصيّة من ذهنه، وفجأة يشعر بما يحثه على البدء بشق طريقه بين الشجيرات الكثيفة في المكان لمعرفة ما يمكنه اكتشافه هناك. وهكذا بدلًا من أن يمضي في التطلع إلى السحب البيضاء والسماء الزرقاء والعشب الأخضر، يغلق بومغارتنر عينيه، يدفع ظهره للخلف في كرسيه، يميل بوجهه تجاه الشمس، ويقول لنفسه استرخِ. العالم شعلة حمراء تحترق على سطح جفنيه. يواصل التنفس شهيقًا وزفيرًا، شهيقًا وزفيرًا، يدخل الهواء عبر منخريه ويخرجه عبر شفتيه نصف المفتوحتين، ثم، بعد عشرين أو ثلاثين ثانية، يقول لنفسه تذكر.

أولى الذكريات التي تعود رحلة عائلية إلى واشنطن في ربيع 1956، المرة التي استطاع فيها والداه المنهكان من العمل أن يستجمعا قواهما لمدة تكفي لرحلة خارج حدود نيوارك، المرة الأولى التي ينام فيها أعضاء أسرة بومغارتنر الأربعة في مكان غير شقتهم في شارع ليونز، الواقعة مباشرة فوق مقر عمل والديه، «أزياء تروكاديرو»، محل الملابس الذي لم يكن يحقق سوى ربح هامشي والذي يلبي احتياجات نساء الطبقة الوسطى والدنيا في الحي. كانت سن بومغارتنر ثماني سنوات ونصف، وكانت نعومي لم تبلغ الخامسة بعد. عند الساعة السابعة من صباح الجمعة، الذي كان اليوم الوحيد الذي سمح فيه لبومغارتنر

أثناء طفولته بأن يتغيب عن المدرسة، علق والده إعلانًا على باب «أزياء تروكاديرو» تقول: «نعود الاثنين». بعدها تكوم أربعتهم في السيارة الشيفرولية الزرقاء ذات الطعجة التي خرجت من خط التجميع في كلنكرسفيل عام 1950، وانطلقوا نحو عاصمة البلاد في صباح مشرق في سمائه سحب بيضاء وسماء زرقاء تحولت إلى عصرية تشبه هذه بطريقة غريبة، وهو ربما ما يفسر تذكر بومغارتنر تلك الرحلة الآن. بمجرد وصولهم دخلوا فندقًا (نسي الآن باستثناء أل التعريف التي تسبق الاسم)، والذي كان أول فندق نام فيه هو وأخته، وحسب ما ذكرت أمه، كان أول فندق ذهبت إليه مع والده منذ شهر العسل في «الكاتسكيل» قبل ثلاثة عشر عامًا. بالنسبة إلى نعومي، التي كان رأسها في ذلك الوقت مليئًا بحكايات للأميرات الجنيات، والسحرة الشريرين، والخطّاب من الشبان الأبطال الذي يلبسون الضيق والقبعات المخملية، كان الفندق كبيرًا ومتلألئًا إلى حد أنه كان وبكل تأكيد قصرًا مسحورًا، حتى إن بدا المكان لعيني بومغارتنر الأقل اندهاشاً رثًا ومستهلكًا، بسجاد بالٍ وبقع مائية على سقف الحمام.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل. وقفة قصيرة بينما هو ووالداه ينزلون حقائبهم ونعومي تجري هنا وهناك بين الغرف المتداخلة وترمي بنفسها على الأسرة، ثم خرجوا لاستكشاف المناظر في ذلك الطقس الجميل في شهر مايو، قبة الكابيتول، البيت الأبيض، مبنى المحكمة العليا، أشجار الكرز المزهرة، ساحة «المول»، النصب التذكاري، الذي قُدّس في كرسيه

الرخامي الهائل[1]، ولكن بينما سار أربعتهم عبر شوارع المدينة، كان توتر أخته يزداد، تصير أكثر انزعاجًا حول شيء ما إلى أن انفجرت باكية. صرخت: أريد الذهاب إلى واشنطن! لكنك الآن في واشنطن، قال لها بومغارتنر ووالداه. انظري حولك. كل ما ترينه هو واشنطن. لا، أصرت، والدموع تنهمر على وجهها، ليس هذه الواشنطن – واشنطن الحقيقية! لم يفهم أحد ما كانت تقصد. ولأنه لم يجد طريقة لطمأنتها، التقطها أبوها وحملها في ذراعيه لكي يواصلوا المشي. بعد دقيقتين نامت، وحين عادوا إلى الفندق بعد ساعة ونصف، صحت أخته بعد ثوانٍ فقط من دخولهم الباب. نظرت إلى اللوبي حولها وابتسمت. قالت: هذا أفضل. الآن عدنا إلى واشنطن الحقيقية.

لكم أعجبت به حين كانا صغيرين، الأخ الكبير الذي يرعاها ويناقشها ويطمئنها أثناء العواصف المزاجية التي تهزها من الأعماق والتي كانت تعصف بها كل فترة فتخرج عن الطور الذي كان يسليها بالحكايات عن الناس الخفيين الذين يعيشون على كتفه اليسرى ولا يتوقفون عن إزعاج فاعلي الشر المخيمين على كتفه اليمنى، عن سي الهائل القوة الذي يستطيع فعل المعجزات وحمايتها من مصائب العالم، كيف كانت تعده مثالًا يحتذى عندئذٍ، وكيف، شيئًا فشيئًا، تخلى عنها حين تجاوز طفولته ووقع في مراهقته، متوصلًا ببطء إلى النتيجة القاتمة أن البيت ليس أفضل مكان له، أنه كره الشقة المتهالكة القبيحة ومحل الملابس

---

(1) الرئيس الأمريكي أبراهام لنكون Lincoln.

البائس في الأسفل، وأنه لذلك هام بعيدًا عنهم وربط نفسه بعالم أصدقائه الذي لم يمض وقت طويل قبل أن يصبح عالمًا يتجاوز نيوارك، ذلك أن سي المحظوظ كان تلميذًا ذكيًا إلى درجة أنهم سمحوا له بتجاوز سنة دراسية حين كان في الثانية عشرة، ولأن عيد ميلاده يقع في نوفمبر تخرج من «ثانوية ويكيواهك» حين كان في السادسة عشرة وغادر بعيدًا إلى الأراضي المنبسطة من ريف أوهايو في منحة دراسية مدتها أربع سنوات في «كلية أوبرلين» التي مر عليها مرورًا في ثلاث سنوات ونصف، تاركًا نعومي ذات الثانية عشرة لتدافع عن نفسها في الشقة البائسة فوق محل الملابس، وهكذا حدث أن الأمير المعطاء في طفولتها المبكرة تحول إلى ضفدع كريه لا رحمة في قلبه. أو إلى غائط. أو إلى ضفدع على هيئة غائط.

إنه لا يلومها لاستيائها منه، لكنه كان أصغر وأكثر انشغالًا بحياته الخاصة ليشعر بالمسؤولية تجاه المخلوقة الصغيرة، الهشة والحادة المزاج التي صادف أنها تشترك معه في نفس الأبوين والتي في السنة الثالثة خصصت لها غرفته مما اضطره إلى النوم على أريكة قابلة للطي في غرفة الجلوس وأن ينجز واجباته في مكتبة المدرسة أو في بيت ديكي بيرنباوم أسفل البلك. في نهاية الأمر، لم يكن هناك أحد يراقبه حين كان في سنها، وبدا له أنها ستستطيع أن تدير شؤونها بنفسها أيضًا. كان على حق من ناحية، ومخطئ من ناحية أخرى. محق من حيث إنها كبرت لتصير عصابية حادة المزاج من النوع الشائع وليس امرأة مجنونة تهذي، ومحق من حيث إنها كانت ذكية بما يكفي للذهاب إلى الجامعة

وجميلة بما يكفي لاجتذاب رغبات الشبان على اختلافهم، وقد تزوجها أحدهم في نهاية المطاف، ولكنه مخطئ من ناحية أنه لم يفلت من شعورها بالعداء تجاهه، هو المعتد بنفسه ومنحته الدراسية وسنته الجامعية في باريس، الأستاذ العارف بكل شيء الذي رسب في الاختبار البدني للخدمة العسكرية اعتمادًا على تشخيص مزور بأن لديه صوتًا ضعيفًا في القلب وسمح له بالذهاب إلى أماكن غير معروفة، ينطنط في أنحاء البلاد ويقوم بأعمال متنافرة على مدى الأشهر السبعة التالية –مساعد نجار في ميسولا، موظف نقل في سانت بول، غاسل صحون في شيكاغو، دهان منازل في تشارلستون– دون أن يرسل شيئًا ما عدا بطاقة بريدية بالمناسبات، ثم طالب دراسات عليا في كولومبيا مع سنة أخرى في باريس ورسالته حول ميرلو «الذي تصعب معرفة بقية اسمه»[1]، كما لو أن أحدًا سيدفع شروى نقير لفيلسوف فرنسي ميت، ثم وظيفته السهلة أستاذًا مساعدًا في «المدرسة الجديدة»، بينما هي، الأخت الصغرى الأقل مستوى، التي تخرجت في كلية الولاية للمعلمين في مونتكلير ومعلمة أطفال في الحادية عشرة والثانية عشرة، كانت تحارب على **جبهة الحياة الحقيقية**، لا تتمشى في كل مكان رافعة رأسها في السحاب وتدعي أنها **مثقفة عظيمة**. يقول لها بومغارتنر، يقول ويكرر: على عكس ما قد تظنين يا نعومي، أنا أشاركك الرأي. من دونك لم يكن المستقبل ليتحقق. من دوني، كان المستقبل سيعتني بنفسه. لا

---

(1) الفيلسوف الفرنسي ميرلو بونتي (سبقت الإشارة إليه).

مجال للمقارنة. كلانا معلم، صحيح، لكن وظيفتك أكثر أهمية بكثير من وظيفتي. فترد نعومي: ها!

يتوقف بومغارتنر في منتصف الفكرة ويسأل نفسه عمَّ يعمله بحق الجحيم. لماذا يعود إلى الماضي ويهزم ذلك الحصان الميت في حين أن المفترض به أن يزحف في الغابة وفي اليد مدمّة ولعبة في شكل مجرفة يحفر بها كنوزًا صغيرة من العصر الحجري، في أنفه الوخزة وفي حلقه اللذعة حين اختلس جرعته الأولى من الويسكي حين كان في الثانية عشرة، مثلًا، أو الحرارة الغامضة التي انتشرت في جسده حين جرب انتصابه الأول أثناء المراهقة، أو جرب، في الخامسة عشرة، التأثير الساحق المستدر للدموع نتيجة الاستماع إلى سيمفونية **عاطفة القديس ماثيو** للمرة الأولى. أو، لو سرنا في اتجاه مختلف قليلًا، أن يستعيد لحظات المشي عبر انجرافات الثلج التي تصل إلى المنتصف حين كان صغيرًا أو يتسلق الأشجار حين صار ولدًا أكبر أو أن يعيد اللكمة التي تلقى على يد مغفل يرتدي جاكيت أسود من جاكيتات سائقي الدراجات النارية ويحب مضايقة اليهود، أو، وقد يكون هذا أقوى صلة، أن يبحث عن السبب في أن بعض اللحظات العشوائية تبقى في الذاكرة بينما غيرها، من تلك المفترض أنها لحظات أهم، تختفي للأبد. تخرجه من الثانوية تبخر تمامًا الآن، على سبيل المثال، ولون دراجته الأولى انمحى، ولم يتبق شيء يذكّر بأحد من الطلاب الذين جاؤوا إلى درسه الصباحي المبكر

حول ما قبل السقراطيين[1] ثلاث مرات في الأسبوع في الفصل الدراسي الأول في «المدرسة الجديدة»، لم يبق حتى اسم واحد، أو وجه واحد، لكنه يتذكر البنت الصغيرة في القطار منذ نصف قرن وفكر فيها مئات المرات منذ ذلك الحين. لماذا تلك الفتاة، التي لم يتحدث معها، وليس أي من الأربعة عشر أو الخمسة عشر طالبًا؟

كانت نهاية الوقت الذي قضاه على الطريق، الأشهر الوعرة من الصمت، العمل البدني، وتحليل الذات الذي لا يهدأ، في نهاية صيف 1968، سنة النار والدم التي تذكر بسفر الرؤيا، السنة التي عاشت فيها أمريكا انهيارًا عصبيًا جماعيًا، وها هو ذا هناك مسافر من تشارلستون إلى نيويورك على قطار رخيص لنقل الحليب يستغرق أربعًا وعشرين ساعة من البداية حتى النهاية مع وقفات في كل بلدة تافهة على الطريق. بعد ست أو سبع وقفات منذ صعد القطار، صعدت الفتاة الصغيرة مع أمها، كلاهما بلباس تخيل بومغارتنر أنه يلبس للكنيسة يوم الأحد، كنيسة للسود في هذه الحالة، لأن الفتاة وأمها كانتا من السود، من السود الجنوبيين في وقت كانت فيه قوانين جم كرو[2] ما تزال تتنفس على الرغم من الإعلان عن وفاتها من الناحية القانونية، وأن تصعد إلى قطار مختلط عرقيًا ولعدة ساعات تحت النظرات

(1) الفلاسفة اليونانيون الذين سبقوا سقراط مثل ثاليس وهيراقليطس وأناكزيماندر.

(2) قوانين "جم كرو" فرضت في الجنوب الأمريكي نهاية القرن التاسع عشر لتثبيت الفصل العنصري بين البيض والسود، واسم جم كرو Jim Crow اسم تحقيري يطلق على الأمريكي الأسود. لم تلغ تلك القوانين حتى عام 1968.

المتفحصة للبيض تطلب منك أن تبدو كأفضل ما تكون وأن يكون سلوكك في أعلى مراتب الوقار والهدوء. جلستا في مقعديهما يفصلهما عن بومغارتنر صفان على الجانب الآخر من الممر، ولأن الأم والبنت كانتا تواجهان الجنوب وبومغارتنر الشمال، كان يمكنه رؤيتهما بوضوح طوال رحلتهما التي، إن لم يكن مخطئًا، انتهت في واشنطن بعد تسع أو عشر ساعات. إنه لا يتذكر إن كانوا قد أحضروا طعامًا أو إن كانوا توقفوا لتناول الطعام أثناء الطريق، لكن ما يتذكره هو أن البنت الصغيرة كانت تلبس قفازًا أبيض، بياضه ناصع كبياض السحب التي تتحرك في الأعالي في تلك العصرية، وقفازات بيضاء نقية، وفستان حفلة منشّأ ومكويًا، نسي لونه الآن، وجوارب بيضاء قصيرة. حذاءا ميري جين على قدميها[1]، شخص صغير مرتب بطريقة تثير الإعجاب، دلالة على عناية دقيقة تلقاها هذه الطفلة من أمها، لكن الأكثر إثارة للإعجاب بالنسبة إلى بومغارتنر كان الانضباط الذي حافظت عليه الصغيرة طوال الرحلة، جالسة دون حركة ويداها مثنيتان على حضنها طوال تلك الساعات، كتفان إلى الخلف، ظهر مستقيم، جلسة منتصبة بصورة رائعة، تدير رأسيها بين الفينة والأخرى لتنظر عبر النافذة، تهمس أحيانًا في أذن أمها، تستمع أحيانًا إلى أمها وهي تهمس بشيء في أذنها وتجيب بإيماءة أو هزة رأس أو بابتسامة. لم تكن معها دمية، أو كتابًا، أو لعبة لتجتذب انتباهها عن الملل الناجم عن حركة القطار البطيئة؛ ما يعني أنها لم تفعل شيئًا سوى

(1) أحذية ميري جين Mary Jane نوع من الأحذية تلبسها الفتيات عادة عند الذهاب إلى المدرسة أو المناسبات.

الجلوس والتطلع إلى منتصف المسافة أمامها، إما أنها تفكر أو تحلم أو تتأمل بذات الطريقة التي طالما فكر بها بومغارتنر وحلم وتأمل، دون أن تتململ كما كانت نعومي ستفعل في ذلك العمر، دون أنين أو شكوى كما كانت نعومي تفعل باستمرار حين كانت ضعف عمر البنت، وبينما كان بومغارتنر يدرس هذه الطفلة الاستثنائية، سأل نفسه إن كانت تفعل ذلك بسبب الكبرياء أو الخوف أو بسببهما معًا. لا شك أن أمها قد وجهتها حول الطريقة الصحيحة للتصرف أثناء الرحلة، لكن من المستحيل معرفة إن كانت تلك التوجيهات جاءت مصحوبة بتهديدات بأن نتائج وخيمة تنتظر إن هي لم تتصرف كما يفترض، جلد ربما أو شكل آخر من أشكال العقاب، أو، وهو الأقرب، كما شعر بومغارتنر، لأن المرأة بدت له أمًا حنونًا، امرأة حذرة بسبب الظروف لكنها مع ذلك أم حنون تدرب ابنتها على العيش في الواقع الأمريكي بالنموذج كما بالكلمة، ولأن البنت شديدة الإعجاب بأمها وأرادت أن تقلدها في كل شيء، شعر بأنها فعلت ما طلب منها فعله دون مناقشة، ولكن أيضًا دون خوف. في النهاية، أسندت البنت رأسها إلى كتف أمها، أغمضت عينيها، ونامت. وضعت الأم ذراعها حول ابنتها، نظرت إليها لبرهة ثم أدارت رأسها نحو النافذة وتأملت المشهد الذي يمر طوال الطريق حتى واشنطن.

بعد سنتين، كان هناك طفل آخر على قطار آخر، وكان هذه المرة ولد في العاشرة أو الحادية عشرة، وكان القطار تحت الأرض، ميترو باريس منطلقًا داخل النفق في طريقه من مكان إلى مكان آخر لا يتذكره الآن، ولا يتذكر أي وقت من السنة،

أو أي ساعة من اليوم، مع أنه يظن أنه كان بداية المساء لأن العربة كانت مملوءة إلى حد كبير وتزداد امتلاء بعد كل توقف، وكان بومغارتنر أثناء ذلك مزروعًا على أحد المقاعد بينما العديد من الركاب الآخرين على أقدامهم، متمسكين بالقضبان والأحزمة السقفية، عربة ميترو قديم وكثير الضجيج بعجلات معدنية تصدر أصوات احتكاكٍ أثناء سيرها على القضبان الحديدية وبأبواب جميلة مصنوعةٍ من الخشب المكسو بالورنيش لها مقابض فضية لا بدّ من دفعها بالمسكة لفتح الباب. ما زال بإمكانه رؤية تلك الأشياء، الإحساس بها – أشياء ضئيلة الأهمية لكن يتعذر محوها من ماضٍ لم ينمح وماضٍ انمحى. لا بد أنه تطلع إلى الأعلى أثناء قراءته الكتاب أو الصحيفة التي بيده، ذلك أنه اكتشف في لحظة ما أنه كان ينظر إلى الولد وأبيه اللذين كانا يقفان أمامه مباشرة عند أحد القضبان وجهًا لوجه، واقفان صامتان معظم الوقت، مع أن أحدهما كان يميل إلى الأمام ويقول شيئًا للآخر، لكن عجلات القطار كانت أعلى من أن تسمح لبومغارتنر بتبين الكلمات التي كانا يقولان. الولد الذي كان في العاشرة أو الحادية عشرة كان وسيمًا، ذا حجم متوسط، لا هو بالهزيل ولا الممتلئ، لا هو بالأسمر ولا الأبيض، عمل تحت الإنجاز، بدا أنه ولد عميق، وحسن السلوك، في رحلة مع أبيه، ومن نظرات عينيه، بدا لبومغارتنر أنه التقط ما يُلمح إلى رضى هادئ، ما يوحي بأن خروجه وحيدًا مع أبيه كان حدثًا نادرًا. أما الأب نفسه، فقد بدا أنه أكثر من كتلة من الجلد البشري، رجل ذو بطن لين، ووجه رمادي كان يمكن أن يكون موظفًا صغيرًا أو موظف بنك أو عامل

مكتب من نوع ما، ذلك النوع الممحل الذي لم يتجاوز أواخر الثلاثين أو أوائل الأربعين لكنه استهلك بوظيفته أو حياته أو العالم ولم يكن لديه أمل في الوقوف على قدميه مرة أخرى. أو هكذا تخيل بومغارتنر، مع أنه قال لنفسه إن من الأرجح أنه مخطئ. ذلك أن كل ما عرفه هو أن الولد الذكي الواعد كان يمكن أن يكون لصًّا صغيرًا وقاتلًا في المستقبل، والأب المرهق كان يمكن أن يكون أنموذجًا للقوة والصلابة الداخلية. عندئذٍ، في خضم تلك التأملات المختلطة، التي لا تزال في ذهن بومغارتنر حتى اليوم، مال الولد إلى أبيه وقال شيئًا، وبعد لحظة غير الأب وقفته وصفع الولد على وجهه. كانت صفعة قوية عنيفة بلا سبب واضح – كانت بصوت يشبه إطلاق النار من مسدس، وبسرعة رصاصة أطلقت على صدر الولد. طوال تسعة وأربعين عامًا وبومغارتنر يفكر في ما قاله الولد ليتسبب بردة الفعل الحادة والمهينة تلك، ومع أنه يعرف أنه لن يعرف، فإنه يتساءل عمَّ يمكن أن تكون. ذهل الولد إلى حد أنه لثانية أو ثانيتين وقف هناك، بلا حراك، ثم رفع يده وضغطها على الخد الذي تعرض للهجوم، الخد الذي لا بد أنه كان يحرق بصورة مؤلمة جدًا في تلك اللحظة، وبعد لحظة خفض رأسه ونظر إلى الأسفل، وجهه متغضن ببؤس، مع أنه حاول جاهدًا أن يقاوم الدموع التي كانت تتجمع في عينيه. أما الأب فنظر شاعرًا ببؤسه هو، مرعوبًا بما فعل، متراجعًا عن الغضب الذي انفجر من يده ودفعه إلى مهاجمة ابنه، كما لو أنه للمرة الأولى منذ صار أبًا بدأ يدرك أن للآباء سلطة غير محدودة على أبنائهم، وإساءة استخدام تلك السلطة يعني أن

تحول نفسك إلى مستبد وبلطجي. مهما يكن ذلك الذي فكر فيه الأب، فلم يستطع أن يدفع نفسه للتحدث إلى ابنه الذي كان يبكي بكاء حقيقيًا الآن وما زال يثبت نظره على الأرض. مد الأب يده إلى جيبه، وهو في منتهى الحيرة، وأخرج منديلًا مده للولد من زاوية متدنية بما يكفي ليراه الولد، مع أنه رفض أن يرفع عينيه عن الأرض. أخذ المنديل وغطى وجهه به، مواصلًا رفضه أن يرفع عينيه إلى الأعلى. لم يقل الأب شيئًا. بعد عشرين ثانية، توقف القطار عند محطة بومغارتنر. نهض عن مقعده، مشى إلى الأبواب، أدار المزلاج المعدني إلى أن انزلق الباب منفتحًا، فخرج إلى الرصيف. التفت ليلقي نظرة أخيرة، لكن الابن وأباه كانا متواريين بسبب حشد الركاب على القطار.

لم يسبق لأبيه أن صفعه. ولم يسبق له مطلقًا أن ضربه أو رفسه أو حتى ضربه على قفاه، لكن والد بومغارتنر كان كبير السن، ومن يدري إن كان سيضربه بين الحين والآخر لو أنه كان أصغر سنًا وأكثر حيوية. ولد الأب في وارسو عام 1905 وتوفي في نيوارك عام 1965. لم تكن حياة طويلة بالمقاييس المعاصرة، لكن كيف يمكنك أن تتوقع الاستمرار حتى الخرف إذا كنت تستهلك أربع علب سجائر يوميًا وتعتمد على غذاء يتألف في المقام الأول من حساء البرش، السردين المخلل، والبيض الشديد السلق؟ ليس سرطان الرئة وإنما انسداد رئوي، أي نفس الشيء ولكنه أسرع وأكثر تأثيرًا: جلطة ضخمة تنتقل من ساقك لتغزو رئتك اليسرى، وبعد دقيقة تكون هباءة في الغبار الكوني.

للمرة الثانية خلال الدقائق الخمس الماضية، يتوقف بومغارتنر في منتصف التفكير ويتساءل عمّ يفعل. آخر ما يود فعله هو قضاء بعد الظهر يفكر بعائلته، ولكنه مع ذلك بدأ هذه النزعة الصغيرة إلى الماضي بتذكر رحلة عائلية إلى واشنطن، الرحلة التي قادت إلى كل ذلك الكلام الذي لا معنى له عن أخته، وها هو ذا الآن متجه إلى والده. ليس أنه لم يحاول توجيه نفسه بعيدًا عن الموضوع، لكن حتى حين استدعى تلكما القصتين حول الأطفال على القطارات وفكر بالبنت مع أمها والولد مع أبيه، فقد كان أيضًا يفكر في نفسه ووالديه، فمن الواضح له الآن أن الطفلين لم يتوقفا عن مطاردته كل هذه الأعوام لأنه رآهما كما لو كانا يمثلانه حين كان طفلًا، وإن لم يكن هناك مهرب من المنطقة التي مشى إليها مخالفًا رغبته، والتي دخلها في الواقع حسب رغبته تمامًا، فتبًا إذًا، يقول بومغارتنر لنفسه، لنسرج الحصان العجوز ونركبه حتى النهاية.

تيكومسيه. ذلك هو، وربما قبل أي شيء آخر، الاسم الأوسط الذي منحه إياه أبوه النكد والعنيد، ما مكن بومغارتنر أن يتجاهل اسم **سيمور** المزعج ويوقع كتبه ويسيّر حياته المهنية تحت اسم س. ت. بومغارتنر. كان في المقام الأول اسمًا غريبًا تمنحه أسرة أمريكية بيضاء لابن ولد في منتصف القرن العشرين، ناهيك بأن يكون ابنًا يهوديًا أمريكيًا من نيوارك جاء عن طريق بولندا ويشير شرقًا إلى بولندا، لكن اتضح أن أباه الذي علم نفسه وكان قارئًا نهمًا، الذي سمى نفسه **فوضوي-سلمي ومحارب ملحد**، كان يضع زعيم قبيلة «الشوني» فوق كل الأمريكيين بالمطلق وأنعم على

ابنـه اسـم «تيكومسـيه» ليكـون وسـام شـرف. فـي الأيـام التـي تلـت مـوت والـده، حيـن كان بومغارتنـر لا يـزال فـي السـابعة عشـرة، وجد مغلفًـا ضخمًـا غيـر مختـوم يحمـل الكلمـات التاليـة: **إلى ابنـي فـي اليوم الأول مـن حياتـه.** كان المفتـرض بالرسـالة أن تسـلم لـه فـي عيـد ميـلاده الثالـث عشـر، لكـن تبعًـا لعـادة الأب فقـد وضعهـا بعيـدًا ثـم نسـيها. ومـع ذلـك فقـد وضحـت الفقـرة الأخيـرة بأسـلوب الأب المبالـغ بـه والمليء بالمحسـنات لمـاذا تميـز تيكومسـيه مـن حيث هـو شـخصية هامة بالنسـبة إليه ... لأنه كان رجلًا ذا شـجاعة وإنسـانية، وعلـى أعلـى مسـتويات الـذكاء، رجـلًا سـعى لتوحيـد شـعبه المختلـف والمشـتت فـي مقاومـة الغـزاة الأوروبييـن الذيـن جـاؤوا لتدميـر شـعب «الشـوني» وكل الشـعوب الهنديـة بامتـداد طـول وعـرض هـذه القـارة المشـؤومة والغارقـة فـي الـدم. ليـس مهمًـا أنـه مـات أثنـاء النضـال. لقـد خـاض تيكومسـيه حربًـا مشـرفة. وذلـك كل مـا سـأطلبه منـك، يـا ابنـي الوليـد، فـي السـاعات الأولـى مـن رحلتـك الطويلـة لتصيـر رجـلًا يسـتطيع التفكيـر والعمـل والمسـاهمة فـي العالـم – هـذا فقـط وليـس غيـره: أن تخـوض الحـرب المشـرفة.

أدرك بومغارتنـر أن والـده، حتـى قبـل أربـع وخمسـين عامًـا، كان ثمـلًا علـى الأرجـح حيـن كتـب هـذه الكلمـات، وبينمـا يتأمـل الابـن الـذي يشـيخ ذكرياتـه المتناقضـة حـول أبيـه، يجـد نفسـه متجهًـا بتفكيـره إلـى الرسـالة ويحـاول تخيـل الظـروف التـي كتبـت أثناءهـا هـذه الصفحـات الثـلاث والنصـف. رجـل فـي الثانيـة والأربعيـن صـار أبًـا للمـرة الأولـى. تـرك زوجتـه الشـابة وابنـه المولـود حديثًـا فـي المستشـفى وعـاد إلـى شـقة خاليـة فـوق محـل الملابـس علـى شـارع

ليونـز. يقطـع شـريحة مـن خبـز الجـاودار مـن الرغيـف المتـروك علـى طاولـة المطبـخ، يحضّـر كمية متواضعـة مـن السـردين لنفسـه، ويجلـس علـى الطاولـة حيـث يجـد كأسًـا لتنـاول جرعـة مـن شـراب برانـدي الشـليفوفتز ينتظـره. يـأكل ويشـرب، وحيـن ينتهـي مـن الأكل يشـرب كأسـين أو ثلاثًـا أخـرى. إنهـا لحظـة مهيبـة ولكنهـا منتشـية بالنسـبة إليـه، مناسـبة لا تشـبه مناسـبة غيرهـا فـي حياتـه، وهـذا الرجـل العنيـد، وغالبًـا القاسـي القلـب يغـرق فـي موجـات عاتيـة مـن المشـاعر، مـد مـن المحيـط الصاعـد مـن أحشـائه والعابـر لحنجرتـه يسـحبه مـن ذاتـه وقتًـا يكفـي لكـي يفهـم كـم هـو صغيـر، شـيء صغيـر متصـل بترليونـات الأشـياء الصغيـرة الأخـرى التـي تؤلّـف الكـون، وكـم هـو رائـع أن يشـعر أنـه خلّـف ذاتـه وراءه لهـذه اللحظـة وصـار جـزءًا مـن لغـز الحيـاة الواسـع مـن حولـه. يقـول فـي داخلـه: اثنـان وأربعـون عامًـا وأخيـرًا أب. اثنـان وأربعـون عامًـا مـن الفشـل والإحبـاط، والآن هـذا التحـول الغريـب نحـو شـيء يشـبه السـعادة، علـى الأقـل لهـذه الليلـة، علـى الأقـل علـى مـدى هـذه السـاعات القليلـة، وهكـذا يلملـم الزجاجـة والـكأس ويمضـي إلـى الغرفـة المتوفـرة فـي آخـر الشـقة، الوحيـدة التـي لا يسـتطيع أحـد سـواه دخولهـا والتـي سـتعطى لاحقًـا لبومغارتنـر وفـي النهايـة لنعومـي، ولكـن فـي هـذه الليلـة تحديـدًا فـي نوفمبـر، 1947 لا تـزال مملكـة الأب الخاصـة بـه، سـياج مسـاحته 9 فـي 12 قـدم لا زينـة فيـه ويحتـوي علـى مكتـب وكرسـي مـع عـدة رفـوف مـن الكتـب، رف وراء رف مـن المجلـدات المهترئـة وفـي

الغالب مستعملة حول الأدب الأناركي[1] والاشتراكي ممزوجًا بعشرات الكتب حول التاريخ الأوروبي والأمريكي. بعض الكتب الأحدث، وهي جميعًا مستعارة من المكتبة العامة، مركونة في أكوام عشوائية على الأرض، الكثير منها انتهت مدة إعارته. يضع أبوه الزجاجة والكأس على الطاولة، يصب لنفسه جرعة أخرى، يشربها، يسحب من درج أعلى إلى يساره حزمة صغيرة من الأوراق الفارغة، يفتح قلمه الحبر ويبدأ رسالة إلى سيمور تيكومسيه بومغارتنر في اليوم الأول من حياة الولد. يتحدث فيها عن آماله ببناء عالم أفضل، عالم أكثر عدلًا، بالعيش في مجتمع من المتساوين لا تسيره قوانين الغاب (الرأسمالية) أو قوانين الآلة (الماركسية) وإنما القوانين الطبيعية للعملية والنمو العضوي الذي يقود إلى تنظيم اجتماعي جديد يسمى **المجتمعية الديمقراطية**. تضخم في اللغة، وعدم وضوح في الرسالة، لكن النغمة لطيفة ومقنعة، وحين يستعيد بومغارتنر كل الغضب والسخرية التي كانت تنصب من أبيه كلما بدأ واحدًا من أحاديثه السياسية الصاخبة عبر السنين التي تلت، فإنه يرى ليلة ميلاده على أنها اللحظة الوحيدة التي هبط منها الرجل من عليائه وكشف العمق المثالي الذي يغلي داخله. لو لم يكن هناك شيء آخر فذلك يكفي، يقول بومغارتنر لنفسه وهو ينظر إلى السماء مرة أخرى ويتتبع

(1) الأناركي من اناركزم. Anarchism أو اللاحكومية، وتسمى أحيانًا بالفوضوية، وهي مذهب في الفلسفية السياسية يرى بأن الحياة الاجتماعية والاقتصادية تكون أفضل دون حكومات أو سلطات مركزية، ومن هنا جاء اسمها الذي يعني حرفيًا اللاحكومة وليس الفوضى بالمعنى الحرفي للكلمة.

حركات السحاب العابر ببطء. على الأقل ذلك موجود، ومعه هناك تيكومسيه، ما يمحو الخطأ الناجم عن تخبيص الاسم الأول وجعل اسمه أمام العالم س. ت. (S.T.)، سي (Sy.) أمام أصدقائه وأحبائه، وسيمور (Syemour) فقط أمام مدرس ابتدائي متوفى من الماضي البعيد الغائب تقريبًا عن الذاكرة.

بدأ أبوه حياته باسم جاكوف البولندي لكنه أعيدت صياغته ليصير جاكوب ذا غرينهورن حين وصل وهو في السادسة، الطفل الثالث من خمسة ولدوا لسولومون وآيدا بومغارتنر، سبقته بنتان وتلاه توأمان من الأولاد، ما جعله الابن الأكبر الذي علمه أبوه من سن مبكرة الحرفة الدقيقة، شغل الإبرة والخيط، الأب الذي ينتمي إلى الجيل الثالث من الخياطين والذي فتح محلًا على شارع نيوارك ماركت عام 1912 وعاش آملًا أن ينقل النشاط التجاري إلى أول أبنائه. حسب القليل الذي قيل لبومغارتنر عن حياة والده المبكرة (غالبًا عن طريق والدته)، كان جاكوب الصغير تلميذًا شديد الذكاء ولكنه متردد، اهتمامه منصب على الاستقلالية وليس السير في الطريق الذي يُرسم له. كانت الكتب أكثر إلحاحًا عليه من الكدح وراء آلة للخياطة، وحين بلغ الحادية أو الثانية عشرة ترك عمله الجزئي في محل والده ليركز على دراسته مدفوعًا بتطلعات فكرية ستحرره يومًا من المصيدة المتمثلة في أن يكون مشتغلًا بالخِرَق، أن يلتحق بالجامعة مع درجة متقدمة في التاريخ، أو ربما دراسة القانون ليصير مدافعًا يساريًا عن الفقراء والمسحوقين، أو ربما تجاوز القانون إلى الحياة غير القانونية ليصير مثيرًا للشغب ومنظمًا لأولئك العمال المسحوقين

-إضرابات انشقاقية، اعتصامات في المعامل القاسية على عمالها، تنظيم مسيرات ومظاهرات في شوارع المدينة. سار جاكوب عددًا من الخطوات الصغيرة في ذلك الطريق، تعيقه الظروف المالية عن اتخاذ خطوات أكبر تخيلها في البداية. ومع ذلك شعر أنه يتحرك في الاتجاه الصحيح، يدرس ليلًا ويشغل في النهار وظيفة في مكتبة نيوارك العامة، لكن الضغوط المالية أجبرته على أن يواصل العيش في المنزل، وبوجود أختيه الكبريين المقيدتين في زيجات لا أمل فيها لتافهين ليس أمامهم أي مستقبل، وأخويه الأصغر المتدهورين إلى غبيين لا يصلحان للعمل، أدرك بومغارتنر أن عليه أن يخرج من هناك أو يغرق، لكن مع كل قدراته على التنبؤ بالموت في الحياة الذي ينتظره، لم يستطع أن يفعل ذلك. كان نظر أبيه يضعف وصحته تتدهور، وحين وجد أنه قطع شوطًا بعيدًا في التجارة، كان الخيار إما بيع المحل ورؤية أسرته تنتهي إلى الجحيم أو الإبقاء على التجارة تتنفس، وهكذا ترك جاكوب ذو الثانية والعشرين سنة المدرسة الليلية، ووظيفته في المكتبة، وتولى المحل في شارع ماركت. حسب ما قيل لبومغارتنر، شعر والده أنه ليس لديه خيار. لكنه في الحقيقة كان يملك خيارًا. كل إنسان يملك خيارًا، والخيار الذي اختاره والده لم يكن بالضرورة الخيار الخاطئ، مع أنه نغص عليه بقية حياته، لكنه لو سار في الخيار المعاكس وهرب ليصير أستاذ تاريخ أو محاميًا أو صانع مشكلات غير مقيد، فإنه على الأرجح سيعذب نفسه طوال حياته نتيجة الذنب الذي لا يغتفر بترك أسرته في مأزق وقت حاجتها الماسة، الأمر الذي سيوحي بأنه لم يكن هناك خيار صحيح

أو خيار خاطئ، خياران صحيحان فقط سيتضح خطؤهما معًا في النهاية. في حالة والد بومغارتنر، تفوق إحساسه بالمسؤولية على رغباته الشخصية، ما جعل اختياره جديرًا بالتقدير، بل هو نبيل، لكن حين تبدأ بالشعور بأن تضحيتك لعائلة من الفاشلين والمتسكعين المخادعين ضاعت سدى، فإن اختيارك سيتحول حتمًا إلى مصدر للاستياء، ومع مرور السنين، سيتلف روحك.

في الوقت الذي أدرك فيه بومغارتنر الوضع، كان محل الملابس على شارع ليونز قد حل محل دكان خرداوات الرجال على شارع ماركت. كان سولومون وآيدا قد رحلا منذ أمد طويل، التوأمان انتقلا إلى كاليفورنيا بعد مدة في السجن تلت سطوًا مسلحًا على محل للمجوهرات في ويهوكن، وبيللا، الكبرى من الأختين الكبريين، كانت قد تخلصت من زوجها وكيل مراهنات السباق وتزوجت تاجر سيارات مستعملة من بيرث أمبوي تركته لاحقًا بدوره، الأمر الذي أدى إلى أن تتوظف محاسبة ومديرة لمحل أخيها للملابس، أما إيما، الصغرى من الأخوات الأكبر، فأنجبت بنتين وتخلى عنها زوجها العاطل عن العمل وغير المستقر، ثم ماتت بالالتهاب الرئوي في منتصف الثلاثينيات من عمرها، لتتولى بيللا رعاية البنتين اليتيمتين وتربيهما اعتمادًا على المرتب الذي كانت تتقاضاه من أخيها. في عام 1936، قبل عام من توقيعه الرهن على بناية شارع ليونز، خطرت ببال جاكوب فكرة التخلي عن كل شيء والانضمام إلى لواء أبراهام لينكون[1]

(1) اللفظ الشائع لاسم الرئيس الأمريكي يلغي حرف اللام (L).

لمحاربة فرانكو والفاشيين في الحرب الأهلية الإسبانية، لكن بما أنه معارض أخلاقيًا لحمل السلاح في أي حرب، مهما كانت عادلة، فقد ألغى الفكرة. كان خطأً فادحًا، كما قال لاحقًا لابنه، متخليًا عن احتراسه بعد كأس إضافي ذات ليلة شتائية حين كان بومغارتنر في المرحلة الإعدادية، خطأ فادح لأنه كان قد بلغ الحادية والثلاثين عندئذٍ، ولم تكن الفرص متاحة بعد ذلك للانعتاق. في منتصف أبريل من عام 1939، بدأت الشابة روث أوستر ذات العشرين عامًا العمل خيّاطة في «أزياء تروكاديرو»، وبعد أربع سنوات، في منتصف الحرب العالمية الثانية، تزوج والدا بومغارتنر.

كان الرجل الذي هيمن على البيت الواقع على شارع ليونز لغزًا بشريًا يصعب فهمه إلى الحد الذي جعل بومغارتنر يمضي مرحلة يفاعته سجين حالة من الحيرة المستمرة حول أبيه: من هو وماذا كان هو بالنسبة إلى أبيه. كان يكره أباه ويعبده، في بعض الأحيان أحبه تقريبًا، لكن لم يكن فيه شيء مقنع أبدًا: معارض للرأسمالية قضى ما يقارب الأربعين عامًا يدير نشاطًا تجاريًا عائليًا صغيرًا مهمته جمع المال للعائلة، إنسان بسيط من الناس يدافع عن الجماهير المسحوقة ويسيء معاملة الذين يعملون في محله بإهانات بذيئة وتأنيب صادر عن مزاج سيئ، ملحد لا يتوب أجبر ابنه على تقبل طقس البلوغ اليهودي (بار ميتزفاه) لأنه هو نفسه أجبر على ذلك وأراد لابنه أن يعاني مثلما عانى -لكن ليست تلك التفاهات مهمة الآن، يقول بومغارتنر لنفسه، الأمر الأساسي أن أباه على الرغم من كل ضجيجه وتعاليه ونوبات قسوته أحيانًا،

لم يكن أكثر من حالم حزين، شبحًا ثوريًا جلس في غرفته ولم ينضم إلى أي مجموعة من الرجال والنساء الذين يفكرون كما يفكر أو يرفع إصبعًا للمشاركة في عمل جماعي صغير لدعم قضية العدالة، رجلًا منقطعًا ومعزولًا عاش النضال في رأسه ولذا عاش مدركًا أنه خذل نفسه حين لم يحارب ما تخيل أنها **الحرب الصحيحة**. لم يكن ذلك سوى كلام في نهاية المطاف، لكن مع مرور السنين لم يعد أحد من دائرة معارفه المتناقصة يتحدث إليه ما عدا صديق طفولته ملتُن فريبرغ، وهو مدرس تاريخ ثانوي وعضو سابق في الحزب الشيوعي الذي استقال من الحزب بعد التحالف بين هتلر وستالين عام 1939 وفقد وظيفته في التعليم أثناء التطهير المكارثي[1] في الخمسينيات، رجل ضخم ويائس صار يكسب عيشه من وظيفة باحث في «موسوعة كولير». يلتقي ذلك الصديق اليائس والمعارض للعنف منذ الحرب ضد الفاشية لتناول العشاء الأسبوعي في مطعم «مواش» بوالد بومغارتنر الطويل الهزيل، الدونكيشوت البولندي الأمريكي ذي الملامح الحزينة والذي أفسدته الكتب، ملك الحالمين الذي أدار محل ملابسه الصغير على شارع ليونز بالاعتماد على زوجته وابنته ليقوما بالعمل بينما هو منزوٍ في الطابق الثاني يقرأ سيرة إيما غولدمان[2] الذاتية للمرة السابعة. اشرب يا صديقي القديم،

(1) السيناتور الأمريكي جون مكارثي اشتهر بحملة تطهير تمثلت في استجوابات وفصل من العمل لكل من حامت حوله الشكوك في انتمائه إلى الشيوعية أو ممالأته للاتحاد السوفييتي، وعرفت حملته بالمكارثية.

(2) إيما غولدمان كانت ناشطة سياسية داعية للأناركية أو اللا سلطة مركزية وحقوق المرأة في النصف الأول من القرن العشرين. ولدت في روسيا لأبوين يهوديين وهاجرت إلى الولايات المتحدة أواخر القرن التاسع عشر.

يقول له فريبرغ، واشرب كأسًا أخرى من الشنابس بينما أشرب واحدة أنا أيضًا. عندئذٍ سنشمر عن ساعدينا ونتعارك للمرة الرابعة عشرة بعد السبعمئة لنرى إذا كان أحدنا يستطيع إنقاذ العالم قبل أن يطفئوا الأنوار ويطردوننا من هنا.

ومع ذلك ظل هناك أمر يتعلق بوالده، أمر مهم بدأ بومغارتنر يشعر به حين كان في العاشرة أو الحادية عشرة وتأكد منه حين صار في الثانية عشرة وسمح له بتجاوز الصف الثامن. كان والده فخورًا به. لم يدرك ذلك لأن الأب أشار إليه، وليس لأنه غير أسلوبه ليحذر بومغارتنر من أن يكبّر رأسه كل مرة يحصل فيها الولد على واحد من التقارير المليئة بالنجوم، فيذكره أنه مخلوق من تراب مثل أي شخص آخر وأنه سيعود إلى التراب مثل أي شخص آخر مهما كانت علاماته، لكن على الرغم من التظاهر بالتأفف، أدرك بومغارتنر أن والده كان يراقبه من كثب، أن جاكوب المستاء دائمًا كان يعيش كفاح صباه مرة أخرى من خلال ابنه ويحثه سرًّا على أن يحرر نفسه من هذا اللامكان الصغير والخانق ليطير بعيدًا، أن يبتعد بقدر ما تمكنه أجنحته الهشة من الابتعاد. ثم جاء الخبر في مارس ١٩٦٤ من أوهايو البعيدة أن الابن النيواركي الغافل، ابن التراب، قد تلقى منحة دراسية، وحين سلم بومغارتنر والده الرسالة وطلب منه قراءتها، رأى يد والده ترتعش -بصورة يصعب ملاحظتها- ورأى عينيه تغيمان - بصورة خاطفة - ثم أمسك أبوه بظهر كرسي المطبخ، سحبه من الطاولة، جلس عليه، وأطلق زفرة طويلة مرتجفة من رئتيه التالفتين، وقال: «هات الزجاجة من الدولاب، يا سي. حان

وقت الكأس. عاد بومغارتنر بالزجاجة وقد أشعل أبوه سيجارته الأخيرة بعد عدد لا يحصى من سجائر «لكي» في ذلك اليوم، وبعد أن أشعل الولد لنفسه سيجارة له هو الآخر وشرب كل منهما جرعة من سليفوفتز دون أن يقولا شيئًا إضافيًا، فقد قالت الرسالة كل شيء، ولذا جلسا يشربان بصمت، جرعة في البداية، جرعة ثانية، وأخيرًا ثالثة. كان ثناء والده في ذلك الصمت. رجل يثور عند أدنى استفزاز، كيس يفوح بالشتائم يمكنه أن يونون لساعات متواصلة، ذلك الرجل كافأ ابنه بإبقاء فمه مغلقًا وعدم التلفظ بأي كلام. بعد تلك الليلة بستة أشهر، غادر بومغارتنر إلى أوهايو. عاد إلى نيوارك في عطلة الكريسماس ثم عاد مرة أخرى إلى أوهايو في يناير، متوقعًا ألا يعود مرة أخرى إلى أن ينتهي فصله الدراسي الثاني في يونيو. لكنه عاد في فبراير، في التاسع من فبراير على وجه الدقة، بعد يومين من عيد ميلاد والده الستين ويوم واحد من وفاة الوالد.

هزت الوفاة بومغارتنر لكنه لم ينهر. تمنى لو أن إحساسه كان أعمق، لكن الحقيقة أنه لم يستطع، وطوال ذلك الأسبوع المقلق في نيوارك، حين أغلق المحل والعمة بيللا تثمل في المطبخ وهي تلعن أخاها الصغير الميت ونعومي التي كانت في الثالثة عشرة تختبئ في غرفتها تنتحب أو تصرخ على العمة بيللا ذات الوجه السمين تطالبها بأن تخرس، كان بومغارتنر أقل اهتمامًا بنفسه أو بتلكما المجنونتين مما كان بأمه، المنطقة العاقلة الوحيدة في أسرة مجنونة بالكامل ومصدر العزاء والحماية الصامد لبومغارتنر أثناء مسيرته الطويلة عبر الطفولة والشخص الذي نضج ضمن

ظروف أكثر صعوبة بكثير من ظروف والده، فقد هُيئت لحياة لا تطلعات فيها في مقابل التطلعات الكبيرة التي حملها والده لنفسه ثم فشل في أن يكون بمستواها. هي فتاة تزوجت حين كانت لا تزال في طور استكشاف ذاتها ولماذا وضعت على هذه الأرض، في حين لم يكن زوجها الأكبر سنًا (بفارق أربعة عشر عامًا) لديه المزيد ليستكشفه في نفسه ما عدا علاقته بها، هي عروسته الصغيرة، وطفليه اللذين سينجبانهما في النهاية معًا.

عرف بومغارتنر عن أسرتها حين كان صبيًا أقل مما عرف عن أسرة والده، جانب أوستر الغامض من الأسرة الذي لم يكن له فيه خالات أو أخوال أو أبناء خال، ولا أقارب على قيد الحياة يمكن الوصول إليهم، ومن هنا لم يكن لديه من يخبره أي شيء عن تاريخه العائلي - لم يكن هناك غير أمه ولم تكن تعرف تقريبًا أي شيء عن ذلك الجانب. كل ما أخبرته هو أن اسم أبيها كان هاري وأنه هاجر إلى أمريكا من مدينة صغيرة في غاليسيا على الطرف الشرقي الأقصى من الإمبراطورية النمساوية الهنغارية وأنه انتهى به الأمر في بروكلين حيث تزوج امرأة لم تعرفها أم بومغارتنر يومًا أو أنها نسيت اسمها، وأن والدها أنجب ثلاثة أو أربعة أبناء من زوجته التي لم تكن تعرف أيضًا أسماءهم أو نسيتها، وبعد ذلك، أثناء الحرب العالمية الأولى، على الأرجح عام 1915 أو 1916، قاضته زوجته التي تزوّجها طوال سبعة أو عشرة أو اثني عشر عامًا، وأنها وافقت على مبلغ تسوية لمرة واحدة مسحت حسابه البنكي وغادرت رأسًا مع الأولاد إلى شيكاغو، أو كليفلاند، أو سنسيناتي، أو مدينة أخرى في الغرب الأوسط يبدأ

اسمها بحرف «سي» ولم يُسمع منها بعد ذلك قط. انتقل هاري إلى مانهاتن، تدبر بعض المال بسرعة ليعمل في مجال مقاولات البناء، نجح في ذلك بما يكفي لتسديد القرض خلال سنة، وفي أوائل العام 1918 تزوج امرأة اسمها ميلي كوبلان. بعد ثلاثة عشر شهرًا من العرس، في 7 مارس 1919، أنجبت زوجته الثانية أم بومغارتنر، روث، وبعد ثمانية عشر شهرًا فقط بعد ذلك سقط هاري أوستر، السيئ الحظ، من سقالة أمام واجهة مبنى يتألف من عشرة طوابق بالقرب من واشنطن سكوير فمات حين ارتطم جسده بالرصيف. لذا لم تتذكر أم بومغارتنر شيئًا عن أبيها، ولأن ملي اختفت من حياته حين كانت روث في الثالثة من عمرها، لم تكن لديها سوى أقل الذكريات وضوحًا عن أمها.

ظلت أم بومغارتنر طوال طفولته تحميه برفضها الإفصاح عما كانت تقصده بكلمة اختفت. وكان أكثر سذاجة في ذلك الحين عن الإلحاح في مطالبتها بتحديد المعنى واستنتج أن الكلمة لا بد أنها مرادفة لكلمة الموت، إحدى تلك العبارات اللطيفة والمراوغة مثل **رحل** أو **انتقل إلى العالم الآخر** التي تسمح لك بأن تتحدث عن الموت دون أن تستعمل الكلمة نفسها. كان بومغارتنر قد كبر بما يكفي لإدراك أن كل الناس تموت وأنه هو نفسه سيموت يومًا، لكنه كان صغيرًا بما يكفي ليظن أن الموت يأتي فقط لكبار السن، في معظم الحالات من هم كبار جدًا جدًا، والشيء المحير بشأن موت جدته أنها لم تكن مسنّة، لأن أمه قالت إنها كانت في التاسعة عشرة حين تزوجت جده وفي العشرين حين أنجبت ابنتها، ولو أنها اختفت قبل عيد الميلاد الثالث لأمه، فإن ذلك

يعني أنها ماتت في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين، وهو أمر بعيد جدًا عن المعتاد من العمر، أي الستين أو السبعين أو الثمانين ويوحي بأن أمرًا مروعًا حدث لها، أمرًا غير عادي مثل أن يدهسها باص أو تسقط من سقالة أو تصيبها رصاصة في إطلاق نار ناجم عن سرقة بنك - أن تمشي في الشارع ذات صباح في طريقها إلى الجزار ثم «بانغ» فتموت، تصيبها الرصاصة في القلب من مسدس عيار ثمانية وثلاثين.

لم يدرك ما حدث حتى صار في الرابعة عشرة من العمر وصارحته أمه أخيرًا بالقصة. قالت له: نعم، صحيح أن أمها اختفت، لكن على نقيض من ظنونه، لم تمت، لقد تزوجت مرة ثانية فحسب، هذه المرة لرجل أكبر منها بكثير وأغنى من هاري الفقير، رجل أرمل في الخمسين له ثلاثة أطفال بالغين من زواجه الأول لم يرد طفلًا رابعًا، ولذا استشارت ملّي وزوجها الجديد محاميًا، وجهزت الأوراق، وأسندت رعاية روثي الصغيرة إلى عمها، أخ والدها الأصغر، جوزف، وهو أعزب وشبه متعلم، كان يعمل مصلّحًا في معمل للمعادن على الضفة الأخرى من النهر في نيوارك. تضمن العقد مبلغًا يتراوح ما بين خمسة وعشرة آلاف دولار لمساعدة جوزف في العناية بابنة أخيه (لم تعرف أم بومغارتنر المبلغ على وجه الدقة)، وبعد برهة غادرت ملّي وزوجها الجديد نيويورك إلى مدينة تبعد آلاف الأميال افتتح فيها الزوج فرعًا لتجارته أو مشروعه الذي كان يملكه أو يديره. قد تكون لندن أو لوس أنجلس، حسب تقدير أم بومغارتنر، مدينة يبدأ اسمها على أية حال بـ «ل»، ذلك كل ما حفظته ذاكرتها، لأن

العم جوزف لم يخبرها أكثر من ذلك عن أمها التي كانت قد اختفت تمامًا في منتصف 1922 دون أن ترى ابنتها مرة أخرى.

أرعب بومغارتنر ذا الأربع عشرة عامًا ما سمع، أرعبه وأغضبه ما رأى من لا مبالاة ملّي، أمّ تلقي بابنتها الصغيرة جانبًا كما لو لم تكن أكثر من ورقة تلف بها الحلوى أو بقعة صغيرة تشوه فستانها الساتان. حركة صغيرة ثم تختفي. ما فعلته كان جريمة، قال لنفسه، جريمة ضد الإنسانية، ومثلما حُكم على آيخمان بالموت العام الماضي لما ارتكب من جرائم أثناء الحرب، استحقت جدته ملّي أن تشنق لجرائمها. لكنه لم يستطع أن يقول ذلك علنًا، لأن ذهنه كان في ذهول لم يمكّنه من استحضار الكلمات التي تعبر عن الرعب في داخله. كل ما نجح في إخراجه من فمه كان جملة واحدة: باعتك في مجرى النهر وتركتك. ثم بعد ثانيتين أو ثلاث: من المؤكد أنك تكرهينها.

لا، قالت الأم، معبرة عن عدم كراهيتها لها، بل أشفقت عليها، وعليه قبل الحكم عليها والامتلاء بالكراهية لها هو نفسه، عليه أن يتخيل الوضع الذي كانت فيه. شابة لا تملك شيئًا ما عدا جمالها وقدرتها على اجتذاب الرجال تفقد زوجها في بداية العشرينيات وتظل بكومة من الفواتير غير المدفوعة وطفلة صغيرة ولا أسرة تساندها. ما خياراتها؟ عليها أن تجد عملًا، لكن إن ذهبت إلى العمل من سيعتني بالطفلة؟ عليها أن تتركها في ملجأ للأيتام، أو ألا تعمل لتموت الاثنتان جوعًا، أو أن تبدأ المشي في الشوارع وتبيع جسدها لتحتفظ بروحها وجسدها معًا حتى إن فقدت روحها أثناء ذلك. ثم يقع رجل غني في حبها، يقع إلى درجة

أنه بدلًا من تركها في شقة ومعاملتها كعشيقة، يريد أن يتزوجها. تشعر أنها الفرصة الوحيدة التي ستتاح لها - تذكرة للخروج من الجحيم ورحلة ذهاب فقط إلى حياة جديدة أفضل - وإن كان عليها أن تتخلى عن ابنتها للحصول على تلك الحياة، ستفعل، ليس لأنها تريد فعل ذلك لكن لأنها لا تملك خيارًا آخر. وسواء أكان الزوج الثاني غنيًا أم لم يكن، تقول أم بومغارتنر، فإنه لا بدّ أن يكون حقيرًا - لإرغامه المرأة التي يقول إنه يحبها على خيار مثل ذلك حيال طفلتها. إن كان هناك من يستحق الكراهية في الحكاية فإنه ذلك الرجل يا سي. لا يعني هذا أنها لم ترتكب عملًا بالغ السوء بالنسبة إليّ، عملًا أنانيًا و مخجلًا، ولكني على الأقل أدرك لماذا فعلته، وبعد التفكير فيه طوال هذه الأعوام، توصلت إلى أنه كان على الأرجح هو الأفضل، لأنها إن كانت من ذلك النوع من الأمهات فقد أكون محظوظة أنه لم يكن علي أن أعيش معها. وجدت العم جوزف بدلًا من ذلك، أكثر الناس لطفًا، الرجل الأكثر تهذيبًا في العالم، كما أخبرتك مئات المرات، لذا كل شيء مضى بصورة طيبة في نهاية المطاف. عشت طفولة رائعة، طفولة مكتملة وسعيدة، ولم يكن لأمي دور في ذلك. كانت مثل ممثلة تحصل على مشهد في فلم، ثم يلغى المشهد لأن الجميع يرون أنه ليس مقبولًا. ما التعبير الذي يستخدمون؟ حين يكون شخص في الفلم ثم لا تراه حين تذهب لمشاهدة الفلم في دار السينما.

ماتت على أرضية غرفة التقطيع.

هو ذاك. ماتت على أرضية غرفة التقطيع.

لم يكن لدى بومغارتنر شك في أن أمه كانت سعيدة مع عمها وأنها ازدهرت في رعايته، لأن من غير الممكن لها أن تصير الشخص القوي المتزن الذي صارته لو لم تجد تلك الرعاية. ربما بالغت قليلًا حين روت حكاياتها عن العم جوزف، وربما رأت نفسها حين كانت صغيرة عبر نسيج من الدهشة الأسطورية بوصفها المشردة المنفية في ميلودراما من العصر الفيكتوري تنقذها طيبة رجل بسيط وقديس، لكن كل ذلك لا يهم الآن، فالجنة التي عاشت فيها بعد السن الثالثة، سواء كانت حقيقية أو متخيلة، انتهت فجأة في المنتصف ما بين سن السادسة عشرة والسابعة عشرة حين أصيب العم جوزف بنوبة قلبية هائلة بعد عمله في فترتين في مصنع الأعمال المعدنية. كان ذلك هو الفقد الأكبر في حياتها، الأكبر بما لا يقاس من موت أبيها أو اختفاء أمها، فالحقيقة التي لا يمكن تجاهلها هي أنها باتت تعتمد على نفسها تمامًا، فتاة لها صديقات لكن ليس لها أقارب، وليس لها شخص أكبر يمكنها الذهاب إليه لاستشارته. الأسوأ من ذلك كله، لم يكن هناك عم جوزف، لكن حتى في الموت كان لا يزال يرعاها ويجعل انتقالها إلى حياة خالية منه خالية من الألم قدر المستطاع. لعدة أعوام كان عضوًا متحمسًا ومسددًا لمستحقاته في **دائرة العمال** (Ring Arbeter Der) القديمة، الجمعية التعاونية التي أسسها المهاجرون المتحدثون باللغة اليدّية[1] حين كان شابًا وحديث

(1) اللغة اليدية Yiddish لغة تطورت في أوروبا بين اليهود وهي لغة هجين من العبرية والألمانية وظلت تلك الجماعات اليهودية، ومنها التي هاجرت إلى أمريكا، تتحدثها حتى العصر الحديث.

وصول إلى أمريكا، ولأن تلك المستحقات وفرت معونة للدفن وتأمينًا على الحياة منخفض التكاليف، لم تكن أم بومغارتنر معفاة فقط من دفع تكاليف دفن جوزف وإنما استلمت شيكًا قيمته ستة آلاف دولار من تأمين الحياة - معجزتان في عالم أسود ويائس من «دائرة العمال» المهيبة والسخية التي كانت تدير برامج ما بعد المدرسة في المسرح والموسيقى والخياطة التي اشتركت فيها حين كانت فتاة إلى جانب تبنيها رعاية الأطفال، والمخيم الصيفي على «بحيرة سلفان في هوبفل جنكشن» التي كان العم جوزف قد أرسلها إليها لأربع فترات استمرت كل واحدة ثلاثة أسابيع متتالية حين كانت في التاسعة والعاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة، قالت فيما بعد لبومغارتنر الصغير المرة تلو المرة إنها كانت الصيفيات الأكثر روعة في حياتها.

حتى الآن ما يزال يتألم كلما تخيل الوحدة المدمرة التي لا تطاق والتي لا بد أنها غمرتها أثناء تلك الشهور البائسة عام ١٩٣٥. حين لم تكد تبلغ السادسة عشرة، تلميذة عادية في المرحلة الثانوية، لا تكاد في خضم العيش تدرك إلى أين يأخذها المستقبل، عندئذٍ، وبمضي الوقت، وجدت أنها تعتمد على نفسها بالكامل، مراهقة غير مهيأة ومضطرة لأن تصير امرأة ناضجة. استمرت في شقتها على شارع شيبرد محاطة بأشياء العم جوزف، لكن في نهاية العام كان كل شيء يتعلق بحياتها قد تغير. في الثانوية كانت أفضل موادها الرياضيات والعلوم والموسيقى والفن والاقتصاد المنزلي، لكن كان عليها أن تجاهد اللغة الإنجليزية والتاريخ واللغة الفرنسية، ليس لأنها لم تكن ذكية

وإنما لأن القـراءة أزعجتهـا وكانـت تقـرأ ببـطء لتواكـب الدراسـة. اكتشـف بومغارتنـر لاحقًـا أنهـا كانـت تعانـي إعاقـة فـي القـراءة منـذ الطفولـة، لكـن لـم يسـتطع أي معلـم اكتشـاف ذلـك أو فعـل شـيء لمسـاعدتها، لـذا تأخـرت فـي الدراسـة وبـدأت تعتقـد أنهـا غبيـة، ومـا إن بـدأت تلـك الكلمـة تلمـع فـي ذهنهـا كل صبـاح تذهـب فيـه إلـى المدرسـة، حتـى أخـذت تتجـول فـي القاعـات يطاردهـا إحسـاس بالعـار يضغـط عليهـا، فتحولـت روث أوسـتر المحبـة للمتعـة إلـى الفتـاة الخجولـة الحائـرة التـي لـم يعـرف أحـد كيـف يتعامـل معهـا.
بعـد ثلاثـة أشـهر مـن وفـاة العـم جـوزف، تركـت الدراسـة، لكـن ليـس قبـل أن تتحـدث طويـلًا إلـى معلمـة الخياطـة، السـيدة مانكـوزو، التـي أثنـت عليهـا مـن قبـل أمـام الصـف بوصفهـا الفتـاة الأكثـر موهبـة بيـن مـن عرفـت. أخـذت السـيدة م -الممتلئـة الجسـم والحنونـة كأم- يـدي روث وظلـت ممسـكة إياهمـا طـوال الحديـث. قالـت لهـا: إن كانـت ترغـب فـي أن تكـون خياطـة محترفـة فيمكنهـا أن تسـجل فـي كـورس مكثـف لمـدة عـام فـي مدرسـة تجاريـة أو تبـدأ العمـل كمتدربـة. قالـت أم بومغارتنـر إنهـا تفضـل أن تدخـل ميـدان العمـل مباشـرة، لكـن السـؤال: أيـن؟ ابتسـمت السـيدة مانكـوزو وقالـت: لا أظـن أنهـا هـذه مشـكلة يـا عزيزتـي.

كانـت السـيدة مانكـوزو المعجـزة الثالثـة بعـد معجزتـي «دائـرة العمـال»، وكانـت المعجـزة الرابعـة أختهـا روزالـي مكفـادن، الخياطـة الأسـطورية التـي كانـت تديـر معهـد مـدام روزالـي علـى شـارع الأكاديميـة فـي وسـط مدينـة نيـوارك، الأمـر الـذي أكـد لبومغارتنـر للمـرة التريليونيـة العاشـرة فـي تاريـخ البشـرية أننـا جميعًـا يعتمـد

بعضنا على بعض وأنه لا يوجد شخص، حتى الأكثر عزلة بيننا، يستطيع البقاء دون مساعدة الآخرين. كما في حالة روبنسون كروزو، الذي كان سيهلك لو لم يظهر فرايدي لينقذه.

بعد ثلاثة أعوام، وبناء على اتصال هاتفي حاسم من مديرها لشخص اسمه بومغارتنر، تمت استعارة روث لشغل وظيفة رئيسة خياطات في محل تروكاديرو للأزياء. لم يكن الهدف أنها أرادت تغيير وظيفتها، لكن السيدة روزالي التي تتقدم في السن كانت ستتوقف عن العمل وتتقاعد في فلوريدا مع زوجها. حسب الرواية التي كانت أم بومغارتنر تفضلها، استعادت انطلاقتها بوصفها موظفة في المحل، شاقة طريقها من متدربة بسيطة إلى تلميذة موثوقة، لكن المحل الآن يغلق ومن الضروري الاستمرار. بدا العمل الجديد، من عدة نواحٍ، متواضعًا جدًا قياسًا إلى تجارة الأزياء الرفيعة لدى مدام روزالي بزبوناته من السيدات الثريات القادمات من الأحياء المحيطة بالمدينة واللاتي كن يستطعن السير بين صفوف الملابس الغالية الثمن والجاهزة والمضي مباشرة إلى الغرفة الخلفية، حيث تصمم مدام روزالي فساتين تلبي رغباتهن إلى جانب فساتين زفاف باهرة لبناتهن، وكل ذلك ينجزه فريقها النسائي من الخياطات الست اللاتي يعملن في الغرف خلف الخلفية حيث برزت روثي ببطء وباستمرار لتكون النجمة الأكثر سطوعًا بينهن. لن تكون هناك فساتين مصممة في التروكاديرو، لكن الوظيفة بدت أفضل المتاح عندئذٍ. كان المرتب جيدًا، والمحل قريبًا من سكنها بما يكفي لتقطع المسافة مشيًا، الأمر الذي تضمن أنها لن تضطر إلى الوقوف في

باصات محشورة بالركاب في ساعة الذروة كل صباح ومساء ولا أنها ستضطر إلى دفع مبلغ يقتطع كثيرًا من مرتبها. وفي كل الحالات لن تضطر إلى البقاء هناك طويلًا، كما بدا لها، ليس أكثر من سنة أو سنتين بعدها ستنتقل إلى كاليفورنيا لتحصل على وظيفة في قسم الملابس لدى أحد استديوهات هوليوود. ستقول لبومغارتنر الصغير: تخيل ذلك، صنع ملابس لواحدة من تلك الأعمال الدرامية الكبيرة التي تتضمن أزياء كثيرة حول الحروب النابليونية أو أخذ مقاييس كارول لومبارد لعمل الفستان اللماغ الفاتن الذي ستلبسه في المشهد حين تمشي مع وليام باول نحو النادي الليلي النيويوركي الذي يعج بالدخان. ألن يكون ذلك **مذهلًا حقًا**؟ سيقول بومغارتنر: بلى، **مذهل حقًا**، لكن في كل مرة يوشك أن يقول لها إنه تمنى لو أنها فعلت ذلك مسبقًا، يتبين له أن لم يكن ليولد لو أنها فعلت ذلك، ولذا بدلًا من أن يضيف شيئًا فإنه كان يسكت ويبتسم لها.

بعد موت أبيه، أثناء ذلك الأسبوع الغريب في شارع ليونز حين جلسا هما الاثنان كل ليلة يتحدثان في المطبخ، ألح بومغارتنر على أمه أن تبيع المحل، أن تبيع البناية وتخرج من هناك. أن تجمع المبلغ مع مبلغ تأمين الحياة وسيكون لديها ما يكفي لأن تعيش في أي مكان أرادت. كانت لا تزال في السادسة والأربعين، شابة وحيوية وأمامها مئة مستقبل مفتوح لها. كانت نيوارك تنحدر ولن يطول الوقت قبل أن تنهار، ولو أمسكت الثور من قرنيه وتحركت الآن ستكون قد رحلت قبل أن يبدأ ذلك بالحدوث.

لن أقول إنك مخطئ يا سي، لكن إلى أين أذهب؟ لا تزال نعومي في المدرسة، وعلي أن أفكر فيها أولًا، أليس كذلك؟

لستِ مضطرة إلى الذهاب بعيدًا. تجاوزي فقط حدود المدينة واذهبي إلى ميبلوود، أو ساوث أورانج، أو مونتكلير. في كل تلك المدن مدارس جيدة ونعومي الحبوبة ستكون أسعد بكثير في أحد تلك الأماكن مما هي الآن. لن يكون هناك تعارض. حين تغادرين لمصلحتك فإنك تغادرين لمصلحتها أيضًا. وستتخلصين أخيرًا من هذه الشقة التعيسة.

لو أغلقت المحل ماذا سيحدث لبيللا؟ ولكوكي كاستيلانوس؟ ولميري بولتون، الفتاة الزنجية التي وظفنا العام الماضي؟ إنها وظيفتها الأولى وأداؤها ممتاز، كيف لي أن ألقيها في الشارع؟

كانت بيللا قد بدأت تعتمد على التأمين الاجتماعي، وستنضم إلى «خدمة الرعاية الطبية» أسرع مما تتوقعين، بما أن من المقرر له التصديق على القانون هذا العام، ويمكن لبنات أختها البالغات، دنغبات ودوفوس، أن تملئا الفراغ. أما بالنسبة إلى كوكي وميري، إن أراد أحد أن يتولى المحل، فأضيفي إلى العقد أن تستمرا في العمل. وإذا كان الشخص الذي يشتري البناية يريد إغلاق المحل، ليس هناك ما يمكنك فعله سوى أن تمنحيهما مبالغ كبيرة لقاء إنهاء العقد -ليس أقل من مرتب ستة أشهر- وتتمنين لهما التوفيق. إنهما صغيرتان وستتمكنان من الوقوف على قدميهما في وقت قصير.

إنك تجعل الأمر يبدو سهلًا.

ذلك لأنه سهل.

ومـاذا عنـي أنـا؟ مـاذا يفتـرض فـي أن أفعـل هنـاك فـي بيـت كبيـر فـي الضواحـي، أنتظـر عـودة نعومـي إلـى البيـت مـن المدرسـة؟ أكنـس السـجاد بالمكنسـة الكهربائيـة؟ ألعـب سـوليتير؟ أبـدأ الشـرب وأنتفـخ؟ لقـد كنـت أعمـل يـا سـي، كنـت أعمـل منـذ كنـت فـي السادسـة أو السـابعة عشـرة، وأديـر هـذا المحـل طـوال حياتـي. أعـرف أنـك لا تـراه شـيئًا مهمًـا، وأعـرف أن جـزءًا مـن أبيـك كان يكرهـه دائمًـا، لكـن حتـى إن كان محـل أزيـاء تروكاديـرو محـلًا عاديًـا لبيـع الفسـاتين للنسـاء اللاتـي لا يسـرن علـى الموضـة، تلـك النسـاء بشـر حقيقيـون، وجديـرات بـأن يسـرن بشـعور راضٍ عـن أنفسـهن. ذلـك مـا كنـت أفعلـه طـوال هـذه السـنين، آخـذ هـذه الفسـاتين العاديـة وأعيـد تصميمهـا بالتعديـلات لكـي تظهـر بصـورة صحيحـة ويكـون قصهـا فـي المـكان الصحيـح، وذلـك لكـي تظهـر تلـك النسـاء جذابـات حيـن يلبسـنها، وحيـن تشـعر بأنـك جـذاب فإنـك تكـون راضيًـا عـن نفسـك، وأن تجعـل تلـك النسـاء السـمينات ممـن بلغـن منتصـف العمـر يشـعرن بالرضـى عـن أنفسـهن فإنـك تـؤدي خدمـة، أليـس كذلـك، إنهـا مـا أسـميه واجبًـا دينيًـا (متزفـاه[1])، ولـذا فإنـي أشـعر بالاعتـزاز بمـا أفعـل هنـا يـا سـي لـذا لا تظـن بأننـي أضيـع مواهبـي علـى شـيء لا يسـاوي التعـب، لأن كل شـخص يسـتحق التعـب، بغـض النظـر عمـن هـو.

أدرك ذلك يا أمي. كل ما في الأمر أنني أعتقد أن الوقت قد حان للتوقـف. للمحـل وضعـه الخـاص، لكـن هنـاك أيضـا مشـكلة نيـوارك، ولـن يطـول الوقـت قبـل أن تكتشـفي أن كل هـذه النسـاء اللاتـي كنـت

(1) مفردة عبرية تعني "واجباً دينياً".

تساعدين سيذهبن، وعندئذٍ ماذا سيحدث لك وللمحل ولنعومي وكل شيء كنت تهتمين به؟ انتقلي، أتوسل إليك، بيعي وانتقلي، وما إنْ تستقرين في مكان ما، عودي إلى العمل واستمري فيه ما دمت رغبت في ذلك. هل تذكرين حلمك في الحصول على وظيفة في أحد استديوهات هوليوود؟ الآن تلك الاستديوهات ماتت، أليس كذلك، لكن إن شئت أن تصممي الملابس فالكثير يحدث في مسارح نيويورك هذه الأيام، ليس في برودوي وإنما في المسارح الأصغر والمسارحِ الأصغر من الأصغر، وأنا متأكد أن بإمكانك العمل مع أحد في المدينة والبدء، لكن إذا كان المسرح تلة أعلى من قدرتك على صعودها الآن، تذكري مدام روزالي وكل الزبونات اللاتي كن يأتين من المدن الأحيائية التي ذكرتها للتو إلى جانب سبع وعشرين أخريات وأن هناك كثيرًا من الناس في تلك المدن ممن يملكون المال، وأنك إن افتتحت محلك الخاص بك في أحد تلك الأماكن القريبة من حيث يعيشون، فإني أراهنك بالدولارات مقابل الكعك (الدونات) في أنهن سيأتينك جريًا، وستفاجئين بالسرعة التي تتزايد فيها الطلبات التي لا تستطيعين إنجازها.

بدأت أم بومغارتنر تضحك. للمرة الأولى منذ دفن أبيه، كان الضحك يتدفق من حنجرتها لتقول بعد ذلك: هل تذكر فستان العرس الذي طلب مني إنجازه قبل عدة سنوات؟

وكيف لي أن أنساه؟ لا أظن أنني ضحكت مثلما ضحكت في ذلك اليوم في حياتي.

يؤسفني أنني فعلت بك ذلك يا سي، لكن لم يكن هناك أحد آخر للاستعانة به. كانت كوكي أقصر من اللازم، والفتاة التي

جاءت قبل ميري كانت أسمن من اللازم. وكان هناك حد زمني، وعليّ أن أنجز الفستان لقياسه للمرة الأخير على العروس. كم كان عمرك حينها؟

أربعة عشر.

أربعة عشر، وكنت قد بدأت تطول بسرعة، نحو خمسة- خمسة أو خمسة-ستة عندئذٍ والذي كان نفس طول البنت التي كانت -مصادفة- نحيلة، نحو نفس الحجم والشكل الذي كنت فيه في ذلك الحين، ناقص الثديين بالطبع، ولذا سألت إن كنت لا تمانع في لبس الفستان بينما أجري التعديلات التي احتجت إلى إجرائها. قلت لا في البداية، لكن حين سألتك للمرة الثانية قلت نعم، إن كان الأمر مهمًا جدًا. لبست الفستان، وبعد ثانيتين انهرت في نوبة من القهقهة.

كنت أفكر في ذلك الفلم المضحك الذي رأينا حين كنت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة. **البعض يحبها حارة**، حيث جاك ليمون وتوني كيرتس يتقافزان بفساتين بينما مارلين مونرو تخلع فستانًا جعلها تبدو نصف عارية، وها أنا ذا ألبس فستان عرس سوزان شوارتزمان، أضحك من أعماقي لأني شعرت بالخجل والارتباك، وفي اللحظة التي كنت سأنتهي من ذلك دخل من تعرف.

لا بد أنه سمعك تضحك، ولذا هبط الدرج ليرى ما يحدث.

وقال: اللعنة يا روث، ماذا فعلت بالولد!

وقلت أنت، ولعلك تساعدني، لا تقلق يا بابا، إننا نؤدي «**البعض يحبها حارة**» في المدرسة، وأنا أتمرن لاختبار التمثيل غدًا. ماذا تقترح أن أختار جاك ليمون أو توني كيرتس؟

وللمرة الخامسة أو السادسة في كل تلك الأعوام التي عرفته فيها، انفجر الرجل العجوز ضاحكًا.

وحين توقف نظر إلينا وقال: لا أحد كامل.

وبعد ذلك عاد أدراجه بهدوء إلى الطابق الأعلى.

للمرة الثالثة أو الرابعة عصر ذلك اليوم يتوقف بومغارتنر في منتصف التفكير ويتطلع إلى الأعلى. مرت سحابة أمام الشمس، تاركة ظلمة مؤقتة في السماء، وبهذا التغيير المفاجئ في الجو، ينظر بومغارتنر في أرجاء الفناء ليستعيد صلته بمحيطه أو ليهضم ما كان يفكر فيه، غير متأكد تمامًا منه، ويدرك أن الكرسي غير مريح، أن ظهره يؤلمه وساقيه تتصلبان، لذا يقف ويمدد ذراعيه للحظات ويهز قدميه الواحدة تلو الأخرى ثم ينحني ليلمس أصابع من قدميه، الشيء الذي لم يكن قادرًا على فعله لعدة أعوام، لكن حتى إن لم تكن أطراف أصابعه قادرة على النزول إلى أبعد من مقدمة الساق، فإن المحاولة بحد ذاتها تطور مريح من عدم الحركة أثناء الجلوس على الكرسي، لذا يتمدد وينحني مرة أخرى، ثم يكرر ذلك مرة أخيرة. في هذه الأثناء مرت السحابة ولم تعد الشمس محجوبة، لكن الضوء تغير إلى حد ما، تغييرًا طفيفًا لا يكاد يلحظ؛ ما أعطى الضوء كثافة أعمق وأشد وضوحًا، وبينما يتجول بومغارتنر في الفناء باحثًا عن كرسي أفضل ليجلس، مفترضًا وجود ذلك الكرسي، يدرك أن المساء المقبل قد اقترب بسرعة أكبر مما توقع، أن اللحظة ستأتي عما قليل حين تطل الشمس من زاوية أكثر حدة ويستحم العالم الذي تشع عليه في جمال أخاذ لأشياء تشع وتتنفس ثم

تعتم تدريجيًا لتختفي في الظلام حين يحل الليل. في هذه الأثناء يجرب بومغارتنر كرسيًا آخر يثبت أنه أكثر إزعاجًا من الأول. يجرب آخر ولكنه يرفضه أيضًا، ليعود عندئذٍ إلى الكرسي الأول الذي يتبين أنه أقل إزعاجًا مما تخيله، لذا يجلس عليه في جولة أخرى من التنفس البطيء المنتظم ويسأل نفسه إلى أين سيمضي به تفكيره في المرحلة التالية.

تقفز أفكاره إلى صورة لوجه آنا، وجه آنا ممتلئًا بالدموع وهي تمشي في غرفة الجلوس ببيت أمه لتخبره أن أمه توفيت للتو. بعد جلوسه إلى جانب سرير رعايتها المنزلية لاثنتي عشرة ساعة متواصلة، كان بومغارتنر قد ذهب إلى الصوفا في غرفة الجلوس ليأخذ قيلولة، لكن آنا، التي كانت قد أخذت قيلولة قبله، بقيت في غرفة النوم، وكانت من راقب أمه وهي تموت. سرطان البنكرياس. كانت ستة أشهر بالغة القسوة ضمر أثناءها جسدها إلى حجم مخيف، وقد توفيت الآن في الثانية والستين.

كانت قد بدأت حياة جديدة حين أصيبت بالسرطان، بعد أن باعت تجارتها على شارع ليونز عام 1966، بعد ثمانية عشر شهرًا من وفاة والده وسنة واحدة قبل تحقق نبوءته حول نيوارك - على نحو أكثر قسوة وعنفًا مما تخيل حدوثه. كانت أمه حينئذٍ قد استقرت في بيت من طابقين في مونتكلير مع نعومي، نعومي العنيدة، المتخبطة، والبائسة غالبًا، التي بدأت مع ذلك تستقر إلى حد ما في سنتيها الأخيرتين من الثانوية، وقرابة ذلك الوقت، من عام 1969 كما يظن، كان افتتاح محل «مدام روث» الذي تخصص بفساتين الزفاف المترفة لبنات الأغنياء ولكنها

صنعت أيضًا ملابس من أنواع أخرى للرجال والنساء، مع القيمة المضافة المتمثلة بعودة كوكي وميري للعمل معها وبقائهما حتى حين وجدا زوجين وبدأتا بإنجاب الأطفال، لذا كانت كوكي وميري غالبًا في البيت معهم أثناء الأسابيع الأخيرة من حياة أمه، مثلما كانت نعومي، التي كانت قد تزوجت عندئذٍ وأنجبت بنتًا عمرها سنة واحدة. توفيت أمه في سن صغيرة، قبل أن يتاح لها أن تكون عجوزًا، لكنها عاشت ما يكفي لأن تعرف آنا لعدة سنوات، أن تحب آنا لعدة سنوات، بما يكفي لأن تعرف وتحب حفيدتها باربرا. طوال ذلك الوقت لم يكن هناك رجال، لم تكن حتى مواعدة مع أحد حسب علم بومغارتنر، ناهيك عن أي تفكير بالزواج مرة ثانية. لعدة أعوام منذ السبعينيات، بدا أنها طورت صداقة مع امرأة أكبر منها سنًا اسمها ماغي والدمان، لكن طبيعة تلك الصداقة لم تكن واضحة لبومغارتنر. تمنى من أجلها لو أن المرأتين وقعتا في حب بعضهما، لكن ماغي والدمان توفيت قبل ثلاثة أعوام من وفاة أمه، ولن يعرف أبدًا ما حدث أو لم يحدث بينهما.

ينحرف تفكيره من نهاية حياة أمه إلى بداية حياتها ويندفع باتجاه الماضي إلى السنين والقرون قبل ذلك، وفجأة يتذكر رحلته إلى أوكرانيا قبل عامين واليوم الذي أمضاه في البلدة التي ولد فيها أبوه. كان قد دعي للمشاركة في حلقة نقاش في المؤتمر السنوي لـ «منظمة الشعر الدولية» (PEN International) الذي كان يعقد في مدينة لفيف في تلك السنة، ولم يرغب فقط في المشاركة في حلقات النقاش ومقابلة ممثلي فروع منظمة الشعر القادمين من أنحاء العالم، فقد عرف أنه سيكون هناك وقت كافٍ

للخروج بعد ظهر أحد الأيام والسفر ساعتين إلى الجنوب لزيارة مدينة جده. حدثت له أشياء عجيبة أثناء تلك الزيارة، أشياء طالما أراد أن يكتب عنها مذ عاد إلى البيت ولكنه لم يفعل لأنه كان مشغولًا بكتابه، لكن الآن، وذكريات أمه تشتعل في ذهنه، فإنه ينهض فجأة من الكرسي، يسير عائدًا إلى المنزل، ويعود إلى غرفة العمل في الطابق الثاني التي تركها قبل ساعة ونصف. وبإزاحة النسخ الأولى والتصحيحات والملاحظات المتعلقة بـ **أسرار العجلة**، فإنه يتوقف عن العمل على كتابه ويبدأ بكتابة وصف لرحلته إلى إيفانو-فرانكيفسك في 21 سبتمبر، 2017. يعمل لعدة ساعات ولا يتوقف حتى تدعوه معدته لينزل للعشاء، ثم يواصل في اليوم التالي حتى وقت العشاء في ذلك المساء أيضًا. يبدو له أنه انتهى، لكن لكي يتأكد فإنه يعود في الصباح التالي ويمضي ثلاث ساعات يزيل الأخطاء الطباعية والزلات، محسنًا إيقاع النثر وواضعًا اللمسات الأخيرة على نصه القصير المحير.

ذئاب ستانيسلاف

هل من الضروري لحدث أن يكون حقيقيًا لكي يقبل على أنه حقيقي، أم أن الإيمان بحقيقة الحدث تجعله حقيقيًا، حتى إن كان الشيء الذي يفترض أنه حدث لم يحدث؟ وماذا لو أنك على الرغم من محاولاتك أن تعرف إنْ كان الحدث تحقق أم لم يتحقق، وصلت إلى ما تعذر التحقق منه ولم تستطع أن تتأكد إن كانت القصة التي رواها لك أحدهم في شرفة مقهى في مدينة إيفانو-فرانكيفسك الأوكرانية الغربية استمدت من حدث تاريخي غير معروف على نطاق واسع ولكنه قابل للتحقق أو كان أسطورة ادعاءٍ أو إشاعة لا أساس لها انتقلت من أب إلى ابن؟ والأهم من ذلك: إن اتضح أن القصة مذهلة وقوية إلى حد أنك تفغر فاك وتشعر أنها غيرت أو زادت أو عمقت فهمك للعالم، هل يظل من المهم أن تكون حقيقية أو غير زائفة؟

قادتني الظروف إلى أوكرانيا في سبتمبر 2017. كان العمل الذي جئت من أجله في مدينة لفيف، لكني استفدت من يوم فرغت فيه لأسافر مدة ساعتين إلى الجنوب وأمضي فترة بعد الظهر في بلدة إيفانو فرانكيفسك، حيث ولد جدي لأمي في مطلع الثمانينيات من القرن التاسع عشر تقريبًا. لم يكن هناك مبرر للذهاب إلى هناك عدا حب الاستطلاع، أو ما أسميه جاذبية الحنين الزائف، لأنني في الحقيقة لم أعرف جدي وحتى الآن لا أكاد أعرف عنه شيئًا. توفي قبل ولادتي بسبعة وعشرين عامًا، رجل في الظل قادم من ماضٍ لم يدون ولا يتذكره أحد، وحتى

حين سافرت إلى المدينة التي تركها أواخر القرن التاسع عشر أو بداية العشرين، عرفت أن المكان الذي قضى فيه صباه ومراهقته لم يعد هو نفس المكان الذي سأقضي فيه فترة العصر. ومع ذلك أردت أن أذهب إلى هناك، وحين أعود بالنظر وأتأمل الأسباب التي جعلتني أرغب في ذلك، فقد تتحصر في حقيقة واحدة قابلة للإثبات: ستأخذني الرحلة عبر الأراضي الدموية من شرق أوروبا، منطقة الرعب المركزية في مذبحة القرن العشرين، ولو أن الرجل-الظل المسؤول عن منح أمي اسمها لم يغادر ذلك الجزء من العالم حين فعل، فلم أكن لأولد.

ما عرفته قبل وصولي كان أن المدينة التي عمرها أربعمئة عام وتعرف بإيفان فرانكيفسك منذ ١٩٦٢ (تكريمًا للشاعر الأوكراني إيفان فرانكو) كانت تعرف بأسماء منها ستانسلاوو، ستانسلاو، ستانسلافيف، وستانسلاف، حسب الدولة التي كانت تحكمها: بولندا، ألمانيا، أوكرانيا، أو الاتحاد السوفييتي. المدينة البولندية صارت مدينة هابسبرغية، والمدينة الهابسبرغية صارت نمساوية-هنغارية، والمدينة النمساوية-الهنغارية صارت روسية في العامين الأولين من الحرب العالمية الأولى، ثم نمساوية-هنغارية، ثم أوكرانية لمدة قصيرة بعد الحرب، ثم مدينة بولندية، ثم سوفييتية (من سبتمبر 1939 حتى 1941)، ثم مدينة تحت السيطرة الألمانية (حتى يوليو 1944)، ثم مدينة سوفييتية، والآن، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي عام 1991، مدينة أوكرانية. عند ولادة جدي، كان عدد السكان 18,000، وفي 1900 (التاريخ التقريبي لمغادرته) كان هناك 26,000 من السكان يعيشون هناك،

أكثر من نصفهم يهود. عند زيارتي، كان السكان قد ازدادوا ليبلغو 230,000، لكن أثناء سنوات الاحتلال النازي كان العدد ما بين ثمانين وخمسة وتسعين ألفًا، نصفهم من اليهود، والنصف الآخر من غير اليهود، وما كنت أعرفه عندئذٍ ولعدة عقود هو أنه بعد الغزو الألماني في صيف 1941 جُمع عشرة آلاف يهودي وأطلقت عليهم النار في المقبرة اليهودية في ذلك الخريف وفي ديسمبر اقتيد المتبقون من اليهود إلى غيتو كان عشرة آلاف يهودي قد أرسلوا منه إلى معسكر البلزك للموت في بولندا، وعندئذٍ، قام الألمان بتسيير المتبقين من يهود ستانسلاو نحو الأحراش المحيطة بالمدينة وأطلقوا النار عليهم، أطلقوا، وأطلقوا حتى لم يبق يهودي واحد - عشرات الآلاف من الناس قتلوا برصاصة خلف الرأس ثم دفنوا في الحفر العامة التي كانت قد حفرها من سبقهم من القتلى قبل قتلهم.

تولت امرأة لطيفة التقيتها في لفيف تنظيم رحلة لي، ولأنها كانت قد ولدت وتربت في إيفانو-فرانكيفسك ولا تزال تعيش هناك، فقد كانت تعرف أين يذهب المرء وماذا يشاهد بل إنها كلفت نفسها إحضار شخص يأخذنا بالسيارة إلى هناك. كان السائق شابًا متهورًا لا يخشى الموت، فانطلق بنا عبر طريق ذي مسارين كما لو كان في مسابقة للحصول على وظيفة سائق سيارة سباق في أحد الأفلام، داخلًا بهدوء في مخاطرات غير محسوبة لتجاوز كل سيارة أمامنا منحرفًا نحو المسار الآخر حتى أثناء إقبال سيارة على المسار المعاكس، وقد شعرت لأكثر من مرة أثناء تلك الرحلة أن فترة بعد الظهر المملة والغائمة في أول يوم

من أيام خريف 2007 ستكون آخر أيامي على الأرض، وأي مفارقة ستكون، قلت لنفسي، ومع ذلك لكم هي مناسبة بصورة مرعبة، أن آتي كل هذه المسافة لزيارة المدينة التي تركها جدي منذ أكثر من قرن مضى فقط لكي أموت قبل الوصول إليها.

كانت حركة المرور لحسن الحظ خفيفة، خليط من سيارات سريعة وشاحنات بطيئة وفي إحدى اللحظات نزلت إلى الطريق عربة يجرها حصان تتحرك بعشر سرعة أكثر السيارات بطئًا. نساء بدينات، كثيفات السيقان ربطن على رؤوسهن مناديل كن يمشين بصعوبة على جانب الطريق وهن يحملن أكياسًا من البلاستك مملوءة بما اشترين من البقالة. باستثناء أكياس البلاستك كان الممكن اعتبارهن نساء عشن قبل مئتي عام، نساء فلاحات من شرق أوروبا محاصرات في ماضٍ قديم وصامد إلى درجة أنه استمر إلى القرن الحادي والعشرين. اجتزنا أطراف العشرات من البلدات الصغيرة بينما امتدت حقول حصدت مؤخرًا على جانب الطريق، لكن في ذلك المكان، نحو ثلثي الطريق، اضمحل المشهد الريفي في منطقة لا هوية لها من الصناعة الثقيلة، المثال الأكثر إدهاشًا من بينها كان محطة توليد الكهرباء الهائلة التي نهضت فجأة أمامنا من الجهة اليسرى. إن لم أخطئ في فهم ما قالته تلك المرأة اللطيفة في السيارة، كانت تلك المحطة المرعبة تمد ألمانيا ودولاً أخرى في غرب أوروبا بمعظم ما تحتاج إليه من الكهرباء. تلك هي الحقائق المتناقضة في تلك الدولة المواجهة ذات الثمانمئة ميل عرضًا والمحتجزة في ميادين القتل بين الشرق والغرب، فحتى حين تقوم أوكرانيا

بتغذية أحد الجانبين بعصير الكهرباء ليضيئوا مصابيحهم ويبقوا الأشياء تعمل، فإنها في الجانب الآخر تمضي في إراقة الدماء للدفاع عن أراضيها المنكمشة والمتصارع عليها.

اتضح أن إيفانو-فرانكيفسك مكان جذاب، مدينة لا تشبه المدنية المتهالكة التي تصورتها. كانت السحب قد تبددت قبل وصولنا بدقائق، ومع إشراقة الشمس وحركة العشرات من الناس يمشون في الشوارع والساحات العامة، أعجبني مستوى النظافة والنظام في المدينة، فهي ليست مكانًا ريفيًا متخلفًا عالقًا في الماضي وإنما هي مدينة صغيرة معاصرة فيها المكتبات التجارية، والمسارح، والمطاعم، ومزيج مبهج للجديد والقديم من العمارة، القديم الذي ظل متمثلًا في بنايات تعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر صممها المؤسسون البولنديون وغزاتهم من الهابسبرغ. كان يمكنني أن أكتفي بالتجول لساعتين أو ثلاث ثم أعود، لكن المرأة اللطيفة التي نظمت الزيارة أدركت أن هدفي من الذهاب إلى هناك كان له صلة بجدي ولأن جدي كان يهوديًا، خطر لها أنه قد يكون من الأفضل لي أن أتحدث إلى الحاخام الوحيد الباقي في المدينة، القائد الروحي لآخر كنيس موجود في إيفانو-فرانكيفسك - الذي اتضح أنه مبنى قوي وذو تصميم جميل يعود إلى الحرب العالمية الثانية ليس فيه سوى تلف محدود وأُصلح منذ أمد بعيد. لا أتذكر كيف كانت ردة فعلي لكنني لم أعترض على التحدث إلى الحاخام، بما أنه على الأرجح الشخص الوحيد الباقي فوق الأرض وفي أي مكان من العالم الذي من المحتمل -فقط محتمل- أنه قادر على إخباري شيئًا عن أسرتي،

أولئك الحشد من الأسلاف المتوارين الذي تشتتوا وماتوا ثم اختفوا نهائيًا من الخارطة، ذلك أنه من شبه المؤكد أن سجلات ميلادهم دمرت بفعل قنبلة أ حريق أو توقيع بيروقراطي شديد الحماسة في وقت ما خلال الأعوام المئة الماضية. التحدث مع الحاخام سيكون مهمة لا فائدة فيها، كما تبين لي، ناتج فائض للحنين المزيف إلى الماضي الذي أتى بي إلى المدينة في المقام الأول، لكن ها أنا ذا في ذلك اليوم، ذلك اليوم فقط، لا أدري إنْ كنت سأعود مرة اخرى، وما الضرر الذي سيحدث من طرح بعض الأسئلة وترقب إجابة ما عنها؟

لم تكن هناك أي إجابات. الحاخام الملتزم والملتحي رحب بي في مكتبه، لكن لم تكن لديه أية معلومات غير التي كنت أعرف -أن أوستر كان اسمًا شائعًا بين يهود ستانسلاف فقط- ثم الاستطراد الموجز إلى حكاية من الحرب حول امرأة اسمها أوستر أفلتت من الأسر الألماني بالاختباء في حفرة حيث كانت مريضة عقليًا، وظلت شخصًا مجنونًا بقية حياتها. كان رجلًا مرتبكًا، كثير الحركة، يدخن باستمرار، طوال حديثنا، سجائر بالغة النحافة، ثم يطفئها بعد نفخات قليلة ليسحب غيرها من كيس بلاستيكي على مكتبه؛ لم يكن لطيفًا ولا غير لطيف، كان مشدوهًا فقط، رجلًا يفكر في أمور أخرى، وحسب قدرتي على التقدير، كان مهمومًا بمشاغله الخاصة لكي يبدي اهتمامًا بزائره الأمريكي أو المرأة التي رتبت للقاء. حسب أكثر التقديرات لم يعد هناك أكثر من مئتين إلى ثلاثمئة يهودي يعيشون في إيفانو-فرانكيفسك في الوقت الحالي. ليس واضحًا كم عدد الملتزمين

بدينهم أو يحضرون طقوس الكنيس، لكن حسب ما شاهدت قبل ساعة من لقاء الحاخام، بدا لي أنه ليست أكثر من نسبة ضئيلة من ذلك العدد المتقلص يشاركون فعلًا. المصادفة المحضة جعلت زيارتي تتوافق مع «روش هاشاناه»، أحد أكثر الأيام قداسة على التقويم الطقوسي، ولم يحضر سوى خمسة عشر شخصًا في الملاذ الآمن ليستمعوا إلى صوت «الشوفار» (بوق المعبد) الذي يرحب بالسنة الجديدة، ثلاثة عشر رجلًا وامرأتان. على عكس من يقابلهم في أوروبا الغربية وأمريكا في مناسبات كهذه، لم يلبس الرجال بذلات سوداء وربطات عنق وإنما سترات واقية وغطيت رؤوسهم بقبعات بيسبول حمراء وصفراء.

عدنا إلى الخارج وتجولنا في المنطقة لمدة ساعة، ساعة ونصف، وربما أطول. كانت المرأة اللطيفة قد هيأت لي أن أتحدث مع شخص آخر عند الرابعة، شاعر من إيفانو-فرانكيفسك كان فيما يبدو قد أمضى سنوات من الانكباب على تاريخ المدينة، لكن كان الوقت يسمح الآن باستكشاف بعض الأماكن التي لم نزرها مسبقًا، ولهذا مضينا في تجوالنا حتى غطينا جزءًا كبيرًا من المدينة. كانت الشمس قد بلغت الاشتعال، وفي ذلك الضوء السبتمبري الجميل وجدنا أنفسنا في ساحة كبيرة مفتوحة واقفين أمام كنيسة القيامة المقدسة، وهي كاتدرائية على الطراز الباروكي تعود إلى القرن الثامن عشر وتعد أجمل مبنى من عهد الهابسبرغ في السنوات التي كانت إيفانو- فرانكيفسك تسمى ستانسلاو. كما هي حال الكنائس والكاتدرائيات الأخرى الجميلة التي زرت في مدن وبلدات أوروبا الغربية، افترضت أنه خالٍ في المجمل

حين دخلنا، فلم يكن هناك أحد حولنا ما عدا بعض السواح العابرين وكاميراتهم. كنت مخطئًا. لم تكن هذه أوروبا الغربية في نهاية الأمر، كانت الطرف الغربي الأقصى مما كان يسمى الاتحاد السوفييتي، مدينة واقعة في ولاية غاليسيا على الحد الشرقي الأقصى من الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية السابقة، والكنيسة، التي لم تكن كاثوليكية رومانية أو أورثوذوكسية روسية وإنما كاثوليكية يونانية، كانت محتشدة بالناس الذين لم يكن كلهم سواحًا أو دارسين للعمارة الباروكية وإنما مواطنين محليين جاؤوا للصلاة أو ليفكروا أو يتحدثوا مع أنفسهم أو مع الإله في ذلك الفضاء الحجري بينما ضوء سبتمبر يصب عبر الشبابيك المصنوعة من الزجاج المعشّق. كان هناك ما يقارب المئتين منهم، وما أدهشني بصفة خاصة حول ذلك الحشد الكبير الصامت كان عدد الشبان بينهم، نحو نصف المجموع، رجالًا ونساءً في أوائل العشرينيات يجلسون على المقاعد الخشبية الطويلة ورؤوسهم منحنية أو على ركبهم وأيديهم مقبوضة ورؤوسهم مرفوعة وأعينهم مثبتة على الضوء المتدفق عبر شبابيك الزجاج المعشّق. بعد ظهر يوم عادي من أيام الأسبوع، لا يميزه شيء عن أي يوم آخر ما عدا أن الطقس كان ممتعًا بصورة استثنائية، في ذلك العصر المشع كانت كنيسة القيامة المقدسة مملوءة بالشبان الذين لم يكونوا يعملون أو جالسين في المقاهي الخارجية وإنما راكعين على الأرضية الحجرية بأيديهم متشابكة ورؤوسهم مرفوعة في وضع صلاة. في البدء الحاخام الذي لا يتوقف عن التدخين، ثم قبعات البيسبول الحمراء والصفراء، والآن هذا.

وبعد هذا، أي الذي جاء تاليًا للذي سبقه، كان من المعقول جدًّا بالنسبة إليّ أن يتبين أنه شاعر بوذي. لا لم يكن أحد أولئك الذين اعتنقوا مذهب «العصر الجديد» ممن قرؤوا كتابين حول «الزن» وإنما هو ممارس لمدة طويلة وعاد للتو من إقامة لمدة أربعة أشهر في دير بنيبال، رجل جاد. وأيضًا شاعر، وكذلك دارس للمدينة التي ولد فيها جدي. كان رجلًا ضخمًا، كبير الحجم بيدين كبيرتين وشخصية لطيفة، نافذ البصيرة، شخص حكيم بلباس أوروبي، أشار إلى أن التزامه البوذية أمر عابر، وهو ما رأيته مشجعًا ولذا وثقت به وشعرت بأنه يمكنني الاعتماد عليه في قول الحقيقة. حدث اللقاء منذ عامين فقط، لكن الغريب في أمر لقائنا أنه حتى بعد ذلك الوقت القصير ومع أنني فكرت فيه كل يوم تقريبًا منذ ذلك الحين، فإنني لا أستطيع تذكر شيء واحد قاله لي عن المدينة قبل أن يشير إلى الذئاب. ما إنْ بدأ يروي القصة تبخر كل شيء آخر.

كنا نجلس على شرفة مقهى ننظر إلى الساحة الكبيرة في المدينة، مركز الحركة في ستانسلاف - إيفانو - فرانكيفسك، فضاء واسع مغمور بضوء الشمس بلا سيارات وأعداد غفيرة من الناس يمشون من هنا إلى هناك في كل الاتجاهات، وليس منهم من يستدير كما أذكر، لا شيء سوى كيان ضخم من الأجساد تمر أمامي بينما أستمع إلى الشاعر يروي القصة. كنا قد انطلقنا من حقيقة مفادها أنني على علم بما حدث للنصف اليهودي من السكان ما بين1941 و1943، لكن حين زحف الجيش الروسي للسيطرة على المدينة في يوليو 1944، كما قال، بعد ستة أسابيع

فقط من غزو الحلفاء لنورماندي، فإن الألمان لم ينسحبوا فحسب وإنما كان النصف الثاني من السكان قد اختفى أيضًا. هربوا جميعًا كل في اتجاه، شرق وغرب، شمال وجنوب، ما يعني أن السوفييت اقتحموا مدينة خالية، منطقة من اللا شيء. كان السكان قد تفرقوا مع الرياح الأربع، وبدلًا من السكان جاءت الذئاب لتقيم، مئات الذئاب، مئات فوق مئات من الذئاب.

مرعب، قلت في نفسي، مرعب إلى حد أن في ذلك من الرعب ما في أكثر الأحلام رعبًا، وفجأة، كما لو أنني صحوت من حلم، تدفقت علي قصيدة لغورغ تراكل[1] - «الجبهة الشرقية»، التي كنت قرأتها قبل خمسين عامًا، وأعدت قراءتها المرة تلو الأخرى حتى حفظتها عن ظهر قلب وأعدت ترجمتها لنفسي، قصيدة الحرب العالمية الأولى من العام 1914 التي كتبت حول غوديك، وهي مدنية غاليسية ليست بعيدة عن ستانسلاو وتنتهي بهذا المقطع:

أحراش مكدسة بالأشواك تسوّر المدينة
ومن درج مدمى قمر يطارد
النساء المرعوبات.
ذئاب متوحشة اقتحمت البوابات.

تساءلت: كيف عرف ذلك؟

---

(1) غورغ تراكل Georg Trakl شاعر نمساوي (1887-1914).

أبـوه، كمـا قـال لـي، أبـوه هـو الـذي روى لـه القصـة عـدة مـرات، وبعـد ذلـك اسـتمر يشـرح أن أبـاه كان شـابًا صغيـرًا عـام 1944، لـم يكـد يبلـغ العشـرين، وبعـد سـيطرة السـوفييت علـى ستانسـلاو، التـي سـتعرف منـذ ذلـك الحيـن بستانسـلاف، انتظـم فـي وحـدة مـن الجيـش مهمتهـا القضـاء علـى الذئـاب. اسـتغرقت المهمـة عـدة أسـابيع، كمـا قـال، أو ربمـا عـدة أشـهر، لا أتذكـر، ومـا إنْ صـارت ستانسـلاو صالحـة للسـكن البشـري مـرة أخـرى، مـلأ السـوفييت المدينـة بالأفـراد العسـكريين وعائلاتهـم.

نظـرت إلـى السـاحة التـي أمامـي وحاولـت أن أتخيلهـا فـي صيـف 1944، النـاس جميعًـا يسـيرون حولهـا كل فـي مهمتـه مـن مـكان إلـى آخـر ثـم يختفـون فجـأة، امتُصـوا مـن المشـهد، وعندئـذٍ بـدأت أرى الذئـاب، عشـرات مـن الذئـاب تتبختـر عبـر السـاحة، تتحـرك فـي مجموعـات صغيـرة وهـي تبحـث عـن الطعـام فـي مدينـة مهجـورة. قلـت لنفسـي إن الذئـاب هـي نقطـة النهايـة فـي الكابـوس، النتيجـة الختاميـة للغبـاء الـذي يؤدي إلـى مـا تخلفـه الحـروب مـن دمـار، فـي هـذه الحالـة الثلاثـة ملاييـن يهـودي الذيـن قتلـوا فـي تلـك الأراضـي الشـرقية مـع العـدد الـذي لا يحصـى مـن المدنييـن والجنـود مـن ديانـات أخـرى أو مـن غيـر ديـن، وبمجـرد انتهـاء المذبحـة تعـود الذئـاب مندفعـة عبـر بوابـات المدينـة. ليسـت الذئـاب مجـرد رمـوز للحـرب. إنهـا مـا تفرخـه الحـرب ومـا تجلبـه الحـرب إلـى الأرض.

لـم يكـن لـدي شـك فـي أن الشـاعر كان يعتقـد أنـه كان يقـول لـي الحقيقـة. كانـت الذئـاب حقيقيـة بالنسـبة إليـه، ولأننـي لاحظـت هـدوء القناعـة فـي صوتـه وهـو يـروي القصـة، تقبلتهـا أنـا نفسـي

على أنها حقيقية. إنه يقر بأنه لم ير الذئاب بعينيه، لكن أباه رآها، وما السبب الذي يجعل أبًا يروي لابنه قصة كهذه إن لم تكن حقيقية؟ لم يكن ليفعل، قلت لنفسي، وحين غادرت إيفانو-فرانكيفسك في نهاية عصر ذلك اليوم، كنت مقتنعًا أنه لفترة قصيرة بعد انتزاع الروس السيطرة على ستانسلاف من الألمان، كانت الذئاب تحكم المدينة.

في الأسابيع والأشهر التي تلت، فعلت ما أستطيع لاستقصاء الموضوع بصورة أدق. تحدثت إلى صديق كان على صلة بمؤرخين في جامعة لفيف (التي كانت تعرف بأسماء مختلفة هي لفوف، ولواو، ولمبرغ)، وبصورة خاصة امرأة تخصصت بتاريخ المنطقة، لكنها قالت إنها لم تجد في أبحاثها السابقة أي أثر يشير إلى ذئاب ستانسلاف، وحين بحثت في الأمر بإمعان أكبر، لم تجد أي دليل على القصة التي رواها الشاعر. ما اكتشفته، على أية حال كان قصيرًا يوثق سيطرة الجنود السوفييت على المدينة في 27 يوليو، 1944، وحين أُرسل إلي فيديو يضم ذلك الفلم استطعت أن أراه بنفسي وأنا أجلس على نفس الكرسي الذي أجلس عليه الآن.

تسير فرقة مؤلفة من خمسين أو مئة جندي بتراتبية منضبطة نحو ستانسلاف بينما تتعالى أصوات الترحيب بهم من حشد من المواطنين الذين تغذوا جيدًا ولبسوا ملابس أنيقة. ثم يتكرر المشهد من زاوية مختلفة قليلًا، تظهر الخمسين أو المئة جندي أنفسهم والحشد ذا الغذاء الجيد واللباس الأنيق. ينتقل الفلم عندئذٍ إلى صورة لجسر منهار، ثم يعود، قبل زحفه البطيء نحو النهاية، إلى اللقطة التي انطلق منها للجنود والجمهور المرحب.

قد يكون الجنود حقيقيين، لكن في هذه الحالة طلب منهم أن يلعبوا دور الجنود، مثلما كان الممثلون يؤدون أدوارهم في فلم دعائي مجتزأ وكتب على نحو رديء قصد منه الإعلاء من طيبة وشجاعة الاتحاد السوفييتي.

لا حاجة إلى القول إن الفيلم لا يظهر ذئبًا واحدًا.

الأمر الذي يعيدنا إلى الموضع الذي بدأت منه والسؤال الذي لا إجابة له: ماذا ستصدق حين لا تكون متأكدًا من أن واقعة مفترضة حقيقية أو لا؟

في غياب أي معلومة تؤكد أو تنفي صحة القصة التي أخبرني، أفضل أن أصدق الشاعر. وسواء أكانت الذئاب موجودة أم كانت غير موجودة فإنني أختار أن أصدق بأنها كانت موجودة.

5

في الوقت الحاضر كل شيء متوقف. كتب بومغارتنر آخر جملة من آخر فقرة من الفصل الأخير من **أسرار العجلة**، والآن، على مدى الشهر التالي تقريبًا، عليه أن ينسى أن الكتاب تم الانتهاء منه أو أنه قرر يومًا أن يكتب كتابًا كهذا في المقام الأول. يشير بومغارتنر إلى فترة ما بعد الكتابة هذه على أنها الـ **انهيار**، أو **السيدة دولتل في أكوابها**، أو، محاكيًا العبارة الدعائية القديمة لكوكاكولا التي عرفها في طفولته، **الوقفة التي تنعش**. إنها الخطوة الأساسية نحو الانتهاء من كتاب، ذلك أنه بعد معايشة الكتاب أثناء العمل عليه كل يوم وكل ليلة لمدة تمتد للعديد من السنوات، فإنك تكون قريبًا منه حين تنتهي إلى حد أنك لا تستطيع الحكم على ما انتهيت منه. أكثر من ذلك، الكلمات التي كتبت تغدو مألوفة بالنسبة إليك حينئذٍ بحيث تكون قد ماتت على الصفحة، وأن تنظر إليها الآن سيغمرك بنوبات من القرف قد تغريك بإتلاف المخطوطة في لحظة غضب أو يأس. لكي تحتفظ بسلامة عقلك، ومن أجل ما يمكن أن يعد قابلًا للإنقاذ من الكارثة التي ارتكبتها، عليك أن تجبر نفسك على التراجع وترك ذلك الشيء اللعين وحده إلى أن ينفصل عنك تمامًا بحيث حين تجرؤ على النظر إليه مرة أخرى، ستشعر أنك تواجهه للمرة الأولى.

إنها أحد الدروس العديدة التي تعلمها عبر السنين العجوز الذي حكم عليه بالمؤبد وما زال يقضي العقوبة في آخر زنزانة على الطابق الثالث من الإصلاحية رقم 7.

لهذا السبب، في الوقت الحالي، توقف كل شيء ووصل بومغارتنر إلى إحدى فواصله الموسمية من التسكع القسري. اعتاد في الغالب أن يوظف تلك الفراغات ليعتني بمهام يومية وذات طابع عملي، كل الالتزامات المملة في الحياة اليومية التي يتعمد تجاهلها ويتركها مهملة كلما تكثف انشغاله بمشروع. الذهاب إلى طبيب الأسنان، مثلًا، أو شراء ملابس لنفسه، أو الاتصال بالطبيب بعد تأجيل دام سنة ونصف للترتيب لفحصه السنوي المؤجل منذ وقت طويل، أو الاهتمام بعدد من الأمور المزعجة في المنزل، مثل التطهير ما بعد الكيركيغاردي الذي أدى أخيرًا إلى التخلص من الفوضى في الشرفة الخلفية حين استأجر رجلًا محليًا يعرف «الرجل صاحب الباص» لشحن كتبه التي لا يحتاج إليها إلى المكتبة العامة - محتويات أربعمئة واثنتي عشرة كرتونة أعطته إياها مولي، الكائن المشع التي تعمل في «يو بي إس» والتي بقيت بعد غياب كل النساء الأخريات اللاتي دخلن حياته وخرجن منها على مدى الأعوام العشرة الماضية.

مع ذلك فإن هذه المرة تختلف عن كل المرات الأخرى، وبومغارتنر يشتعل بخطط، خطط جريئة تمضي أبعد من الانشغال التقليدي بتنظيف أسنانه أو شراء زوج من الأحذية. لقد مضت أربعة أيام منذ كتب الجملة الأخيرة من كتابه. بعد ذلك مباشرة، طبع نسخة من المخطوطة البالغة مئتين وإحدى وستين صفحة والموضوعة في درج مكتبه، وهو يقول لنفسه ألا ينظر إليها مرة أخرى لشهر آخر أو ستة أسابيع أخرى، أي ليس قبل منتصف أو نهاية نوفمبر. ثم بعد مضي يومين (في 17 أكتوبر، 2019)، أي

قبل يومين فقط، حدث ما لم يكن متوقعًا، ونتيجة للأثر القوي الذي تركه ذلك الشيء، شمر بومغارتنر بانتشاء وإلهام جديد عن ساعديه وانغمر في التحدي الذي يمثله ذلك الكتاب.

المفاجأة جاءت في رسالة وصلت من آن آربر، (بولاية) ميتشغان. رسالة لطيفة مطبوعة بأسطر متباعدة ومرسلة بالبريد مباشرة إلى عنوان بومغارتنر على شارع (بو) في مغلف رسمي من شخص يحمل اسم بياتركس كون. بدأت الرسالة بعبارة «عزيزي بروفيسور بومغارتنر» تبعتها فقرة افتتاحية وضحت كيف حصلت الآنسة كون على العنوان الشخصي لبومغارتنر، أنها حصلت عليه من صديق مشترك هو توم نوزويتسكي، المشرف عليها في برنامج الدراسات العليا في اللغة الإنجليزية والأدب المقارن في جامعة ميتشغان. إنه العزيز توم الصديق القديم ذو الشعر المجعد والبطن البارز، قال بومغارتنر لنفسه. هو الصديق الثرثار من أيام (المدرسة الجديدة) في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، الأصغر قليلًا منه والواقع في علاقة نصف غرامية بآنا، ذلك التغزل الملح والمسالم ولكن الحاد دائمًا، الممتع الحديث، المختص بالشعر الأمريكي، بالجانب المعاصر منه، بالمتمردين والخارجين من حشد (الجبل الأسود)، مدرسة نيويورك[1]، ومن شاكلهم، ذاهبًا إلى آن أربر في نفس الوقت تقريبًا الذي ذهب فيه بومغارتنر وآنا إلى برنستون ومؤلف أطول مراجعة لكتاب آنا وأكثرها تدقيقًا وحماسة. إنه توم نوزيويتسكي، الذي لا يزال

(1) الجبل الأسود ومدرسة نيويورك مجموعتان من الشعراء والفنانين الأمريكيين اللتان اشتهرتا في منتصف القرن العشرين.

يتصل بين الفينة والأخرى ولا ينسى الاتصال ببومغارتنر حين يأتي إلى نيويورك وكان بالمناسبة قد أرسل لبومغارتنر الأسبوع الماضي إيميلًا داعمًا للآنسة كون وليعطي (س ت ب)[1] ما يلفت انتباهه إلى أن رسالتها ستصله قريبًا، لكنْ بومغارتنر كان قد غفل عن الإيميل ضمن سيل الرسائل التي تراكمت في بريده، عشرات من الرسائل غير المقروءة والمهملة الملقاة على الطرف المظلم من الوعي بينما هو يواصل العمل للانتهاء من الفصل الأخير من كتابه، لذا قرأ رسالة الآنسة كون قبل أن يقرأ ما كان توم قد قاله عنها (شابة ألمعية... أفضل تلميذاتي منذ سنوات... مفكرة وكاتبة جميلة تحب قصائد آنا و- كم هو غريب هذا؟ - أحيانًا تذكّرني بآنا نفسها...)، لكن الحقيقة أن رسالة الآنسة كون كانت قوية بما يكفي لتوصي بنفسها، وفي الوقت الذي قرأ فيه بومغارتنر الجملة الأخيرة، أدرك أن عليه الرد عليه حالًا.

كانت تأمل في أن تكتب رسالتها للدكتوراه عن أعمال آنا، لكن بما أن تلك الأعمال اختزلت في مجلد واحد يتألف من مئة واثنتي عشرة صفحة، شكت في أن اللجنة ستقبل مقترحها. ذلك هو السبب في أنها كتبت لبومغارتنر في هذا الوقت: لتعرف إنْ كان لديه مزيد من الأعمال التي تتجاوز الثماني والثمانين قصيدة المنشورة في ليكسيكون[2]. أي قصائد جديدة ابتداءً لكن أيضًا إن كانت هناك نصوص نثرية متيسرة، أو رسائل، أو يوميات من نوع ما، أو مذكرات، أو مخطوطات أولية ومراجعات، أو أي مواد غير

(1) اختصار لاسم بومغارتنر الكامل.

(2) المختارات من قصائد آنا التي سبق أن نشرها بومغارتنر.

منشورة يمكن أن تساعدها في الوصول إلى فهم أفضل لـ «عبقرية آنا بلوم المقلقة». ابتسم بومغارتنر وهو يقرأ تلك الكلمات. ثم ضرب بيده على طاولة المطبخ ووضع الرسالة ليدخل في لحظة انتشاء. هذه البنت جادة، قال لنفسه، والأسئلة التي تطرح هي الأسئلة الصحيحة. لو كانت هناك فعلًا مخطوطات غير منشورة فقد أرادت أن تعرف إنْ كان قد أرسلها إلى أرشيف ما في مكان ما أو (كما توقع توم نوزيويتسكي) ما زالت الأوراق في بيته على شارع (بو)، وإن كانت هناك، فقد تساءلت إنْ كان سيسمح لها بأن تأتي لزيارته وتبقى في المكان وقتًا كافيًا للاطلاع على ما لديه - على أساس أن ذلك يمكن إنجازه في زيارة واحدة. سوف تجد سكنها الخاص بالطبع، وستراعي أي شروط يفرضها عليها: عدد الساعات في اليوم، مثلًا، والأوقات المحددة لطرح الأسئلة، لكي لا يتعارض ذلك مع عمله أو تجعل من نفسها مصدر إزعاج.

رسائل كثيرة جاءت أثناء السنوات العديدة التي تلت نشر كتاب آنا، لكن لم تأت رسالة مثل هذه، فلم تكن طلبًا لعمل منتخب شعري أو استفسار حول ترجمة أو رسالة مفعمة بعاطفة الإعجاب من طالبة مدرسة ثانوية في ماساشوستس أو نبراسكا تعاني الوحدة، وإنما هي من باحثة شابة موهوبة لكتابة دراسة كاملة للعقل البلومي[1] في كل تجلياته المختلفة. لقد تأثر بومغارتنر بهذا بصورة لا يمكن وصفها. كانت أكثر من سعادة، كما تبين له، أكثر من مجرد سبب للاحتفال، وإنما هو شعور بالقدر يتحقق،

(1) إشارة إلى آنا بلوم، زوجة بومغارتنر.

بصورة ما، كما لو أن بومغارتنر، دون أن يحس، كان ينتظر رسالة كهذه منذ نشرت ردونغ برس كتاب آنا منذ تسعة أعوام، ربما لم ينتظرها باستمرار لكنه كان يأمل أن يكون هناك في المحيط الغامض من البشر الآخريين[1] من يهتم بما يكفي بما أعطته آنا للعالم لكي يجلس ويكتب تلك الرسالة له. والآن وصلت الرسالة، ولم يدرك بومغارتنر أن وجوده الخالي من جودث طوال العام الماضي سينتهي فحسب وإنما أن كل شيء آخر تقريبًا في حياته على وشك التغير أيضًا.

لا حاجة إلى القول بأن ثمة أكداسًا ضخمة من المواد التي لم تنشر لكي تدرسها بياتركس كون، ولا حاجة إلى القول أيضًا بأن بومغارتنر كان متحمسًا لدعوتها إلى المنزل والسماح لها بأن تبقى في محيطه بحضوره طوال المدة التي ترغب فيها أو احتاجت إلى البقاء أثناءها. في الوقت نفسه بدأ يقلق أن طالبة دراسات عليا في السابعة والعشرين من عمرها لن تقوى على الأسعار المرتفعة للموتيلات والأوتيلات والنزل التي توفر السكن والإفطار في برنستون وحواليها، وحين فكر ببدائل لموتيل 6 الكئيب على الخطوط السريعة المليئة بالضجيج والزحام في أماكن أخرى، توصل إلى أن الأفضل لمحفظتها ولراحته الذهنية لو أنها أقامت معه. ليس في نفس المنزل ربما، لأنه لم تكن

(1) يستعمل المؤلف عبارة "the mysterioum of human others" ليشير ليس إلى الناس الآخرين بالمعنى المتعارف عليه (other humans)، وإنما إلى "الآخرية" otherliness، المفهوم الفلسفي للآخر والآخرية الذي يتضمن الاختلاف بوصفه مكونًا من مكونات الشخصية ومؤثرًا في العلاقات الإنسانية.

هنـاك سـوى ثـلاث غـرف فـي الطابـق الثانـي إحداهـا غرفـة نومـه والثانيـة تحولـت إلـى مكتـب لـه والأخيـرة هـي غرفـة الضيـوف الصغيـرة المجـاورة لغرفتـه، وهـي درجـة مـن القـرب ستسـبب قـدرًا لا حـدود لـه مـن الحـرج والخجـل لضيفـة بومغارتنـر، لكـي لا نتحـدث عـن بومغارتنـر نفسـه: غريبـان يتشـاركان حمامًـا واحـدًا ومضطـران إلـى الاضطجـاع كل ليلـة علـى جانبـي حائـط ضئيـل وبينهمـا سـتة أقـدام. لـو أن بومغارتنـر انقلـب علـى ظهـره فـي أي لحظـة أثنـاء الليـل، فإنـه سيشـخر بالتأكيـد، ومـن يـدري إن كانـت الآنسـة كـون لا تشـخر هـي الأخـرى؟ مـن ناحيـة أخـرى، هنـاك الشـقة الواقعـة تحـت السـقف الـذي يعتلـي كـراج السـيارتين، فضـاء صغيـر وممتـع يتسـع لشـخصين، بسـرير وأدراج، ودولاب، ومطبـخ صغيـر، وحمـام فيـه متسـع للـدوش، مـع مدفـأة كهربائيـة كبيـرة مفصولـة وواقفـة. اعتـاد هـو وآنـا أن يؤجراهـا لطـلاب الدراسـات العليـا أثنـاء السـنوات الخمـس أو السـت الأولـى مـن إقامتهمـا هنـاك، وحيـن لـم يعـودا بحاجـة إلـى المـال الإضافـي، احتفظـا بهـا مهيـأة لمـن يزورهمـا مـدة طويلـة أو فـي نهايـة الأسـبوع مـن أصدقـاء نيويـورك. لكـن منـذ وفـاة آنـا نسـي بومغارتنـر الشـقة إلـى حـد مـا، ولـولا حـرص السـيدة فلوريـس وإصرارهـا علـى تنظيـف المـكان تنظيفًـا دقيقًـا كل ربيـع وخريـف مـن كل عـام، فـإن تلـك الشـقة الجميلـة كانـت سـتتحول إلـى إمبراطوريـة للوطاويـط والعناكـب والغبـار. فـي وضعهـا الحالـي يمكـن خـلال أسـابيع قليلـة مـن اللمسـات والإصلاحـات إعادتهـا إلـى وضعهـا الجيـد، وفـي17 أكتوبـر، بعـد نحـو سـت سـاعات مـن قراءتـه رسـالة بياتركـس كـون، اسـتأجر

بومغارتنر السيد فلوريس وفريقه للقيام بالعمل. وطلب منهم بعد الانتهاء من تلك المهمة أن يقوموا بمهمة أخرى: أن يزيلوا الدرج القديم المؤدي إلى القبو وبناء آخر من جديد. أخيرًا.

في ذلك اليوم نفسه اتصل بتوم نوزيوتسكي في آن آربر. بعد الانتهاء من التحايا الإلزامية وكيف أنت وماذا تفعل مؤخرًا، قال بومغارتنر: أخبرني المزيد عن طالبتك بياتركس كون. فهمت من رسالتك أنها موهوبة وواعدة بصورة استثنائية، ولكني على وشك دعوتها للمجيء إلى هنا لما قد يتحول إلى زيارة طويلة، وأحتاج إلى معرفة إنْ كانت متوازنة، شخصًا يوثق به ولن تجلب كارثة وبؤسًا إلى المنزل. أنا على استعداد لمشاركتها أطنانًا من المواد، لكن إن اتضح أنها مختلة، أو يصعب التعامل معها، أو خجولة جدًا أو ثرثارة أو كثيرة الطلبات أو كثيرة أي شيء آخر، فسأغير خططي وأبحث عن طريقة أخرى للتعامل معها. هذا على افتراض أنني سأتعامل معها أساسًا.

ضحك توم. لا تقلق يا سي. إنها فتاة صلبة. عالية الذكاء، لطيفة المعشر، متزنة. واحدة منا، كما اعتاد كونراد أن يقول. عرفتها على مدى ثلاثة أعوام، ووجدتها دائمًا ثابتة، جادة، ومثابرة على العمل، لكنها أيضًا خفيفة دم حين تكون في المزاج، كوميدية بطريقة جنونية، كما كانت آنا حين تكون في إحدى «طلعاتها»، وهو ما يجعلني أتذكر آنا كلما كانت «بيب» في المكان. بيب؟

ذلك هو الاسم الذي يطلقه الجميع عليها. وصدقني، إنها ليست الأمريكية المعتادة. نصفها يهودي، ربع أنغلوسكسوني[1]، وربع أسود. جدتها لأمها - التي كانت بالمناسبة إحدى أوائل الطبيبات السود في فيلادلفيا. وعلى الجانب الآخر، جدتها لأبيها كانت أول امرأة يهودية تعمل في قسم الفيزياء في جامعة كولومبيا. شجرة نسب غير عادية، أليس كذلك؟ أدمغة كبيرة في كل مكان، لكن بيب تحب أن تشير إلى نفسها بالهجين، أو كما في العبارة التي قالتها لي ذات يوم **شخص ما متنكر ليكون كل شخص**. ماذا غير ذلك؟ الأم مؤرخة فنون والأب متخصص في الكيمياء الحيوية والاثنان يدرّسان في جامعة شيكاغو، وأخوان يتجولان في مكان ما من أمريكا أو أوروبا أو كليهما. وأيضًا، فقط لطمأنتك، لقد قرأتْ معظم كتبك أو ربما كل كتبك وترى أنك أفضل شيء ظهر منذ «الويتيز».

إفطار الأبطال.[2]

ذلك كان المضمون، مع أنها لم تقله بتلك العبارات.

بعد الحوار مع توم، أرسل بومغارتنر ردًا إلى آن آربر، وبتلك الرسالة بدأ هو وبياتركس يخططان لزيارتها والأيام أو الأسابيع أو حتى الأشهر التي ستحتاج إليها لتحرث الألف ومئة صفحة

---

(1) يستعمل الكاتب مفردة WASP وهي اختصار بالأحرف الأولى لعبارة "أبيض أنغلوسكسوني بروتستانتي" White Anglo-Saxon Protestant.

(2) كلمة "ويتيز" Wheaties تشير إلى نوع من طعام السيريال، أو رقائق الحبوب، التي تشكل طعامًا شائعًا للإفطار في الولايات المتحدة وقد ارتبطت في الثقافة الشعبية الأمريكية بدعاية الشركة المصنعة لها التي تبرز ذلك الطعام على أنه طعام الأبطال.

من مخطوطات آنا ورسائلها غير المنشورة. يشعر الرجل العجوز بامتنان عظيم للشابة التي أبدت اهتمامًا مفعمًا بالعاطفة في أعمال آنا، وشعرت الشابة بامتنان عظيم للرجل العجوز لكرمه في دعم مساعيها ولتكبده مشقة غير عادية وتحمل تكلفة خرافية في تهيئة شقة الضيوف فوق الكراج من أجلها، وامتنان كل منهما للآخر من العمق بحيث أنه في التدفق المبكر للإيميلات والرسائل والبطاقات البريدية التي كانت تبحر جيئة وذهابًا بينهما، كان يمكن للشخص أن يشك في أنهما عضوان في بلاط لويس في فرساي في القرن الثامن عشر وليسا مواطنين في القرن الحادي والعشرين من المناطق الداخلية الوعرة والمتهدمة من العالم الجديد، ذلك أن التهذيب السلوكي (politesse) بالمستوى الذي مارساه في رسائلهما المتبادلة لم يكن معتادًا في المكان والزمان الذي عاشا فيه. ومع ذلك، شيئًا فشيئًا، تحول الكلام الرفيع إلى أشكال أكثر واقعية ومباشرة من الخطاب، واستقر الاثنان في ما يبدو أنه يتطور إلى صداقة رفيعة، وبومغارتنر مبتهج.

لديها ارتباطات أكاديمية حتى نهاية الفصل الدراسي وتخطط لزيارة والديها في عطلة الكريسماس، لذا رتبا لها أن تأتي إلى نيو جيرسي في اليوم الأول من السنة الجديدة، فجوة شهرين ونصف تتيح لبومغارتنر فرصة للانتهاء من الإصلاحات في البيت، أن يبدأ التعرف على مخطوطات آنا، ثم، بعد شهر أو نحوه، أن يقرأ مخطوطة أسرار العجلة، ليدخل بعد ذلك أي تعديلات ضرورية ويرسل الكتاب إلى وكيله الأدبي، مادي ليفتون، الذي سيرسلها بدوره بالإيميل إلى ناشره الأمريكي «هلر بوكز»، الشركة التي

شاركت آنا في تأسيسها عام 1972 والتي نشرت أعمال بومغارتنر على مدى أربعين عامًا.

والآن وقد تأكدت الزيارة، الوقت الذي بدأ فيه السيد فلوريس ورجاله بالعمل في شقة الكراج، يقرر بومغارتنر أنه لا بد من عمل شيء حول الفناء الخلفي أيضًا، حيث تحولت أحواض الزهور المفرغة إلى بؤر استيطانية للحشائش والنباتات وآلة التنظيف المتآكلة بعد أحد عشر عامًا من الإهمال لم يفعل أثناءها أكثر من استئجار سلسلة من أولاد المدارس الثانوية ليقصوا الحشائش في الربيع والصيف بالآلة اليدوية القديمة التي كانت تصدأ باستمرار والتي ورثها هو وآنا من ملاك البيت السابقين. لكن وقد صارت بيب كون على وشك أن تكون مقيمة مؤقتة على شارع بو، فقد وقع مضيفها القادم تحت سحر الحنين المكثف إلى البستنة. ذات يوم حين كانت آنا مسؤولة عن البيت وإدارته، كان في الحديقة زهور ونباتات، لم تكن معقدة أو ثقيلة على من يعتني بها وإنما قطعة صغيرة من الأرض لكل ذلك، صفًا منوعًا من الألوان الزاهية والأشكال المتقابلة وسجلات متنوعة من الاخضرار، والآن وقد وصل منتصف أكتوبر، أفضل أوقات السنة لزراعة الشجيرات والبذور، فإن بومغارتنر يسعى لمواصلة الهجوم وانتزاع جذور كل ساق ذابل وكل شجيرة ميتة وإعادة زراعة الحديقة اللعينة قبل أن تتجمد الأرض ويحل الشتاء.

يعيد هذا إد بابادوبولوس إلى الحكاية بعد غياب عدة فصول، قارئ العداد ولاعب الكرة السابق الذي أبدى عطفًا على بومغارتنر حين سقط من الدرج، الرجل العطوف، برج العضلات

الطيب القلب الذي عاد إلى المنزل بعد انتهاء مدة العمل كما وعد أن يفعل مسلحًا بحقيبة كبيرة من الثلج لركبة بومغارتنر وإمدادات جديدة من المصابيح الكهربائية للقبو، وبقي في النهاية ليعد عشاء لبومغارتنر ثم ينظف المطبخ بعد ذلك. صار الاثنان صديقين أثناء العام ونصف العام منذ ذلك الحين، وفي تلك الأثناء حضر بومغارتنر عرس الرجل (إلى شقراء مرحة اسمها ميتزي تعمل وكيلة سفريات وذلك في الربيع الماضي)، ودعا العروسين إلى حفلات عشاء راقية بحق في أفضل مطاعم المنطقة من صينية ومكسيكية وإيطالية، كما دعم قرار إد بترك شركة المياه والعمل في شركة والده المختصة بعمل تصاميم الحدائق، مع أن بين إد ووالده علاقة مضطربة إلى حد ما، لكن كان من الواضح لبومغارتنر أن إد اللطيف والبالغ الحساسية وهب إحساسًا فطريًا تجاه كل الأحياء وأن تمضيته وقته يحفر الحدائق ويغذي النباتات والأزهار والأشجار سيكون له مردود في كسب عيشه وأن القناعة التي يجلبها ذلك العمل سيكون بالنسبة إليه تعويضًا يفوق خصومته أحيانًا مع والده العدواني وغريب الأطوار. أمضى في العمل حتى الآن نحو سنة، ومع حاجة بومغارتنر إلى مساعدته المهنية بدأ هو واثنان من مساعديه بالمجيء كل صباح لإعادة تنظيم الفناء الخلفي واستعادة الحديقة إلى بريقها القديم. هكذا صار العمل اليومي الآن: السيد فلوريس ورجاله يتحركون جيئة وذهابًا من الكراج طوال اليوم بينما يكدح إد ورجاله في الفناء، ولأن موقعي العمل متقارب بعضهما من بعض، فإن الفريقين يتداخلان غالبًا أثناء تحركهما حول مناطقهما المتشابكة، أحد

الفريقين يتألف من ثلاثة يتحدثون الإسبانية فيما بينهم والفريق الآخر وهم ثلاثة أيضًا يتحدثون الإنجليزية. ولا يستطيع أي من الفريقين التحدث مع الفريق الآخر، لكن هناك في النهاية إد بابادوبولوس، رامي كرة البيسبول سابقًا الذي حرص على تعلم الإسبانية لكي يتفاهم مع زملائه من أمريكا اللاتينية، كل أولئك الأولاد الحائرين من الدومينيكان والمكسيك وبنما وفنزويلا الذين نقلوا إلى «غرنغولاند» [1] دون أن يعرفوا كلمة إنجليزية واحدة، وبتلك الطريقة كان إد يتحدث إلى أنجل فلوريس ومعاونيه الاثنين بلغتهم الأصلية، وللمرة الأولى على مدى تلك الأعوام التي عرفه فيها، رأى بومغارتنر السيد فلوريس ذا الوجه العابس يبتسم بل وينفجر ضاحكًا. كان بومغارتنر يعرف ما يكفي من الإسبانية ليفهم أن عامل البناء والنجار -اللذين ولدا أو تربيا في جمهورية الدومينيكان- يتحدثان معظم الوقت عن البيسبول، وكم هو رائع، حسب بومغارتنر، أن إد الضخم والمرتبك في حركته، أحد أقل الرجال إثارة للإعجاب على وجه الأرض، يمتلك موهبة نشر الحياة حيث يكون.

في هذه الأثناء جمع بومغارتنر كل أوراق آنا وهو الآن يحفر فيها مرة أخرى للمرة الأولى منذ أعوام. بعد أن اختار ما يراه من القصائد التي ينبغي أن يتضمنها الليكسيكون، توقف عن التفكير في ما هو مرفوض منها، مقتنعًا أنها ليست بمستوى غيرها، والأرجح أنها لا تصلح للنشر. لكن ماذا لو كان مخطئًا، وماذا لو

(١) غرنغولاند Gringoland اسم عامي يطلقه أهل أمريكا اللاتينية على الولايات المتحدة الأمريكية وتعني أرض الأجانب.

كانت المعايير التي فرضها على نفسه قاسية أكثر مما ينبغي وأنها نتاج تفكير ضيق؟ لقد أراد لكتاب آنا أن يحدث ضجة، ولذا قيد نفسه بقصائدها التي عدها روائع، أفضل ثمان وثمانين قصيدة من بين المئتين وستة عشر التي عثر عليها، وقد أحدث الكتاب ضجة فعلًا ولا يزال يحدث ضجة بين عدد متنام من القراء الجدد، لكن ليس حتى أعظم الشعراء يملكون القدرة على كتابة الروائع فقط، وربما أنه أساء لآنا حين تبنى رؤية صارمة. الآن، وهو ينظر في المئة والثمانية والعشرين قصيدة ملغاة، ما يقارب المئتين والخمسين صفحة من الأعمال غير المعروفة والمختفية، يجد نفسه يقرؤها بعيني بياتركس كون، متخيلًا ردة فعلها تجاه تلك القصائد الأقل اكتمالًا ولكن المدهشة غالبًا وهو يمر بالتجربة البديلة في العيش من خلالها والشعور بالإثارة لاكتشاف ما ستراه بالتأكيد كنزًا هائلًا من الإشعاع الصاخب المضطرم. إنه غبي حقًا، يقول بومغارتنر لنفسه، وأي فكرة مجنونة جعلته يحجم عن نشر مجموعة ثانية لتكون جزءًا من **الليكسيكون**؟ إن سبعين أو ثمانين من هذه القصائد ينبغي أن ترسل إلى العالم حالًا، وربما كل مئة وثماني وعشرين منها، وفي وقت ما، لا أحد يعلم متى، لكن في وقت ما من السنوات القادمة، ينبغي جمع الكتابين وتعاد صياغتهما ليصيرا مجلدًا واحدًا كبيرًا -نصبًا من الصفحات التي تغني والتي ستداهم الصمت في قبر آنا.

لكن هناك المزيد، الكثير منه. ليس المقصود كتابات آنا السيرية وإنما ترجماتها لسبع وثمانين قصيدة فرنسية وإسبانية وبرتغالية لم تجد طريقها يومًا إلى الطباعة إلى جانب ثلاثة

جبال من الأقلام، وأقلام الرصاص، ومخطوطات من نسخ مختلفة، معظمها على ورق مقاسه ثمانية ونصف في أحد عشر فضلًا عن أوراق مفردة مزقت من دفاتر مسودات، وكتب فارغة الأوراق، ودفاتر ملاحظات مسطرة من مقاسات مختلفة، سواء الدفاتر الأمريكية والبريطانية المسطرة أفقيًا أو الدفاتر الرياعية الأسطر، «الكايير» الفرنسية و«الكوادرينوس» الإسبانية، إلى جانب قصائد أو أجزاء من قصائد دونت بسرعة على أغلفة، فواتير كهرباء، قوائم تسوق، فاتورة بنّاء سقوف، وملاحظة تنبض بشعور عميق من الامتنان من المحرر الذي نشر ترجمتها لقصيدة لوركا «شاعر في نيويورك». أيضًا: مخطوطات لاثنتي عشرة من مراجعات الكتب ونسخ من مجلات أسبوعية وشهرية نشرت فيها، وخمس قصص قصيرة لم تنشر، والمئتان والست والثلاثين صفحة من روايتي آنا اللتين تخلت عنهما - كل تلك مصادر لا غنى عنها لرسالة بياتركس كون (إن سُمح لها بكتابتها) لكن من غير المتوقع أن تكون جديرة بالنشر، بما أن الروايات تركت ناقصة والقصص القصيرة تصل إلى ثلاثين صفحة فقط. شعر أن الترجمات يمكن أن تتحول إلى كتاب، وكذلك الأربعة عشر نصًا سيريًا (171 صفحة)، لكن بومغارتنر يقرر ألا يقرر الآن، وبينما بعد، حين يفكر في الأمر مرة أخرى، فلن يتصرف أو يحجم عن التصرف إلا بعد استشارة الآخرين، لأنه يخشى أن تسيطر عليه رغباته ويتخذ قرارًا خاطئًا يتسبب في مزيد من الإساءة لآنا بدلًا من أن يكون مفيدًا لها.

أكثر من المضي قدمًا في القصائد، الأمر الوحيد الذي يشعر بالراحة إزاء محاولة نشره هو مراسلاته مع آنا من منتصف عام 1969 حتى منتصف 1971، العامان اللذان طالا بصورة غير معقولة حين كانا مفصولين على جانبي المحيط ومضطرين إلى البقاء على صلة بالمراسلة وإلا فلن يعرف أحدهما عن الآخر شيئًا إلى الأبد. كانا لا يزالان طفلين في ذلك الوقت -تسع عشرة وإحدى وعشرين- ولم يكن قد ثبت شيء بينهما، ربما ما عدا الأمل أن الشيء الصغير الذي بدآه معًا سينمو في النهاية إلى شيء كبير بل ربما عظيم، مع أن لا أحد منهما كان يجرؤ على التعبير عن ذلك الأمل حين بدأ افتراقهما. قبل ذلك، كان ذلك التخبط عند اللقاء الأول في محل «إرسالية الخير»[1] في سبتمبر، الذي كان يمكن أن ينهي القصة وكان الأرجح أن يفعل، لكن بعد ثمانية أشهر جاءتهما فرصة أخرى، لأنه على نقيض ما يقوله لنا أشهر العقلانيين على مدى سنوات، فإن الآلهة تكون في أسعد حالاتها، بل حين تكون آلهة حقًا، حين ترمي النرد أمام الكون، وفي عصر يوم من أواخر مايو، صادف أن بومغارتنر كان يجلس إلى طاولة بالقرب من تلك التي كانت آنا تجلس عليها في: محل المعجنات الهنغارية»، على شارع أمستردام، ليس لأنه تعرّف عليها (كان وجهها يحجبه كتاب كانت تقرؤه) ولكن لأنه كان المكان الوحيد الخالي المتيسر له. وصفت آنا ذلك اللقاء في واحدة أخرى من نصوصها السيرية، **الأيام الأولى**:

---

(1) Goodwill Mission منظمة خيرية أمريكية لرعاية المحتاجين والمعاقين تتلقى التبرعات من الناس وتبيع محلاتها ملابس مستعملة.

ما إن جلس على كرسيه، نظر الشاب إلي وقال:

«سبق أن تعرفت إليك في مكان ما، أليس كذلك؟»

«قد تكون التعرف مبالغة»، أجبته، «لكن سبق أن رأى أحدنا الآخر ذات مرة. منذ أشهر عديدة في محل لبيع المستعمل على بعد عشر بلوكات من هنا. كنت كما أذكر غارقًا في برميل من الأواني».

قال: «هو ذاك». «محل الأشياء العتيقة على تقاطع أمستردام مع ثمانية وتسعين! ابتسم أحدنا للآخر، أليس كذلك؟»

ما إن قال كلمة ابتسم انفرج وجهه عن ابتسامة ثانية، أكبر من تلك التي منحني في الخريف، وحين أجبته بابتسامة أكبر،

شعرت بأن شيئًا غريبًا قد حدث للتو. ليس الابتسامات، على الأقل ليس الابتسامات بحد ذاتها، وإنما الحقيقة الغريبة التي كان يجب أن يتذكرها كلانا، تلك اللحظة الصغيرة الخاطفة عبر كل تلك الأشهر التي مرت، والحقيقة الأغرب منها أنه نتيجة تذكرنا المشترك لتلك اللحظة كان على كلينا أن يعمل كما لو أنها خلقت صلة بيننا، بينما الحقيقة هي أن كلينا لم يكن يعرف شيئًا عن الآخر. ابتسامة صغيرة في الخريف، فرصة ثانية للقاء في الربيع، والآن ابتسامة كبيرة - تلك كانت حدود ما حدث لنا حتى ذلك الحين، ومع ذلك كنا كما لو أننا نعرف بعضنا منذ زمن، وربما أننا كنا كذلك، لأنه كان من الواضح أن كلًا منا مضى يفكر في الآخر بين الحين والآخر على مدى عدة أشهر بين ذلك الحين والآن، وإذا كان القدر قد ألقى بنا معًا للمرة الثانية، شعرت أننا كنا مصممين بصورة متساوية ألا نتخبط مرة أخرى ونترك اللحظة تمضي.

كان الوقت قصيرًا، لكن من يونيو إلى منتصف أغسطس كانا قد راكما كمية كافية من المواعدات، والعشاءات، والمشيات الطويلة، والأفلام، والحفلات الموسيقية، والمتاحف، وليالي هز العظم في السرير قبل أن ينتهي بومغارتنر إلى أن آنا كانت الفتاة التي تميزت عن كل الفتيات الأخريات اللاتي عرفهن وبدأ يتأسف على كونه مضطرًا إلى الرحيل لمدة سنة من الدروس في الفلسفة في الكوليج دي فرانس في باريس، بغض النظر عن أنه كان يتطلع إلى ذلك. لكن آنا لم تكن تشاركه أيًا من قناعاته، بل كانت مترددة حول مدى انجذابها نحوه، ذلك أن بومغارتنر كان على وشك مغادرة نيويورك منذ الدقيقة التي بدءًا فيها يتحدث بعضهما إلى بعض في محل المعجنات في تلك الظهيرة وسينساها تمامًا في اللحظة التي يضع فيها قدمه على الطائرة. على الرغم من ذلك كانت في منتصف الشعور بالحب تجاهه، لكن النصف الآخر لم يكن جاهزًا لحب كلّي زلزاليّ، بل هي أقل استعدادًا من ذلك لأنها ما زالت تعاني الاهتزازات التي تلت جسد فرانكي بويل المتفجر أبدًا وتابوته الذي ضم بقاياه فكان شبه خالٍ تقريبًا. بومغارتنر تعلق بها إلى درجة تجعله يحجم عن الضغط عليها لكي تعلن عما لم تكن مهيأة للإعلان عنه، وحين قال لها وداعًا في اليوم الأخير، أحجم عن إطلاق أي إعلانات كبيرة من جانبه. لم يكن مهيأ في تلك اللحظة أكثر مما كانت آنا لـ «الخطوة الكبيرة»، لكنه كان في السر أكثر ثقة منها تجاه المستقبل، لأنه أدرك أن حياته المقبلة لن تكون حياة إن لم يشركها فيها. غير أن آنا لم تمتلك

مثل ذلك اليقين، وفي ساعتهما الأخيرة معًا وصل بها الأمر إلى إهانته. قالت له: أنت قذر ومقرف يا سي. تشن الهجوم وقدمك موضوعة على الباب، والآن وقد استمتعت صار الأمر مع السلامة يا حبيبتي، سأراك في أحلامي.

قال بومغارتنر: فوق ذلك سأكتب لك أيضًا كل يوم. ومن الأفضل أن تردي عليّ بالكتابة - وإلا.

وإلا ماذا؟

سأطردك من أحلامي.

ستكتب وسأرد عليك. لكنك لن تكتب أبدًا، لذا لن أقلق حول الأمر، أليس كذلك؟

لا تكوني واثقة أيتها الآنسة الواثقة بذكائها. لو كنت مكانك، فسأبدأ القلق من الآن.

لم يكتب لها كل يوم، لكن حين جاء الوقت الذي أتت فيه آنا إلى باريس لزيارة قصيرة في يونيو 1970، كان كل واحد قد كتب للآخر أكثر من مئة رسالة، دون أن تكون أي منها رسالة حب بالمعنى التقليدي للكلمة، مع أنهما بين الحين والآخر أشارا إلى الساعات التي قضياها في السرير معًا في الصيف الفائت وكم يتطلع كل منهما إلى إشعال السرير مرة أخرى، وهو ما حدث فعلًا أثناء الأسبوعين المتكهربين اللذين التقيا فيهما في باريس، والتي بعدهما اتجهت آنا إلى مدريد للدخول في برنامج صيفي، وحين عادت إلى باريس في أغسطس لمدة عام في السوربون، كان بومغارتنر يحزم أمتعته ويتهيأ للعودة إلى نيويورك. سوء حظ، سوء توقيت، سوء أي شيء، لكن على أي حال مجموعة من الفرص

الغريبة الضائعة، ومع عودة آنا إلى مدريد لصيف ثانٍ عام 1971، مضت سنة أخرى كاملة وما بينهما محيط. ولم يكن هناك بديل سوى تبادل الرسائل، ما بين مئة وعشرين ومئة وأربعين رسالة من كل منهما على مدى اثني عشر شهرًا. بعض الرسائل طريفة (رواية بعض الأحداث الغريبة في حياتهم اليومية)، وبعضها الآخر ساخر، بل غاضب (صراخ سياسي ضد نيكسون وكيسنجر، والحرب المستمرة). لكن معظم الرسائل سجلات معقدة لعقلين شابين في مرحلة انتقال، تعليقات آنا الدقيقة، الصريحة، وغالبًا المقلقة، حول الشعراء الميتين والأحياء الذين كانت تقرؤهم وقد بدأت تشق طريقها نحو اللغة اليومية المجردة في أسلوبها المبكر، وبومغارتنر يشتبك مع قدراته على التعبير متوصلًا في النهاية إلى أولى العبارات الواضحة والقادرة على نقل أفكاره حول الوعي المتجسد وازدواجية الوجود التي ستستمر في ملاحقته على مدى نصف القرن التالي، وبينما كانت حميميتهما تزداد وثقة كل منهما بالآخر تنمو، كانت رسائل بأكملها تكرس لشكوكهما ومخاوفهما العميقة حيال نفسيهما، الشكوك والمخاوف التي لم يسبق لهما أن أشركا أحدًا آخر فيها. ومع ذلك، مع بدء اعتماد كل منهما على الآخر، ودون شك حب كل منهما للآخر، لم تكن هناك رسائل حب وإنما مراسلات بين رفيقين في الفكر والروح، خدينين توصلا إلى اتفاق حكيم في بداية تفرقهما أن يتجاهلا المطالب السخيفة المتمثلة في التزام كليهما بالعزوبية، ولذا فإن بومغارتنر لم يشعر بالذنب حين تجول بين عدة علاقات عرضية في باريس ونيويورك بينما كانت آنا في نيويورك وباريس وكان

يأمل أنها تفعل الشيء نفسه في المدن التي لم يكن فيها أثناء تباعدهما. الغريب أنه لم يسألها يومًا إنْ كانت قد فعلت ذلك أم لا، لأن بومغارتنر كان يؤمن بقوة بأن ما تفعله بجسدها كان شأنها الخاص ولذلك لم يكن يعنيه، وآنا، التي كانت تعلم أيضًا أن أموره الخاصة به لا تعنيها، لم تبال يومًا في طرح السؤال عليه.

إنه الثاني والعشرين من نوفمبر الآن، العيد السابع والأربعين من الحادثة التي كادت تودي بحياة آنا في شارع كليرمونت. انتهي فريقا العمل من مهامهما وذهبا. فلوريس وبابادوبولوس تم الدفع لهما بالكامل، وبينما كان بومغارتنر يتأمل في المقالة السيرية الطويلة التي يخطط لكتابتها حول آنا لتكون مقدمة لكتاب الرسائل ما بينهما، يدرك أنه إنما يفكر في مشروعه القادم لكي يتفادى جرجرة نفسه عائدًا إلى **أسرار العجلة**، الذي عليه أن يبدأ بقراءته الآن لكي يقرر إنْ كان لا يزال بحاجة إلى مزيد من العمل، لأنه إن كان كذلك، فعليه أن يزيل ما تبقى من آثار تلميع عن المراجعات قبل أن تأتي بياتركس كون في الخامس من يناير. ليس لأن هناك حدًا زمنيًا أو لأنه لا يستطيع الاستمرار في معالجة المخطوطة لعام آخر لو أراد ذلك وإنما لأنه قد صمم على **تنظيف المكان** قبل أن تهبط في برنستون ويضع نفسه بالكامل تحت تصرفها طوال مدة زيارتها، التي ستكون كلها حول آنا وأعمالها ولا شيء غير آنا وأعمالها، ولكي يستمتع بومغارتنر بالتجربة بأعلى قدر يريد، عليه الا يتدبّس في عمله هو في الوقت نفسه.

لحسن الحظ، لم يكن الكتاب ذلك الخليط التام الذي خشي أن يكون. كان في واقع الأمر نصف سيئ بل من الممكن أن يعده

بعض الكرماء جيدًا، لكنك إذا بدأت بتحويل عمل على شفير التفاهة، وكانت كل جملة في العمل تتضح بالسخريات التي تتقلب على ذاتها لأنها تحمل دلالة مضاعفة، فإن من الأفضل لك الا تزِلّ وتفقد تماسكك في أي لحظة في النص، لأن حركة خاطئة واحدة تكفي لتخريب النوايا الجادة المدمرة والمخبوءة في النكت فترسل العمل يترنح نحو هاوية من الرطانة. حسب تقدير بومغارتنر فإنه لم يخطئ في أكثر من ثلاثة أو أربعة مواضع، كل منها قابلة للإصلاح فقط بشطب الفقرة وإزالتها من الكتاب، ولذا فإن بومغارتنر مرتاح إلى حد ما، وإلى حد ما ليس شديد الاشمئزاز من نفسه، مع أن الكتاب صار من الجنون بحيث لم يعد قادرًا على معرفة كيف كتبه.

يستطيع بصعوبة أن يتذكر «مقدمة للفلسفة»، ذلك الكورس الذي سجل فيه حين كان طالبًا في أول فصل من دراسته في كلية أوبرلين والذي قرأ فيه شيئًا كتبه أرسطو أو كتب عنه تضمن مقارنة للجسد بسفينة والروح بوصفها ربان تلك السفينة، الأمر الذي أمتع بومغارتنر كثيرًا حينها، لأنه وجد من المستحيل ألا يرى أن الربان - الروح الأثيري هو الربان ذو الجسد واقفًا خلف دفة سفينته البشرية ليقودها عبر المياه الخطرة في بحر الصين، الأمر الذي كان بلا معنى، بطبيعة الحال، وذلك لأن شيئًا بلا جسد (الروح) لا يمكن أن يمنح مادة ملموسة (الجسد) ويمكن مع ذلك أن يسمى روحًا. ومع ذلك، إذا كانت النفس الأرسطية مزيجًا من المادة واللامادة، أي جسد مرئي تحييه روح لا مرئية، كم سيكون طريفًا لو تمدد المجاز ووضع الربان -الروح والسفينة- الجسد

خلف مقود وسيلة نقل حديثة بآلة متحركة، سيارة من القرن العشرين مثلًا، لتكون الحال عندئذٍ أن الريان -الروح وراء مقود السفينة- الجسد سيظل يعمل بوصفه روحًا خالصة بلا جسد تقود سيارة مادية خالصة في طريقها عبر الفضاء، لكن لأن البشر ليسوا أرواحًا خالصة أو أجسادًا خالصة وإنما مزيج من الاثنين، فإن سائق السيارة سيكون بالضرورة روحًا حُمّلت جسدًا، أو روحًا بلا جسد، وهي حقيقة لن يقبلها المؤمنون بالازدواجية ممن لا يعلنون عن أنفسهم، حتى لو كررت تلك الحقيقة ملايين المرات في اليوم على ملايين الطرق في كل أنحاء العالم. كان بومغارتنر قد بلغ السابعة عشرة للتو، وكان يستمتع باصطناع مثل ذلك الهراء، لأن هدفه الرئيس في الحياة، حين كان مبتدئًا في دراسته ويدعي العلم، كان أن يسائل كل شيء قرأه ويهزأ منه بكل الطرق التي يستطيعها، لكن أباه مات بعد ثلاثة أشهر، وحين عاد بومغارتنر إلى نيوارك توقف عن رمي السهام على أرسطو ومضى إلى أشياء أخرى.

ولكنه مع ذلك حمل معه تلك الصور الغريبة في رأسه لسنوات، ملايين على ملايين الأجساد -الأرواح التي تقود سياراتها على دروب وطرق سريعة هائلة متداخلة، كل شخص خلف المقود كائن وحيد بحجم الإنسان محاصر ضمن درع معدني لسيارة بحجم حشرة، كل رجل وامرأة من الحشد الهائل وحده وسط زحام مروري متدفق وغالبًا خطر، والجسد الواقف خلف المقود، وهو أيضًا عقل، أو روح، أو ذكاء، مسؤول عن اتخاذ مئات القرارات الصغيرة والكبيرة لقيادة السيارة بأمان نحو هدفها. تجنب

الالتفافات الخاطئة، ابتعد عن الحفر والأشياء الساقطة التي تملأ الطريق، ولا تقبل تحت أي ظروف بأي مغامرة مزاجية قد تقودك إلى الاصطدام بسيارة أخرى. قد تكون الحوادث مميتة في نهاية المطاف، وما إن تموت فإنك تظل ميتًا بقية الزمان.

تلك كانت الكيفية التي ولد بها الكتاب، كما يعتقد بومغارتنر: من رؤية مدمرة للحياة البشرية بوصفها سيارات متاحة للجميع وتنطلق بلا سيطرة على طرق سريعة من الوحدة والموت الكامن، لكن أفكاره لم تبدأ في التبلور لتتحول إلى أسرار العجلة حتى بدأ يفكر بكلمة «أوتومبيل». أوتومبيل: تركيب هجين من الكلمة اليونانية (أوتوس)، واللاتينية (موبيليس)، وفرنسية القرن التاسع عشر (موبيل) التي تعني تحرك ذاتي وهي المفردة الرسمية لما يطلق عليه بصفة عامة سيارة. في الوقت نفسه، من الممكن التفكير في البشر بوصفهم مخلوقات تتحرك ذاتيًا، ويأخذ تلك الأفكار غير المترابطة وإدماجها في مفهوم غرائبي ولا معقول بصورة لامبالية، وجد بومغارتنر الآلة المجازية التي ستقود كتابه إلى الأمام. السيارة من حيث هي شخص، الشخص من حيث هو سيارة، كل منهما قابل للتبديل بالآخر عبر خطاب شبه فلسفي متعرج متلبسًا بروح سويفت وكيركيغارد[1]، وغيرهما من المخادعين الذين قلبوا العالم رأسًا على عقب لكي يجعلوا قراءهم يقفون مقلوبين ويحاولون إعادة تصور عالم يكون وضعه صحيحًا. مضحك هو بومغارتنر. والمحزن أن هذه ليست أسعد

(1) جوناثان سويفت؛ الكاتب الأنغلو-أيرلندي ((1745-1667 اشتهر بكتب مثل "رحلات جلفر"؛ وسورين كيركيغارد، الفيلسوف الدانماركي الذي سبق التعريف به.

الأوقات للهجاء، وعلينا أن ننتظر من سيلتقط النكتة.

ينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام، طول كل قسم ما بين ستين وسبعين صفحة: مقدمة للميكانيكا الذاتية، الانهيار في موتور سيتي، سباق التدمير، وأسطورة السيارة التي تقود ذاتها. كل قسم يدور في الوقت ذاته حول الفرد والحياة البشرية كله ودور السيارات في تلك الحياة، وفي حين يبدأ كل فصل بمقالة جافة شبه جادة حول الموضوع المطروح، ما يتلو ذلك بعد المقدمة هي حكايات، خمس عشرة أو عشرون حكاية قصيرة تتراوح ما بين القصص المتخيلة والتقارير حول أحداث حقيقية، والقصص الخرافية، والقصص الرمزية، والأحاجي الفلسفية. تشير «مقدمة للميكانيكا الذاتية»، مثلًا، إلى الذات البشرية (ذاتية) وتعلم كيفية القيادة احترام قواعد الطريق، بينما ينجح بومغارتنر بطريقة ما في إدماج الصراع من أجل تحول الإنسان إلى شخص عاقل أخلاقيًا ومحاولة التحول إلى سائق جيد. «الانهيار في مدينة السيارات» يشير إلى الجسد البشري في حالات متنوعة من التأزم (مرض، تكسر العظام، الجوائح) بالإضافة إلى الصعوبات الميكانيكية التي تمر بها كل السيارات في وقت ما (البنشر، البواجي التي لا تعمل، الكاربوريتورات المتعطلة). «سباق التدمير» يتتبع ما يحدث للمجتمع حين يتوقف السائقون عن اتباع قواعد الطريق ويؤكدون **حقهم الدستوري الذي منحه لهم الإله** في الحرية وذلك بتجاوز إشارات التوقف والضوء الأحمر ودهس أي من المشاة يكون في طريقهم. ليس هناك أي ذكر لـ «لنجعل

أمريكا عظيمة مرة أخرى»[1] أو الخطر الكامن في البيت الأبيض، لكن نوايا بومغارتنر واضحة بما يكفي ولا حاجة إلى مزيد من التعليق. وتتبع ذلك أمثلة أخرى من أماكن متخيلة تشبه بلفاست وساراييفو وروانـدا ولكنها لا تحمل أسماء تلك الأماكن. الفصل الأخير «أسطورة السيارة التي تقود ذاتها» يناقش مستقبلًا يتخلى فيه عدد كبير من السكان طوعًا عن استقلالهم الذاتي بوصفهم أفرادًا متحرري التفكير ويضعون ثقتهم في قوة أعلى (الأرقام)، قوة فيثاغورثية بلا جسد تستحيل بالضرورة على الفهم الإنساني وتكون مفهومة فقط للآلات التي تقودها الأرقام التي سيطرت تدريجيًا على صناعة السيارات. ينهي بومغارتنر كتابه بقصة حول حادث اصطدام في تكساس حين تتصادم أربع سيارات تسير آليًا وفيها أصحابها النائمون عند تقاطع، بينما تسير هي منطلقة بسرعة تصل إلى ستة وثمانين ميلًا بالساعة فتنفجر متحولة إلى لهب فيؤدي ذلك إلى مقتل الرجال الأربعة الذين نسوا جميعًا برمجة سياراتهم قبل الانطلاق إلى مواعيدهم مع الموت. في الجملة الأخيرة، يلاحظ بومغارتنر أن تقرير البوليس الذي سينشر عما قريب سيحدد سبب الكارثة بأنه **خطأ بشري**.

يرسل المخطوطة إلى مادي لفتون في الخامس والعشرين من نوفمبر، الاثنين الذي يسبق عيد الشكر. مع وصفه لكتابه بأنه **تفاهة على التوست**، يحذرها بأن المتوقع أن يرفضه موريس هيلر وابنه مايلز بوصفه غير قابل للنشر، لكن العجيب هو أنهما لم

(1) يشير إلى شعار الحملة الانتخابية للرئيس الأمريكي السابق دونالد ترمب ويرمز له بالأحرف MAGA: Make America Great Again.

يرفضاه، وفي منتصف ديسمبر يصفو الجو ويمكن لبومغارتنر أخيرًا أن يركز تفكيره بالكامل على بيب كون.

بعد أن كانت غريبة تمامًا بالنسبة إليه منذ شهرين فقط، صارت الآن الشخص الأكثر أهمية في حياته. لم يلتقيا بعد ورأى أحدهما الآخر فقط في الصور وعلى الشاشات الرقمية، لكن الحقيقة أن بومغارتنر يحب بياتركس كون كما يحب ابنته التي كان يود لو أنجبها هو وآنا معًا لو كان ذلك ممكنًا. لم يخطئ توم نوزويتسكي. كانت بيب تشبه آنا بطرق عديدة وصغيرة ولكنها غير قابلة للمحو. ليس ملمحًا بملمح، ربما، لكن في الروح، في الجسم بصورة كلية، في الحيوية التي تشع في حضرة الآخرين. بيب هي تلك التي اعتنقت أعمال آنا بشمولية تفوق أي شخص آخر. ولذلك السبب وحده، تستحق مرتبة الشرف في «قاعة بومغارتنر للمحبوبين»، ولكن بعد أن راسلها يوميًا تقريبًا منذ منتصف أكتوبر، وتحدث إليها على الهاتف وراسلها على زوم، فقد شاهد عقلها يعمل وأدرك أيضًا كم هي ألمعية، ومع ذلك، بل أكثر من ذلك، فإنه يحبها بوضوح ولا يستطيع انتظار مقدمها في الخامس من يناير، بعد واحد وعشرين يومًا من الآن. ثلاثة أسابيع لا نهاية لها، ثلاثة أسابيع قصيرة، لم يعد يدري، لكن لن يمر وقت طويل حتى تنتهي الأسابيع، وبومغارتنر يكاد يفقد توازنه من التوقع، مثل ولد صغير لا يهدأ إذ يعد الأيام التي تنتهي فيها الدراسة ويأتي الصيف.

لكن هناك مشكلة. تخطط بيب لقيادة سيارتها من آن آربر

إلى برنستون وبومغارتنر بالغ القلق لسبعة وخمسين سببًا مختلفًا. من الممكن لميتشيغان وأهايو وبنسلفانيا أن تكون أماكن مزعجة أوائل يناير، وقطع مسافة تبلغ ستمئة وخمسة عشر ميلًا تتطلب نحو تسع ساعات ونصف، هناك احتمال قوي أن تلقي «بحيرة إيري» إحدى عواصفها الثلجية أو عواصف الجليد أو عواصفها الممطرة التي تسبب التجمد على سيارتها التويوتا كامري الصغيرة ذات العشر سنوات وتحول تلك الستمئة ميل منطقة خطر طويلة. ثم هناك تصميمها على الذهاب وحدها، دون صديق أو رفيق ليعاونها في القيادة أو يساعدها في حالة الطوارئ. يقترح بومغارتنر عليها أن تعيد النظر في خطتها وتسافر بالقطار بدلًا من ذلك، لكن بيب تجادل بأنها ستحتاج إلى سيارتها عندما تصل إلى نيوجيرسي. يقول بومغارتنر إن ذلك غير صحيح لأنه سيسعده أن يعيرها سيارته كلما طلبتها، لكن بيب ترد بالقول إنها لا تريد أن تزعجه بتلك الطريقة، ليرد بومغارتنر: كلام فارغ! إن كنت لا تريدين استعارة سيارتي سأستجر لك سيارة طوال الزيارة. ما رأيك؟ تقول: لا يمكن. لقد سبق أن أنفق كثيرًا من المال عليها ولا يمكنها أن تقبل منه أكثر من ذلك. يرد بومغارتنر بسرعة: انسي المال. أستطيع تحمله! وبعد اثنتي عشرة ثانية، جاء الجواب: لا أستطيع نسيان ذلك!

إنهما متورطان في ما اعتاد والده أن يسميه **مواجهة مكسيكية**. بياتركس كون اللطيفة يتبين أنها شخص لا يمكن توجيهه، والويل لمن يجرؤ على التشكيك في سلطتها على نفسها أو يفترض إمكانية كبح إرادتها. كان يجد نفسه من وقت لآخر، عبر

السنوات، في ذات النوع من الخلافات مع آنا، التي قد تواجهه بشكاوى مزعجة لم ينتبه لها وتمضي في الهجوم متصادمة معه بغضب إلى أن يستسلم في النهاية ويتنازل. لم يكن يهم إن كانت مصيبة أو مخطئة، لأنها دائمًا على حق حتى حين تكون مخطئة، وتعلّم بومغارتنر سريعًا أن التنازل كان الدفاع الوحيد، فبمجرد استسلامه ينتهي الخلاف ويتلاشى، يزول من الذاكرة خلال ثوانٍ. هل ذلك هو المسار الذي عليه اتباعه مع بيب كون - فقط استسلم ودعها تفعل ما تريد؟ نعم قد يكون الطقس سيئًا في الرابع والخامس من يناير، حين تكون ظروف السياقة مزرية طوال الطريق، لكن هناك احتمالًا مساويًا بأن تمضي في طريقها تحت سماء صافية منذ لحظة انطلاقها حتى لحظة وقوفها أمام بيته في المساء التالي. يستحيل معرفة ما سيحدث، لكنه في المقام الأول لا يريد أن يلح عليها ويغامر بإفساد الزيارة، الأمر الذي سيحزنه كثيرًا. يدرك بومغارتنر، بما أن لا شيء يعني له الآن أكثر من الأيام والأسابيع والأشهر التي سيمضيان معًا في البيت، حيث يسكن لسنوات تفوق سنوات عمرها. لهذا يتراجع بومغارتنر قبيل الكريسمس ويخبرها بأن تفعل ما تريد ويتمنى لها التوفيق في رحلتها. ولأن الآنسة كون تدرك بذكائها أن بومغارتنر قد اتخذها ابنة متخيلة وأنه ينظر إليها بوصفها المجيء الثاني لزوجته المتوفاة، فإنها تكاد تعتذر في ردها على تغيير موقفه، ولكن كم هي الحال مع الشابة القادمة من ميتشيغان الآن شبيهة لما كانت عليه مع آنا في الزمن الماضي. لقد مُسحت الذاكرة

من الشوائب وها هي الصداقة تعود كما كانت.

ومع ذلك فإن بومغارتنر يعود لقلقه بصمت. وليس الأمر مرتبطًا بالطقس وحده فحسب، ذلك أن حوادث السيارات يمكن أن تحدث على الطرق الجافة مثلما تحدث على الطرق المبللة أو الطرق المغطاة بالجليد، وبعبور أكثر من ستمئة ميل من الطرق فإن واحدًا من عشرة آلاف شيء يمكن أن يحدث لها في أي لحظة على الطريق. الكريسمس يأتي ويذهب، وبمجيء السابع والعشرين أو الثامن والعشرين، كان بومغارتنر قد مضى في قلقه إلى درجة أنه الآن معرض للسقوط في حالة ذعر. إنه قريب من اليقين بأن **أسرار العجلة** مسؤول ولو جزئيًّا عن الاضطراب المتزايد داخله، لكن كيف له أن يتوقع غير ذلك بعد غرقه المهووس لعامين في كل ما يتعلق بالسيارات، السيارات بذاتها ولكن أيضًا السيارات بوصفها تمثل الذات الإنسانية بالإضافة إلى السيارات وهي تسافر على شبكة هائلة من الطرق السريعة بين الولايات والملايين منها يقوده الملايين من الناس الفرادى منطلقين عبر الليل - المجتمع الأمريكي بإيجاز شديد، «أرض الأحرار» يجري عبورها بعنف طوال خطوط بيضاء تحف إسفلتًا غامقًا مع التزايد الذي لا يهدأ للناس المجانين والغاضبين الذين يتخلون عن قواعد الطريق ليشاركوا في دورات مستمرة من «سباق التدمير»، رياضة «دمرها» التي تحتل الأولوية في «العصر الجديد». ذلك كان المجاز الرئيس في كتاب بومغارتنر، لكن الآن وبيب كون على وشك قطع خمس القارة الأمريكية في سيارة حقيقية على سلسلة من الطرق الحقيقية ما بين ميتشيغان ونيو

جيرسي، فإن الرجل العجوز الذي ينتظر وصولها في الخامس من يناير قد تلقى من مخيلته لكمة جبان واحدة ويجد نفسه عاجزًا عن عدم مضاعفة بل وتشويه جدية المخاطر التي تكمن أمامها. ليس لأنه مخطئ بالضرورة بتصور أسوأ الاحتمالات، ولكن الحوادث المميتة هي من الناحية الإحصائية نادرة حين يتأمل المرء الرقم الكلي للأميال التي تساق فيها ملايين عديدة من السيارات على الطريق، ولو كان بومغارتنر يفكر بوضوح أكبر، فسيدرك أن ذعره قد تحول الاحتمال النادر لموت بيب على الطريق السريع 80 في وسط بنسلفانيا إلى أمر مؤكد. لكنه لا يفكر بوضوح، ولذا فإن ساعات صحوه تمضي في حيز ضيق من الرعب الدائم.

ربما يكون الكتاب أولًا، لكنه ليس الأغلب، بما أن بومغارتنر يدرك أن موت آنا له صلة بهذا أيضًا، ذلك اليوم الأخير على شاطئ «كيب كود» حين مضت بعيدًا إلى الماء قبل أن يجد الفرصة لإيقافها. كانت آنا على قدميها حين أعلنت أنها ستذهب لاستحمام أخير، وكان بومغارتنر متمددًا على منشفة يقرأ كتابًا، ولكنها ضحكت عليه على الرغم من إخبارها بأن الوقت قد تأخر وأن عليهما العودة إلى البيت، وكانت قد بدأت تجري حين تمكن من الوقوف، بعيدة عنه بما يكفي لأن يعجز بكل الطرق الممكنة على الأرض عن اللحاق بها. لم يكن هناك وقت كافٍ. لكن مع بيب هناك ما يكفي من الوقت، أكثر من شهر لإقناعها بترك سيارتها في ميتشيغان وركوب القطار بدلًا من ذلك، ومع ذلك فإن كل محاولاته انتهت إلى لا شيء، والآن لم تعد هناك فرصة،

وإن حدث لها شيء على الطريق بين هناك وهنا، فهو يشعر بأن تلك ستكون نهايته. حتى هذه اللحظة من حياته لم تخطر بباله فكرة كتلك، لكن ما لم تصل بيب كون إلى بيته سالمة وخالية من الأذى، فإنه يشعر في قرارة نفسه أنه سيموت.

تحدثا طويلًا على الهاتف في الثالث من يناير. يفعل بومغارتنر كل ما يستطيع للسيطرة على مخاوفه، ذلك أن بيب في حالة معنوية عالية في ذلك العصر، مجهزة وجاهزة للانطلاق صباحًا، وآخر ما يريد بومغارتنر أن يفعله هو إفساد سعادتها بتنبؤاته السوداوية. إنه يحدثها بدلًا من ذلك عن التنبؤات الواعدة للطقس غدًا (أواسط الثلاثينيات، غائم جزئيًا، احتمالات المطر عشرة بالمئة) ويسألها متى تعتقد أنها ستصل إلى بتسبرغ، وهي منتصف رحلتها على الطريق، حيث تخطط لقضاء الليل عند أصدقاء والديها، وهما زوجان عالمان من الباحثين في جامعة كارنيغي ميلون. من الصعب التنبؤ بذلك بالتأكيد، تقول بيب، لأنها ستخرج للعشاء الليلة مع مجموعة أصدقاء في آن آربر، ويعتمد الأمر كله على مدة اللقاء ومتى ستأوي إلى الفراش، الأمر الذي سيحدد هل ستصحو متأخرة أو مبكرة في الصباح وبالتالي هل ستكون في سيارتها متأخرة أم مبكرة لتنطلق إلى بتسبرغ. يدخلان في واحدة من أكثر المحادثات العادية التي يمكن تخيلها، لكن بومغارتنر كلما سمع بيب تتحدث، فإنه يشعر بقلق أقل حول رحلتها غدًا وفي اليوم التالي، ويعود ذلك دون شك إلى أنه حتى الكلمات الأكثر عادية التي تأتي من فمها ممزوجة بخاصية ساحرة ومتعالية تجعلها تبدو بأهمية سونيتة

لشكسبير أو مقدمة لـ «إعلان حقوق الإنسان». كانت تلك الخصلة لدى آنا أيضًا، ليس فقط في صوتها ولكن حتى في قدرتها على تحويل أكثر حركات الجسد عادية إلى أفعال سامية من التعبير الذاتي والجمال، أناقة التعبير في أصابعها وهي تقلب صفحات الكتاب، مثلًا، أو الاستدارات الرفيعة لرسغيها وهي تطوي منديلًا أو منشفة - أكثر الإيماءات البشرية بساطة وعادية تشع مثل معجزات في تشكل الذات الإنسانية إذ تتقد. آنا بلوم وبياتركس كون، مثل ختامي كتابين في حياته، يقول بومغارتنر لنفسه، وبقدر ما يتمنى لبيب رحلة سلسلة وخالية من المتاعب غدًا، فإنه يحجم عن قول الشيء الواحد الذي يتمنى من كل قلبه لو قاله بعد ذلك: **سوقي بعناية، أتوسل إليك**. يبذل جهدًا خارقًا لكي يتفادى قول تلك الكلمات، لكن مع ذلك فإن بيب تبدو كما لو أنها تسمعها على أي حال، فها هي ذي تبدأ بالضحك بمجرد تفاديه قولها لتقول له: لا تقلق يا سي، أعدك بأن أسوق سيارتي بانتباه.

إنها الواحدة والنصف من ليلة الثالث من يناير، 2020. وضع بومغارتنر سماعة الهاتف للتو، والسؤال الذي يحتاج إلى إجابة الآن هو ماذا سيفعل بنفسه بقية اليوم، ناهيك بالغد واليوم التالي أيضًا. إنه لا يتوقع أن يسمع منها مرة أخرى حتى تصل إلى منزل أصدقاء والديها في بتسبرغ - على افتراض أنه لن يحدث لها شيء في المرحلة الأولى من الرحلة - لكن إن مضى كل شيء على ما يرام، ستكون هناك ست وعشرون إلى ثمان وعشرين ساعة من الآن قبل أن تصل إلى هناك، ومن يدري إن كانت ستتذكر الاتصال به حين تصل؟ لم يضع بومغارتنر خططًا، ويشعر بأنه

متوتر بصورة لا تسمح له بتصفح أوراق آنا مرة أخرى أو العمل على أي شيء آخر. قد يفيده المشي إلى حدٍّ ما، كما يظن، لكن الجو بارد إلى حد التجمد اليوم، وإن أراد أن يخرج والتحرك قليلًا، فإن الحل المريح الوحيد هو أن يفعل ذلك بالسيارة. وليكن، يقول لنفسه، سيقود سيارته إلى محل بيع المشروبات الكحولية ويخزن مزيدًا من الخمور ويشتري صندوقًا آخر من النبيذ، وإن لم يستطع التفكير في شيء آخر بعد ذلك، فسيتصل ويرى إن كان من الممكن دعوة أحد من أصدقائه الليلة إلى عشاء طارئ في مطعم.

هكذا يتكوم بومغارتنر في أكثر ملابسه الشتوية دفئًا وأكثر معاطفه الشتوية دفئًا، يذهب إلى الكراج ويركب سيارته السوبارو كروسترك ذات الأعوام الأربعة، وهو موديل هجين تسير حينًا بالبنزين وحينًا بالطاقة الكهربائية المتولدة من بطارية. حين يشغل بومغارتنر المحرك ويقود السيارة بعيدًا عن المنزل يتبين له أنه ليس بحاجة إلى الذهاب إلى المدينة أو الإضافة إلى مخزونه من النبيذ والمشروبات الروحية أو لقاء غير مرغوب فيه لشخص يعرفه لكنه لا يهمه فيرغمه ذلك على دقيقتين أو ثلاث لا تنتهي من تبادل التحيات الفارغة، لذا بدلًا من التوجه نحو العالم المألوف في منطقة التسوق، يلتف بومغارتنر إلى الاتجاه المعاكس، ثم لا يلبث حتى يتجه جنوبًا، بعيدًا عن الطرق التجارية المكدسة والأنوار التي تؤشر، نحو الريف المفتوح، مكان خالٍ إلا من منازل قليلة وطرق تتضاءل باستمرار. يعتقد أنه يقترب من منطقة اسمها «باين بارنز» لكنه ليس متأكدًا تمامًا، نظرًا

للسنين العديدة التي مرت منذ انطلق هو وآنا بعد ظهر يوم أحد لاستكشاف هذه المنطقة الخالية بصورة غامضة ولم يعد يتذكر التفاصيل، ما عدا أنهما توقفا في مكان ما ليتناولا غداء نزهتهما وأنهما ما إن فرشا سفرتهما على الأرض الرملية ونظر إلى وجه آنا الجميل المشع، تدفق عليه شعور بالسعادة كان من القوة بحيث أن الدموع بدأت تتجمع في عينية وقال لنفسه: تذكر هذه اللحظة، أيها الرجل الصغير، تذكرها بقية حياتك، فلن يحدث لك أبدًا شيء أهم مما يحدث هذه اللحظة.

يتذكر تذكره للشعور وحمله إياه معه لعدة أعوام بعد ذلك، لكن تفاصيل المكان حيث شعر بتلك الأشياء تبخرت في الغالب من ذهنه، وذلك إلى درجة أنه ليس متأكدًا أنه عاد إلى تلك البقعة أو إن كان في مكان آخر. كم مضى عليه منذ ركب سيارته وترك البيت؟ أربعون أو خمس وأربعون دقيقة، كما يظن، ليس أكثر من ذلك، لكن كان النور قد بدأ يتغير بما أن هذه هي الأسابيع التي تتلو مباشرة الانقلاب الشتوي والنهار لا يزال قصيرًا، دائمًا قصيرًا، وبينما يستدير مباشرة باتجاه شريط ضيق من الطريق يشق حشدًا من أشجار الصنوبر، يلمح بزاوية عينه اليسرى شيئًا ما، وها هو ذا هناك، إنه غزال يقفز من الأحراش على الجانب الأيسر من الطريق، وهكذا دون أي تردد ينحرف بومغارتنر إلى اليسار ويتفادى الاصطدام بالغزال، الذي كان قد عبر الطريق واختفى في الأحراش على الجانب الآخر. يوقف بومغارتنر السيارة للحظة متريثًا بعد ذلك الاقتراب الشديد متعجبًا من سرعة ردة فعله وهو في الثانية والسبعين لكن مفاجأة الحدث

هزته من الأعماق مع ذلك، الحدث الذي استغرق من ثلاث إلى أربع ثوانٍ من البداية حتى النهاية. في النهاية يشغّل السيارة مرة أخرى ويواصل السير، مارًا في إحدى النقاط بمنزل وبعده بمئات قليلة من الياردات منزل آخر، ولكن بقدر ما يحس بأن الوقت قد حان لبدء العودة إلى البيت فإن عليه أن يجد تقاطع طرق يسمح له بالالتفاف إلى اليسار أو اليمين ويبدأ بالاتجاه شمالًا. لذا يواصل السير باحثًا عن فتحة صغيرة بين الأشجار على جانب الطريق لكي يستدير ويعود عبر الطريق نفسه الذي قطعه من الاتجاه المقابل، لكن قبل أن يتبين أي فتحة بين الصنوبر، يأتي غزال آخر من الأحراش، هذه المرة من الجانب الأيمن للطريق، ولو التف بومغارتنر إلى اليسار فسوف يصدم الغزال لذا ينحرف إلى اليمين، يتفادى الغزال، يزحف على حافة الطريق ويصطدم بشجرة. كان يسير ببطء، ليس أكثر من ثمانية وعشرين أو ثلاثين ميلًا في الساعة، لكن التأثير مع ذلك مفاجئ وعنيف، ومع أن بومغارتنر يربط حزام المقعد فإنه ينقذف إلى الأمام وتضرب جبهته بالمقود بقوة تكفي لشق الجلد ونزول خيط من الدم نحو عينه اليمنى. لسبب ما لم ينفتح كيس الهواء. خلل ربما، أو أن اصطدام السيارة بالشجرة لم يكن قويًا بما يكفي لتشغيل الآلية.

بومغارتنر في وعيه ولا يحس بألم. ومع ذلك فإنه يشعر بالذهول لما حدث، وبينما هو يمسح الدم بمنديله، يتعجب من أن جرحًا أنتج كل هذا الدم لا يسبب سوى قليل من الألم - في الواقع، لا ألم مطلقًا. على مدى الدقائق التالية القليلة، يظل في مقعد السائق دون حراك، يفكر في ما عليه أن يفعل. يقرر

تفحص السيارة أولاً، وإن لم يكن هناك تلف كبير ولا تزال السوبارو تعمل فسيركبها ويستدير ثم يعود إلى برنستون. يخرج في البرد، في الهواء البارد ويكتشف أن الإطار المعدني في مقدمة السيارة مطعوج بقوة. ليس ذلك سببًا لإحداث صعوبات ميكانيكية، كما يرى، ولكن حين يعود إلى السيارة ويدير المفتاح لا شيء يحدث. البطارية صامتة، المحرك صامت، انهيار حقيقي وربما دائم في قلب مدينة السيارة، ولأن بومغارتنر لا يعرف شيئًا عن الميكانيكا ولن يتمكن من إصلاح المشكلة بنفسه، يتوصل إلى أنه ليس أمامه سوى رفع ياقة معطفه وإدخال يديه في جيوبه والبدء بالمشي عبر الضوء الشتائي المعتم نحو البيوت التي مر بها من قبل. وهكذا، بينما تضرب الريح وجهه والدم ينزف من جرحه، سار بطلنا باحثًا عن المساعدة، وحين يأتي إلى البيت الأول ويطرق الباب، يبدأ الفصل الأخير من ملحمة س. ت. بومغارتنر.

P A U L   A U S T E R

BAUMGARTNER

في هذه الرواية للكاتب الأمريكي بول أوستر سيجد القارئ الكثير عن الحياة في المجتمع الأمريكي الذي ينتمي إليه أوستر نفسه، لكنه فوق ذلك سيجد رؤية متفحصة من زاوية سردية تتعمق في أدق تفاصيل حياة الفرد في ذلك المجتمع: الطموحات والمعاناة، الخيبات والنجاحات. سيجد قضايا كبرى مثل الشيخوخة والموت، العزلة والسعي لكسرها بعلاقات مختلفة، فضلًا عن قضايا ذات طابع فلسفي وأدبي صرف. فبومغارتنر -الأمريكي ذو الأصل اليهودي الذي تتمحور حوله الرواية- يواجه قضية مركزية هي فقده زوجته آنا وسعيه لملء حياته بما تركته من فراغ. كونه أستاذًا جامعيًا ومؤلفًا مرموقًا في مجال الفلسفة يؤهله لما يثري حياته بالطمأنينة والمعنى. نقرأ كثيرًا من ذلك بالاستعادة أو بالفلاش باك، ولكن الكثير أيضًا سرد حاضر يتعمّد فيه الكاتب استخدام المضارع لنقل صورة حية للأحداث في تتابعها.

المترجم: سعد البازعي أستاذ آداب اللغة الإنجليزية والأدب المقارن بجامعة الملك سعود، له عديد من الترجمات والمؤلفات السابقة.

9 789921 768923

kalemat
www.kalemat.com

جميع كتبنا متوفرة على تطبيق مكتبة كلمات

GET IT ON Google play

Available on the App Store